

لإمام عبد الوهاب الشعراني

دَرْكُ الْفُقَرَاءِ عَنْ دَعْوَى الْوَلَايَةِ الْكُبْرَى



تقديم وتحقيق وتعليق

د / عبد الباري محمد داود

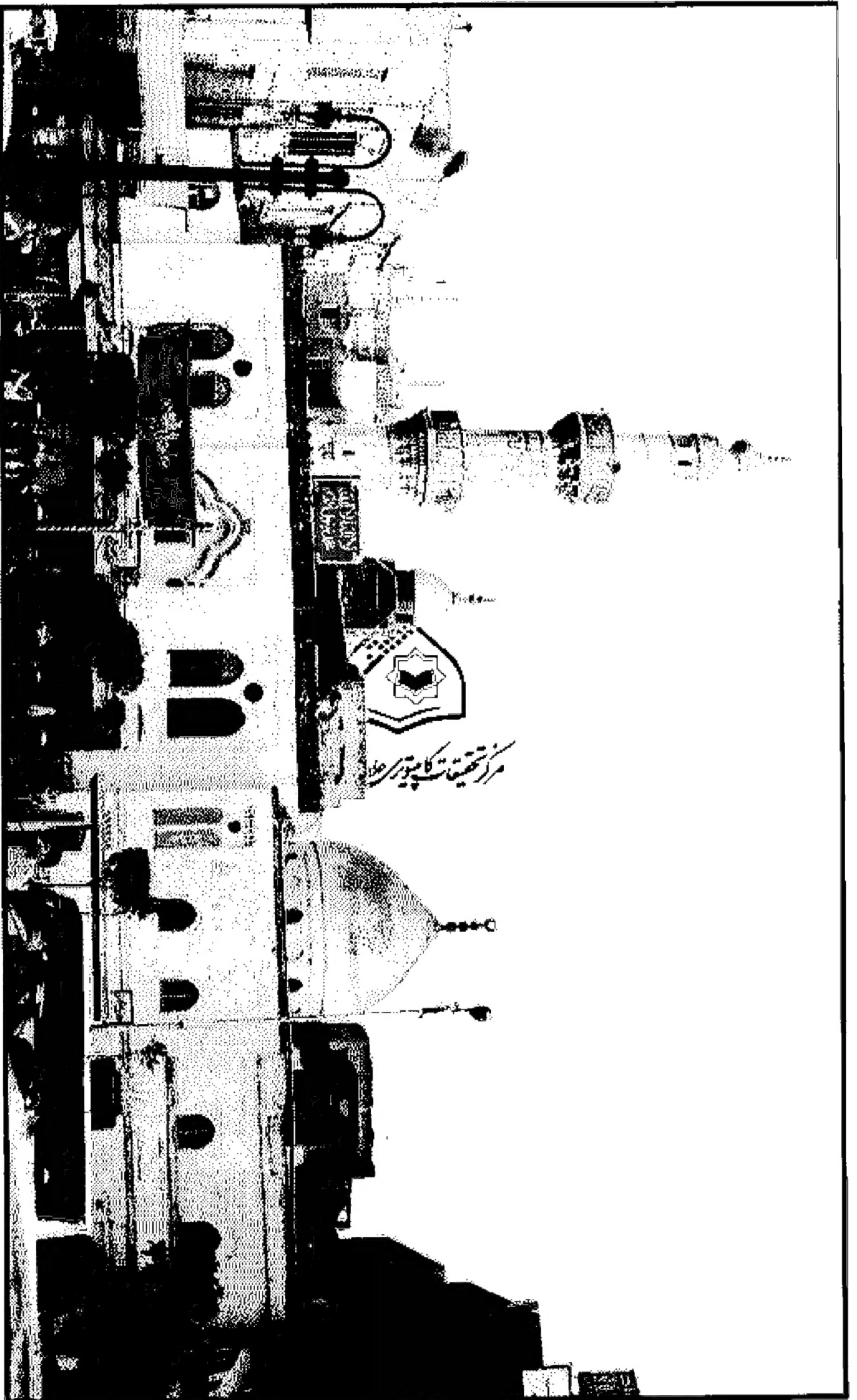
كلية الآداب جامعة بنها

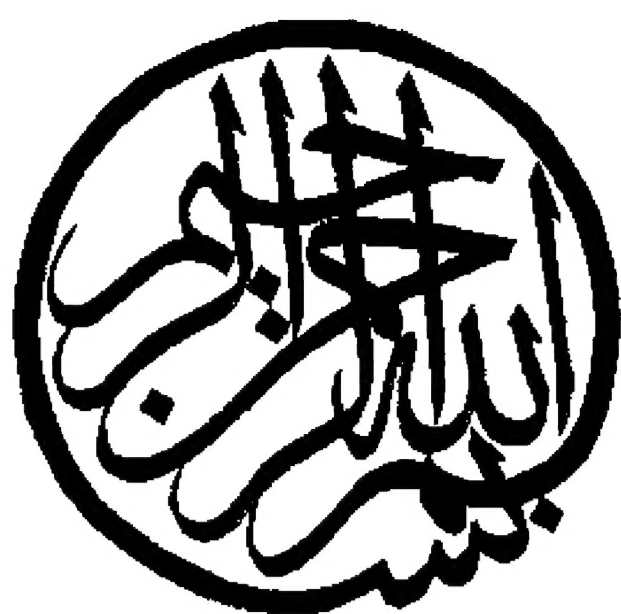


ضريح العارف بالله تعالى سيدى عبد الوهاب الشعرانى



ضريح العارف بالله تعالى سيدى نور الدين الشونى
وهو شيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى وهو موجود فى مسجده





قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿

« سورة يونس : الآيات ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ » .

مقدمة الناشر

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من خالفه وعصاه ،
الذي وفق المتقين للعمل بما يرضاه ، وأوقع بالعاصين ما قدره عليهم
بظلمهم وقضاه ، وأتوب إليه مستغفراً إياه ، وأستعينه مستنصراً ،
بقدرته وقواه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لا إله
لنا سواه ، ولا نعبد إلا إياه ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ،
استخلصه واصطفاه ، واختاره واجتباها ، ثم بعثه بالدين المشهور ،
والكتاب المسطور ، إلى أهل فسوق وفجور ، وضلال وغرور ، فدعاهم
إلى اتباع الهدى والنور ، ونهاهم عن منكرات الأمور ، فبرئت أمته
من العلل ، ونسخ الله بملته جميع الملل . صلى الله وسلم علي سيدنا
محمد وعلي آله ، كما استنقذنا من الضلالة بإرساله . ثم مكارم
الأخلاق ، وأكمل محاسن الأخلاق ، لا تحصى نعوته ومناقبه ، ولا
تعد معجزاته وموآبه ، طاعته واجبه علي من أراد تقواه ، وذلك
لكون الطاعة باباً فسيحاً يدخل فيه المؤمن ليحظى برضا الله
عز وجل .

وبعد فإنه لمن دواعي الفخر والإعزاز أن تقوم مكتبتنا . دار
جوامع الكلم . بنشر وإخراج كتاب « ردع الفقرا عن دعوى
الولاية الكبرى » لسيدى عبد الوهاب الشعراني وهدفنا من ذلك
هو العودة بالتصوف الإسلامي إلى أصوله الأولى المقيدة بكتاب

الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه سلفنا الصالح .

ولقد عاهدنا إلي الدكتور عبد الباري داود لتحقيق والتعليق علي هذه المخطوطة النادرة وعمل دراسة دقيقة لها متعددة الجوانب بغية تنقية التصوف الإسلامي الصحيح مما علق به من الأباطيل والخرافات .. ولقد استعرض المحقق في التعليق علي هذه المخطوطة الجوانب الآتية :

أولاً : أثبت أن مخطوط « ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى » ضمن مؤلفات الإمام الشعراني التي لم تنشر بعد . كما أوضح نسب الشعراني إلي الإمام علي بن أبي طالب عندما تحدث عن سيرته وسلسلة نسبه . وأنه كان صوفياً علي قدر عظيم من الوعي والحركة والعمل الدائب لانقاذ مجتمعه .

ثانياً : أوضح هذا المخطوط الهدف الذي يدور حوله بما احتواه من تنبهات وتحذيرات لكل من ادعي الولاية الكبرى .

وما أروع التعبير الذي نطق به الإمام الشعراني حيث يقول « دوروا مع الشرع كيف كان لا مع الكشف .. ثم يضيف قائلاً .. إن الولي إذا صح كشفه فلا يكون إلا موافقاً للشرعة ومؤيداً لها .. » وهكذا يري الإمام الشعراني ان الشرعة هي السيف القاطع بحده كل بدعة وضلالة .

ثالثاً : ولقد أوضح المحقق منهج الإمام الشعراني في دعوته إلي سلوك الطريقة الصحيح للولاية الشرعية بالدليل المأخوذ من الكتاب والسنة المحمدية حماية من دخول التلبيس فيها ودفاعاً

عن الشريعة الإسلامية .

رابعاً : برزت شخصية الإمام الشعراني في دعوته الصريحة للعلم والعمل وطريقة الاكتساب لكونها طريقة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكذلك أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فالتوكل سنته والتكسب حرفته . وكذلك كان مسلك الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين والتابعين من بعدهم من رجال الزهد والتصوف للأخذ بهذا المنهج في الحرفة والاكتساب والرزق الحلال . ويجب على الإنسان ألا يتقاعس فيكون صاحب عمل متوكلاً على الله ، معتمداً عليه ، واثقاً به ، مسلماً له .

وأخيراً فإن مكتبتنا . دار جوامع الكلم . وهي تقدم هذا الكتاب القيم الخطير بما احتواه من موضوعات هامة ومصطلحات متعددة يعد إضافة جديدة في مجال الدراسات الصوفية كما يعد إضافة للمكتبة العربية عامة والصوفية خاصة ..
نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ..

دار جوامع الكلم

ذو الحجة ١٤٢٥ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم وهو غني وكفي
أمره من أي شيء صلاة عن تسليم علي أشرف المرسلين
أمره من حسب الله ونعم الوكيل وهو لم يقدد دعائي
داعي سبعة على متابعة من الفقراء في هذا الزمان سبعة
أنفسهم بالصوفية ودعوا الرواية الكسري وهم أهل من الظلم
فما يستحق لكل داعي هذه الرسالة أن سأل الله تعالى فصار كل
من دنا له شجرة القاصريان يستحق الذكر جماعة أو أذن
لأول يلقن الناس أو يزيد له وسع في خلوته هاتفا
من جهة أو شجرة ينشئ الله عز وجل فجميع هذه جماعة
من القوام من أهل التصايع وغيرهم فتارة يجلس في بداره
وراحة بطوف البلاد ويكلف العباد في هذه الأيام الكثرة
التي على الحام والقام وهو مع هذا يدعي أنه قائم
في الخلق مكانهم في سعة وسعة وكفى بذلك كفر
وحرمانا وسوادا وابن المقام من المقام وأنت الملائكة من
الشيخين وتوكل من يدعي المشجة من هؤلاء المدعين
نزل الخراج خمسة أمثاله ويتكلف مثل ذلك على الكشاف
واقصاده من سماع العرب وطلاع الطريق ثم بعد ذلك هاف
عظمه وررعه ولم يجد شيئا بأكمله صوره عياله وما نزل ما
للمحبة الله سكر ولم يشكروا لم يحسروا قلبه يتكلم لا يحقده
ولا يتكلم لله شدة بعثة الناس له ما ياكل وما يشرب
هو وحده عنه علم السالم من غير هرامة فكيف لا معذور
يقول الناس لأند لك شاة تريد الضيق إلى الله من استاذ
في دار المحبة من غير حمد وعده المصيدة الخبيثة ويجعل

... ان لم يكن شهودا فاما ما زعمت الخدعة عن
 ... الايمان فلا كلام لنا معه لعل البعض يتبين
 في هذا الزمان فانه لا يصير يحل الان يدر آء
 حوانه وروية انهم دونته بدرجته في
 قوله نكالي ايا المؤمنين اخوة وقوله نقالي
 انه وحي الدين امنوا وقوله نقالي النبي اوتي
 بالمؤمنين من انفسهم ويحمل تفسير خيرا من
 استوانه وليعلم الخلق ذوقه انه نقالي واوتي
 بالمؤمنين من النبي صلى الله عليه وسلم وهذا
 حق فليساح اليهودية على الاطلاق وفي
 هذا القدر كفاية وقد اوضحنا ذلك في رسالة
 الانوار ولواقح الانوار وغيرهما وفي
 هذه الرسالة للتفجير عن طريق هؤلاء المغترين
 فاذا حصل التفجير فليست في بقية رسالنا الموصوفة
 لبيان الاداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء
 واصحاب الحرف وغيرهم والحمد لله رب العالمين والصلاة
 والسلام على اشرف مخلوقاته وزين عبادك
 سيدنا محمد وعلى اله وصحبه
 وسلم ورضي الله عن
 اصحاب رسول
 الله

لعن
 قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله تقدس فى أزليته وأبديته وأحدثه عن النظير والشبيه ، وتنزه فى جماله وجلاله وكماله عن مقالات أهل التموليه ، الغنى عن جميع خلقه ، فلا آن يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ضياء يظهره ، ولا حجاب يخفيه ، الواحد الأحد ، القدوس الصمد ، الذى لا شك فيه ، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته ، فكل ماسواه موجدته ومدبره ومنميه ، الحى العليم القدير السميع البصير ، الملك الكبير ، فلا مقرب لمن يبعده ، ولا مبعد لمن يدنيه . المتكلم بكلام أزلى ، ومن عطل أو شبه فقد وقع فى التيه ، حبيب للمؤمنين ، إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال . فهذا القدر يكفيه ، ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى أوجد الموجودات وخلق العوالم ودبرها واستحق المحامد جميعها ، والأسماء الحسنى كلها ، وأنه على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم خبير .

فالحمد لله سبحانه وتعالى نستمد منه الهداية ، وإلى رحمته نلجأ ضارعين أن يدخلنا سبحانه فى عبادة الصالحين ، وأن يدخلنا برحمته مدخل صدق ، وأن يخرجنا مخرج صدق ، وأن يجعل لنا من لدنه سلطاناً نصيراً .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة عامة

أحمدك ربى ، خلقت فسويت ، وقدرت فقضيت ، وعافيت
وأبليت ، وعلى العرش استويت ، وعلى الملك احتويت .
الحمد لله رب العالمين ، الحمد الذى أرشد العقول إلى توحيده ،
والذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، الحكيم
العليم ، اللطيف الخبير بعباده ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، له الحمد
كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، لا إله إلا هو السميع العليم .
والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين ، إمام الأنبياء وسيد
المرسلين ، الشمس المضيئة لكل الشمس ، والغيث المفاض لتزكيه
النفوس ، أرسله الله رحمة للعالمين نبينا سيدنا محمد صلوات ربى
وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

يعتبر مخطوط : « ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى »

من أهم مؤلفات الإمام الشكراني حيث أنه رسم فى مؤلفه هذا
الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكه المرید الصادق فى دعوته
لطلب الولاية . وهو يعد بحق ردعاً صادقاً لكل من ادعى الولاية

الكبرى كما هو واضح من عنوان هذا المخطوط .

لذلك يطالب الإمام الشعراني أصحاب هذه الدعوى المزعومة بالرجوع إلى الكتاب والسنة لوزن أقوالهم وأفعالهم عليهما . ولقد كان هذا هو شأن الصوفية السنيين في معالجة جميع مسائلهم .

ونوجه الانتباه هنا إلى أن أصحاب هذه الدعوى ليسوا منصفين في دعواهم الولاية الكبرى وذلك لأن ميزان التفاضل بين الناس إنما يكون في سلوكهم منهج الاتباع الذي هو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وصحابته رضوان الله تعالى عليهم ، ومن تبعهم بإحسان .

لذلك نجد الإمام الشعراني علق بنصوص كثيرة في هذه الرسالة يحذر فيها أصحاب هذه الدعوى .

إن منزلة الولاية الكبرى منزلة عالية لا ينال التزبي بها إلا أهلها حقاً الذين وصفهم الحق سبحانه وتعالى في كتابه بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ (١)

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) .

(١) سورة يونس : الآيتان : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية : ٢٥٧ .

وفي الحديث القدسي : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » (١).

من هنا جاء تحذير الإمام الشعراني لكل من ادعى الولاية الكبرى لكونها منزلة عالية لا ينالها إلا كل تقى حقاً استفرغ طاقته في طاعة الله سبحانه وتعالى .

ولما كان موضوع دراستنا هو : « ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى » .

ومن ثم جاء ترتيب هذا المؤلف على النهج التالي :

١- نبذة عن الإمام الشعراني :

عاش الإمام الشعراني في القرن العاشر الهجري مواكباً العصر المملوكي العثماني .

- **سيرته** : وهي التي تتصل بنسبه ، وميلاده ، ونشأته ، واتصاله بأساتذة العلم .

- **شيوخه** : وهم الذين تتلمذ عليهم ، وأخلص في خدمتهم ، وتأدب بأدابهم .

ولقد ذكر الإمام الشعراني هؤلاء الشيوخ في طبقاته « الصغرى » ، وطبقاته « الكبرى » بشيء من التمجيد والإعزاز .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في باب التواضع ، ج ٨ ، ص : ١٠٥ ، ورواه الترمذي .

زهده : يتمثل هذا الزهد في ورع الإمام الشعراني حيث بُعد عن الناس وتكشف في مأكله ، ومشربه ، وملبسه ، ورزق بالقناعة التي جعلته يكتفي باليسير من أمور الدنيا في سبيل تلقي العلم ، وفهمه ، ودراسته .

مؤلفاته : ألف الإمام الشعراني أعداداً كثيرة جداً من المؤلفات في شتي فروع المعرفة . كما أوضح أنه ما قام بتأليف هذه المؤلفات إلا بعد قراءة كثير من الكتب ، ولقد ذكرت أكثر من سبعين مؤلفاً من مؤلفاته .

ولقد قمنا في هذه الدراسة بوصف المخطوط ، وحالته ، ونسبته إلى الإمام الشعراني .

فالمخطوط كما أسفرت الدراسة : رسالة مخطوطة تحت عنوان : « **ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى** » . ولم تقسم هذه الرسالة إلى أبواب ، أو فصول . وأوضحت الدراسة حول هذه الرسالة المخطوطة أنها لم تقسم إلى أبواب أو فصول لصغر حجمها وكون عدد أوراقها لم تستوعب فصولاً ولا أبواباً .

والذي يؤكد صحة مانقول ونجزم به حقاً أنها رسالة . وطبيعة الرسالة تكون موجهة من صاحبها إلى غيره فلا تحتل أبواباً ولا فصولاً .

وفي النهاية قدمنا نتائج هذه الدراسة ، وهي تلك النتائج التي
توصلنا إليها من خلال دراستنا لهذا المخطوط .

و فهرس الموضوعات .

وقد تكشف للباحث أن الطريق الوحيد الموصل إلى الشريعة
الثابتة هو ربط ظاهر الإنسان بباطنه ، وعقله ، وقلبه ، ووجوده بخالقه
حتى يتيسر له استجلاء الغامض وكشف المجهول . وهذا ما توصلنا
إليه في نهاية هذه الدراسة .

الدكتور

عبد الباري محمد داود

القسم الأول

تقديم دراسة حول شخصية الإمام

عبد الوهاب الشعراني

- ١ - نبذة عن عصر الإمام الشعراني
- ٢ - حقيقة التصوف عند الإمام الشعراني
- ٣ - سيرة الإمام عبد الوهاب الشعراني
- ٤ - شيوخ الإمام الشعراني
- ٥ - حقيقة الزهد عند الإمام الشعراني
- ٦ - مؤلفات الإمام الشعراني
- ٧ - منهجنا في الدراسة والتحقيق
- ٨ - نسبة المخطوط إلى الإمام الشعراني
- ٩ - الإشارات المستخدمة في التحقيق والدراسة
- ١٠ - منهج الإمام الشعراني

القسم الأول

تقديم دراسة حول شخصية الإمام الشعراني

نبذة عن عصر الإمام الشعراني

مما لا شك فيه أن قيام خلاف فكري حول تقييم شخصية ما ، يعطينا حقيقة هامة جداً هي أن هذه الشخصية التي اختلف العلماء في فهمها شخصية عظيمة دون مرأ .

وفي أغوار العظمة السحيقة لهذه الشخصية ودروبها المتعددة الأنحاء تتجه تيارات الفكر باحثه عن غاية تقف عندها ، ثم تستجمع ما عن لها من ملاحظات على الطريق ، لتدلى برأى قاطع حول تلك الشخصية .

وقد تجتمع الآراء على شيء واحد لا تراه معلناً واضحاً ، ثم تفرق في تقديم القيمة الحقيقية لهذه الشخصية حسبما بدت لتلك العقول الفاحصة .

أما ما يمكن فهمه من الخلاف حول تفسير حقيقة شخصية هذا العارف العظيم فهو أنه شخصية أفسح وأعمق من أن تسبرها العقول منفردة ، وأما ما تظالعا به التقارير النهائية عن هذه الشخصية فهو

الخلاف حولها من الولاية إلى الزندقة ، من الكفر إلى الإيمان ، من القمة إلى الحضيض .

ولاشك أن الإمام الشعرانى بحق يعد من العارفين الراسخين فى العلم ، المتحققين بعلم الشريعة ، سالكاً الطريق الصحيح ، معتمداً على الله ، متوكلاً عليه ، وازناً جميع أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة ، فوصل إلى الحقيقة .

أو بعبارة أخرى ربط الشريعة بالحقيقة ، فمن وجهة نظره كل شريعة حقيقة ، وكل حقيقة شريعة من وجه آخر .

وهكذا نستعرض التراث الرفيع من شخصيات الإسلام فلا نجد يشذ عن هذه القاعدة إلا فى تفاصيل الخلاف .

فالإمام الحارث المحاسبى ، والإمام الجنيد سيد طائفة الصوفية ، والحكيم الترمذى ، وأبو طالب المكى ، والإمام أبو حامد الغزالى الذى لقب بحجة الإسلام ، والإمام السهروردى ، والإمام الأكبر الشيخ محسى الدين بن عربى ، والإمام الشعرانى ، وأضرابهم . كلهم تردد العقل البشرى فى تقدير حقائقهم بين الصلاح والفساد ، أو بين الولاية والزندقة ، أو بين البناء والهدم ، إذا حسنت النية واستقامت عقلية البحث على منهج قويم من مناهج الفكر الرائد المحب للحقيقة .

أما الفكر الحاقداً الحاسداً فإنه يجتمع على التجريح وعلى هدم

القيم الإنسانية مهما بلغت من مراتب السمو والجهد العنيف في سبيل
البناء والتعمير .

وهنا نوجه أصحاب العقول المستنيرة إلى أن الإمام الشعراني
كسابقه من العلماء تعرض للتجريح والحقن والدس عليه في كتبه .
ولم يكن نصيب الإمام الشعراني بأقل من أنصباء إخوانه السابقين من
الحقد والحسد والتجريح ، ولن يكون أقل من أنصباء اللاحقين . فقد
تركزت حملات الحاقدين عليه فوق رمية بالعظائم في الدس في كتبه
بما يؤيد الفكرة التي يهدف إليها الحق المدبر الذي لا يدع قمة إلا
أهدرها دون وعى . ولكن الحق يعلو دائماً ، والباطل يفضح نفسه
بنفسه مهما أزرتة الحجة التي تدعى من تلقاء نفسها مع قليل من
الفحص والتدبر .

حقيقة التصوف عند الإمام الشعرانى

ينبغى أن نوضح فى هذا المقام أن الإمام الشعرانى كان صوفياً على قدر عظيم من النضج العقلى الواعى . أو بعبارة أخرى يمكن القول : كان صوفياً متحققاً بعلمى الشريعة والحقيقة ، وعلى قدر من الوعى والحركة والعمل الدائب المتواصل لإنقاذ مجتمعه مما لحق به من آلام وبلاء جره عليه نوع من الحكم الظالم . حكم الدم الغريب الأهوج ، إذ اصطلى الشعب المصرى بنار الصراع الذى انتهى بقتل السلطان الغورى ودخول السلطان سليم الأول إلى مصر .

وكان هناك فى مصر طبقات ثلاث :

الأولى : طبقة من العلماء : وكان هدف هذه الطبقة وكل اهتمامها منحصراً فى إرضاء الحاكم الدخيل ، مسلمين له كل تسليم ، طامعين فى عطائه لهم ، بائعين ضمائرهم ، مهدرين كرامة بنى وطنهم وكل ذلك فى سبيل المطامع والأهواء الشخصية .

وقد عرض الإمام الشعرانى لكثير من هؤلاء بالتشهير فى معركتهم مع الإمام جلال الدين السيوطى وغيره من العلماء المخلصين من أهل الحق .

الثانية : طبقة الفلاحين : وهؤلاء هم الكادحون الذين صورهم

الإمام الشعراني في كتابه : « البحر المورود في الموائيق والعهود » بأنهم كانوا يعملون طول العام ، ثم لا يكتفى الحاكم الغريب بأن يستولى على محصولهم من الزرع حتى يستولى على الجاموسة والبقرة .

الثالثة : طبقة الصوفية ؛ وهؤلاء كانوا أكثر التصاقاً بالشعب ، وأشد تلاحماً معه في أزقته وحواريه ودروبه ومجتمعاته ، ومع تلاحم الصوفية بالأوساط الشعبية فإنهم كانوا على صلة وثيقة بالعلماء جميعاً . والمخلصين منهم لتنظيم خطط الإصلاح ومقاومة الحكام الدخلاء ، والمصلحين منهم بالجرح والفضح والتشهير وكشف الخداع . ولم يكن نقدهم للعلماء بأهون من نقدهم للصوفية الزائفين أنفسهم ، بل إن الضلال هو الضلال ، سواء أكان في عالم رسمي ، أو في عين من أعيان القاهرة ، أو غيرها من البلاد ، أو متصوف دخيل .

وكان الإمام الشعراني من أبرز الشخصيات التي تصدرت لحركة الإصلاح هذه في أوساطها جميعاً ، ولا سيما في بيئة العلماء وبيئة الصوفية ، إذ أصبح الفلاحون وأرباب الصنائع فرائس للأدعياء من هؤلاء ، ومن رجال الحكم الغرباء عن البلاد .

ولقد ألف الإمام الشعراني رسالة في هذا المعنى أودع فيها رأيه الصريح بما يدفع أولئك الذين دَسَّوْا على كتبه ما يشوه مقاصده القويمة

السامية .

فقال : « صار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر
بجماعة ، أو أذن له بأن يلقي الناس أولم يأذن له ، أو سمع في خلوته
هاتفاً من جنى أو شيطاني ، يظن أنه ولي الله ، فيجمع له جماعة من
العوام من أهل الصنائع وغيرهم ، فتارة يجلس في بلدته ، وتارة
يطوف البلاد ، ويكلف العباد في هذه الأيام الكدرة النكدة على
الخاص والعام ، وهو مع هذا يدعى أنه قائم في الخلق مقام نبيهم صلى
الله عليه وآله وسلم ، وكفى بذلك جهلاً وسوء أدب .. أين المقام من
المقام ؟ وأين الملائكة من الشياطين ؟

ولقد أورد الإمام الشعراني في رسالته : « **ردع الفقراء عن
دعوى الولاية الكبرى** » : أن كل من نظر فيها بالأدب من
مشايخ هذا الزمان علم يقيناً أنه لم يشم رائحة الولاية فضلاً عن
حصولها فيستريح من الدعاوى الكاذبة لأنه يجد نفسه عارياً عن
صفات الأولياء .

كما أورد في موطن آخر من هذه الرسالة : « من أراد أن يتصدر
للمشيخة وتربية المريدين أن يعرف تلامذته أول يوم أخذ الله فيه الميثاق
في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ
وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١﴾ .

وأن يعرف من يفتح له على يده ممن كان لا يفتح له . هكذا درج عليه الأولياء العارفون .

وأورد أيضاً : « مامن ولي حق له قدم الولاية إلا ويعلم العلوم اللدنية كشفاً وذوقاً لانقلأ وفهماً » .

كما قال : « لا يجوز لشيخ أن يلحق أحداً من الخلق إلا أن يكون يعرف مراد حركاتهم ومصادرها، ويعرف الأنفاس والنظرة، وماله ويعرف بالشم أهل الطريق الذين يصلحون من الذين لا يصلحون، ويعرف ما قسم لتلميذه من الأعمال حتى يأمره بها على وفق القسمة السابقة ، لامن يعرف ذلك بأمر الخلق بأن يفعلوا مالم يقسم لهم مالم يستطيعوا بشرطه ، وأن يشاهد تصاريف الأقدار في الخلق فيأمرهم بفعل ما أراد الله في كل وقت . وهذا ما أجمع عليه الأولياء . فمن لم يصل إلى ذلك فيلدخل في غمار الناس ولا يتصدر لشيء من صفات الأولياء يهلك نفسه ومن يتبعه » .

وقال أيضاً : « قد أجمع أهل الله تعالى أنه لا يجوز لولي أن يتصدر أو يتظاهر في الولاية في وقت من الأوقات حتى تجتمع

الأولياء أصحاب الدائرة والطريق ويبايعونه فى اليقظة ويدخلون تحت طاعته » .

وينبه الشعرانى فى هذه الرسالة مريده قائلاً : « من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير . وهنا أسرار لا تنفى فاعلم ذلك . فإذا لم يعلم الشيخ ذلك فكيف يسلك ويتشبه بالأولياء الذين يعرفون ذلك » .

ومن أقوال الشعرانى : « الجاهل لا ينبغي له أن يتصدر لباب الدعوة » .

وكذلك يطالب الإمام الشعرانى كل من طرق باب الدعوة إلى الله أن يكون عالماً بالعلوم الشرعية، عاملاً بها، سالكاً عليها، مطبقاً لها، فيكون من المتبعين لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولقد أودع الإمام الشعرانى الآداب التى يتحلى بها المريد السالك طريق الحق فى رسالة : « الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية » .

كما أودع فى رسالة : « الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية » . جانباً من الأخلاق التى يتحلى بها الصوفى العارف بالله .

وينبه الإمام الشعراني مريده في هذه الرسالة بقوله : إن المدعين المشيخة قد طرحوا السياج وليس أحد منهم يقتدى به . ومن شك في ذلك فليعرض أوصاف القرآن ونعوته لأهله وخاصته يعلم ذلك يقيناً .

فالمسلم الكامل حسبما يرى الإمام الشعراني أعز من الكبريت الأحمر .

من هنا قال : لا يكون المسلم كاملاً حتى يسلم لسانه وسمعه وبصره ويده وفرجه وقلبه مما حرم الله تعالى ظاهراً وباطناً . وأين للمدعين هذه الرتبة ولا جراحة لهم إلا وعصت الله مراراً .

والمقصود من قوله هذا : الذين يدعون رتبة المشيخة والولاية وهم ليسوا من أهلها .

ويعقب على ذلك بقوله : إذا كان هذا في رتبة الإسلام فكيف تسلم له رتبة الإيمان فضلاً عن رتبة الولاية . وكيف يليق بمن لم يحصل له رتبة الإسلام أن يكون داعياً إلى الله تعالى محباً لا ينازعه في الكمال والاسم فإن الولي اسم من أسماء الله تعالى .

كما يحذر الشعراني مدعى الولاية من الاغترار بالنفس فعليهم

أن يسيروا في طريق العلم والأدب منهجاً وسلوكاً . ولا ينبغي لهؤلاء أن يشاهدوا أحوالهم مستقيمة وأحوال غيرهم معوجة وينصبوا أنفسهم متبوعين لاتابعين لذلك جاء تنبيهه بمخالفة النفس فقال : « اعلم أن درجات الاستقامة شهود العبد العوج في نفسه وأعلى درجات الاعوجاج شهود الاستقامة في نفسه » .

كما جاء تحذيره بعدم التقليد للأئمة والفقهاء تقليداً أعمى بأن يعمل شيخاً ويقلد كلام الفقهاء أو لرسالة شيخ من مشايخ الصوفية فإن في ذلك هلاكاً لمن قلد .

لذلك قال : أحسن أعمال العبد أن يرى نفسه عاصياً وقلبه قاسياً فإنه يصير حينئذ لادعوى عنده . وهذا مآدرج عليه أهل الله لأنه وصفهم على الدوام .

ويوجه الإمام الشعراني نداءً لكل من ادعى الولاية يدل على معاشته لهؤلاء المدعين يقول فيه : كيف تطلب أن تكون من المؤمنين وأنت طالب لأوصاف المتكبرين من الصلاة على السجادة ؟

ويعود فيقول : هذا من أفعال الغافلين المحجوبين فكيف يكون صاحبه داعياً إلى الله تعالى وهو لا يعرف طريق بابه ؟

فاعلم ذلك واحذر من اقتفاء آثار المتظاهرين في هذا الزمان

بالمشيخة فإنهم لا يسلكون بك إلا من طريق المقت .

كما قال : احذر أن تقر أحداً من المعتقدين على وصفه لك بالولاية والصلاح بل ازجرهم على ذلك . واعلم أن درجة الإسلام عزيزة في مشايخ هذا الزمان لكثرة المنازعة في بواطنهم لله تعالى في صفات الكمال بما يستحق به المدح ورفع المنزلة على الخلق ، والإسلام هو الاستسلام والانقياد لله تعالى ولعباده ظاهراً وباطناً وألا يكون عنده منازعة في شيء من الكمالات وأن يسلم اعتقاده وإيمانه من الشكوك والأوهام المضلة عن طريق الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين . إذا علمت ذلك فتيقظ لنفسك ولا تقلد أحداً في علمك بها فإن الخلق لا يعرفون منك إلا ظاهرك والمدار على السرائر لا على الظواهر .

وقد كثر في هذا الزمان المدعين وصار كل مدعٍ ينصب له نقباء وكذابين ويقولون : أن شيخنا هو صاحب العصر . وكل ذلك مصيدة للدنيا وتأمل مدحهم لشيخهم إنما يكون دائماً عند الأمراء كبراء البلاد .

ويختتم الشعراني هذه الرسالة بقوله : « أدب العبيد شهودهم سوء أدبهم في جميع معاملاتهم مع الله تعالى ومع خلقه فاعلم ذلك واحذر إذا فتح الله بصيرتك وعلمت قلة أدبك وعدم استقامتك أن

ترك باب النصح والإرشاد لإخوانك وتقول الأعوج لا ينبغي له أن يتصدر لإرشاد أحد فإن ذلك جهل بل انصح وارشد غيرك مع رؤيتك أنه أفضل منك .

كما قال : « من علامة الجهل بطريق أهل الله تعالى البروز للدعوى بغير داع إلهي يدعو به إلى ذلك . وقد وضعنا هذه الرسالة للتفسير عن طريق هؤلاء المفترين فإذا حصل التفسير فليُنظر في بقية رسائلنا الموضوعة لبيان الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء وأصحاب الحرف وغيرهم . »

ويذهب الإمام الشعراني في كتابه : « الكوكب الشاهق » فيقرر أن الأخلاق في عصره - القرن العاشر الهجري - قد انحدرت عما كانت عليه في العصور السابقة ، حتى أنه يرى أن أخلاق المريدين في الأزمنة السابقة ، أضحت هي أخلاق مشايخ عصره ، وهذا نفس ماقرره الإمام أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) في كتابه : « إحياء علوم الدين » ، وبرغم اختلاف مشايخ عصر كل من الغزالي والشعراني ، فإنه يبدو أن الأخلاق تنحدر باستمرار كلما بعدت عن صدر الإسلام . أي عصر الصحابة المقربين ، وقدوة السالكين ، الذين نعتهم الله تعالى

فى القرآن الكريم بأن أعينهم كانت تفيض من الدمع خشية من الله وتقشعر جلودهم إجلالاً لعظمة الله سبحانه وتعالى .

ويذهب أيضاً فى كتابه : « تنبيه المغترين » فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، والذى يحتوى على دراسة مائة وستين خلقاً استخلصها الشعرانى من أخلاقيات الصوفية مما أسماهم بالسلف الصالح ، وأوضح أن هذه الأخلاق تميزهم عن غيرهم إذ هى صفات ملازمة لهم وأوصاف لأشخاصهم . ولعل هذه المشاعر النبيلة نحو الشعب هى التى دفعت الإمام الشعرانى إلى تجربة إصلاحية كان مركزها زاويته التى احتلها مسجده الآن ، حيث جمع فيها عدداً هائلاً من طلبة العلم ، ورواد الطريق ، وأقام بينهم نوعاً من الحياة التعاونية ، وأجرى عليهم مافتح الله به عليه من صالحى الأغنياء كما كانت تجرى الأرزاق على طلبة الأزهر ، ولكن بروح الصفاء والحب لابروح الصراع والقتال ، ولعل هذه المشاعر أيضاً هى التى دفعته على التفوق على الأزهر فى رعاية طلابه إذ شمل برنامجه الإصلاحى تزويج الطلاب وتجهيزهم بكل ما يحتاج إليه الأزواج حتى الإقامة كانت مكفولة للطلاب وزوجاتهم فى قسم خاص من حجرات الزاوية . ولاشك أن هذا الاتجاه هو الذى أثار علماء الأزهر على الشعرانى حتى هموا بقتله ولم ينالوا منه شيئاً .

ولقد أوضحت هذه الدراسة أن الإمام الشعراني سبق عصره بقرون عندما استخدم الطريقة العلمية في الدراسة وهو ما يعرف الآن بالأنثربولوجيا أو علم الإنسان الإجتماعي ، والتي تصب في دراستها كل اهتمامها على دراسة المجتمعات الصغيرة والبسيطة والمحدودة دراسة تحليلية وموضوعية بقصد الوصول إلى نظرية متكاملة تفسر المجتمع المدروس .

ولقد قام الإمام الشعراني بوضع فرض حاول امتحان صدقه من كذبه مفاده أن أخلاق المريدين في الزمن الماضي - أي الزمن السابق على عصره - صارت أخلاق الشيوخ في زمانه ، واعتمد الشعراني في جمع معلوماته عن طريق اللقاءات المستمرة بأهل الطريق مستخدماً في ذلك الملاحظة المباشرة وغير المباشرة تلقاها كما يقول عن نحو مائة شيخ ممن أدركهم في أوائل القرن العاشر في مصر وقراها ، بعضها شاهده من أفعالهم ، وبعضها اقتبس من نور أخلاقهم .

والجدير بالذكر في هذا المقام أن الإمام الشعراني قد وقف على أحوال الصوفية في عصره وتعرف على مشاربهم ، وتذوق مواجيدهم ، وتفهم رموزهم وإشاراتهم واصطلاحاتهم وعباراتهم ، والتمس لطائفهم ، ودقائقهم ، ورقائقهم ، وعابن مجالسهم ، فتكشف

له بذلك صادقهم من كاذبهم .

وأما السبب الرئيسى فى اهتمام الشعرانى بهذه الدراسة الفريدة
والتي يورد أنه لم يجد أحداً قد اعتنى بشيء منها ، يرجع إلى خوفه من
أن تدرس أخلاق الصوفية باندراس تلاميذهم .

ومما يؤكد صدق ما استخلصناه من أن الإمام الشعرانى يعد بحق
رائداً من رواد الأنثربولوجيا الحديثة أنه اتبع فى دراسته نفس المنهج
العلمى الذى يتبعه علماء الأنثربولوجيا فى دراساتهم الحقلية
والمسحية ، فهو لا يألو جهداً فى فحص وتمحيص ما يسمعه ويلقاه
ويشاهده أو ينقل إليه ، ويعتمد فى ذلك على موازين دقيقة فى إصدار
الحكم على الأحداث والوقائع والمشاهدات ويبرهن على صحة ذلك
بقوله : « وهى كالسيف القاطع لعنق كل من يدعى الصلاح فى هذا
الزمان بغير حق لأنها تغسله وتسلخه من طريق الصلاح كما تنسلخ
الحية من ثوبها ، ولقد حررتها على الكتاب والسنة تحرير الذهب
والجواهر بحسب فهمى ومقامى » .

ولاشك أن هذا النص للإمام الشعرانى يدل دلالة قاطعة على
مدى تمسكه الشديد بالكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعملاً وسلوكاً
وتطبيقاً .

وإذا كان الإمام الشعرانى قد سبق عصره فى هذه الدراسة التى

أصبحت علماً يدرس . فكان جل اهتمامه منصّباً على الدراسات
المقارنة لتحليل الوقائع وكشف الأمور وتمحيصها للتعرف على الغث
من السمين .

والحقيقة أن دراسة الإمام الشعراني للمجتمع الصوفي في عصره
وما توصل إليه من نتائج تؤكد انحدار الأخلاق ، قد عززتها كتب
التاريخ ، وما أرخه المؤرخون لهذا العصر الذي حكم فيه المماليك
مصر ثم أذن الله مع بداية القرن العاشر الهجري للرحيل ليستقبل
العصر حكم العثمانيين ، وقد سبق ذلك الظلم والجهل والفقر والمرض
والفساد وعمت الفوضى أرجاء البلاد ، واضطراب الأمن ، وجنحت
أداة الحكم للانحلال ، وبدت مصر وكأنها قد اعتزلت العالم إذ وافق
ماتعنيه من ضنك اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الأمر الذي زاد
في عزلتها .

ولم يكن حكم العثمانيين لمصر بأفضل من حكم المماليك لها ،
فقد أفقدوها خلافة المسلمين وضيعوا عليها زعامتها على دولهم ،
وعملوا على إرهابها بالسلب والنهب والمفاتن ، وفرض الضرائب
الجائرة ، واغتصاب الخراج عنوة ، كما نقلوا خيرة صناعاتها إلى الآستانة
، وأهملوا الزراعة ، وأخلفوا سنة المماليك في رعاية العلم إلى ما لا يكاد
يتجاوز علوم الدين الثقيلة ففسدت الحياة واستشرى الجهل بين الناس .

وفى هذا الجو المشحون بالظلم والفساد نشأ الإمام عبد الوهاب الشعراني (٨٩٨ - ٩٧٣ هـ) . وقد صحب المماليك حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، وقضى فى صحبة الحكم العثماني خمسين عاماً طوالاً ارتبط بآلام مجتمعه وبيئته وإخوانه .

ولقد تناول الإمام الشعراني قضايا عصره بالاهتمام والوعى الناضج الذى يدل على علو همته ، وبراعة فكره ، فاندمج فى صفوف الشعب يتلمس آلامه ، ويكشف عن أمراضه الاجتماعية ، وينقد ويرسم الطريق للإصلاح ، حتى كان هدفها لسهام طائشة من العلماء وأدعياء التصوف كان أخطرها الدس فى كتبه ولاسيما فى طبقاته الكبرى .

ولكى نوضح مكانة الإمام الشعراني فى علوم الشريعة لابد من التعرف على مدى مطابقة علوم الحقيقة على علوم الشريعة عند الإمام الشعراني وموقفه من المبتدعة ، والزنادقة ، والباطنية ، الذين خرجوا عن ظاهر الشريعة ، ثم موقفه من فقهاء عصره . ولقد أوضحت هذه الدراسة بين صفحاتها مكانة الإمام الشعراني فى علوم الشريعة . وهذا يتضح فى مطالبته بالالتزام بما جاء فى الكتاب والسنة وعدم مخالفة ما جاء فيهما .

وكما أوضح فى أحد نصوصه أن الولي لا يأتى قط بشرع جديد ، وإنما يأتى بالفهم الجديد فى الكتاب والسنة .

لذلك فإن تعلم الفقه ضرورة قبل الدخول في طريق التصوف .
ومن هنا قيل : « كن فقيهاً صوفياً ولا تكن صوفياً فقيهاً » . أى تفقه
أولاً ثم تصوف .

وتدليلاً على ذلك يقول الإمام مالك : « تفقهوا ثم اعتزلوا » .
وهذا يعنى أنه لا بد من دراسة العلوم الشرعية التى تعتمد على
الفكر والنظر قبل دخول طريق التصوف .

ويرى الإمام الشعرانى أن الشريعة هى السيف القاطع بحده كل
بدعة وضلالة . وفى ذلك يقول : دوروا مع الشرع كيف كان ، لامع
الكشف .

ويوضح ذلك بقوله أيضاً : إذا صح كشف الولى فلا يكون
إلا موافقاً للشريعة ومؤيداً بها .

وهذا القول للإمام الشعرانى يتضح منه أن الشريعة الثابتة عن
طريق النقل والظاهرة أصح مما يأخذها الولى من طريق الإلهام .

والحق سبحانه وتعالى أمر علماء الشريعة وأئمتها أن
يحافظوا على ظاهر الشريعة . وهنا يقول الشعرانى : لولا علماء
الشريعة لتعدى غالب الناس الحدود إذا لاح لهم بارق من علم
الحقيقة فأفسدوا بذلك نظام الشريعة لكن الذى لا ينبغي إغفاله أن

تسمية علماء الشريعة بأنهم علماء الظاهر فيه إجحاف بالشريعة وعلمائها إن أريد بذلك أن الشريعة وعلماءها تقف عند إصلاح ظاهر الإنسان فقط وتقتصر عن إصلاح باطنه ، فالشريعة لم تشرع لإصلاح الظاهر فحسب ، بل هي كفيلة بإصلاح ظاهر الإنسان وباطنه .

فالشريعة والحقيقة متلازمان لا توجد إحداهما إلا ومعهما الأخرى .

وقد قال المحققون : شريعة بلا حقيقة عاطلة ، وحقيقة بلا شريعة باطلة .

وينقل الشعراني عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري قوله : « قد أجمع الناس على أن كل من خرج عن الشريعة المطهرة في شيء من أقواله أو أفعاله أو عقائده ، أو جهل شيئاً من أدلة الأمر والنهي فلا يصلح للتصدر في الطريق ، وذلك لأن الناس كلهم يصيرون ناظرين إلى أقواله وأفعاله لا يقتدون به فيها » .

كما أنه لا يجوز لأحد من الصوفية أن يقدم على فعل شيء أو تركه إلا بعد بيان مستنده من الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة .

أو بعبارة أخرى فإن طريق الصوفية مقيد بالعمل على وفق
الكتاب والسنة فمن لم يفهم معاني القرآن والحديث لا يقتدى به في
الطريق. من هنا جاء تحذير الإمام الشعراني في التمسك
بظاهر الشريعة .

سيرة الإمام عبد الوهاب الشعراني

تتصل سلسلة نسب الإمام عبد الوهاب الشعراني إلى الإمام علي ابن أبي طالب لله ، وينحدر عن قبيلة زغلة من أعمال المغرب العربي .

أما جد الشعراني فهو أبو عبد الله أحمد الزغلي سلطان تلمسان بالمغرب ، وقد تصوف ابنه موسى أبو عمران وآثر التصوف على السلطنة .

وأخذ الطريق على يد الإمام أبي مدين التلمساني الذي أرسله إلى صعيد مصر لتكتمل تربيته حيث مات هناك سنة ٧٠٧ هـ ، وكان ابنه أحمد والد الإمام الشعراني بصحبته مهاجراً بعد موت والده ، إلى ساقية أبي شعرة ، وهي قرية بالمنوفية تجاه النيل وإليها ينتسب الإمام الشعراني (١) .

ومن ترجمته قد أرخ لنفسه في كتاب : « لطائف المنن » :
حيث قال : « أحمد الله تعالى حيث جعلني من أبناء الملوك ، فإني بحمد الله تعالى : عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن محمد زوجا ابن الشيخ موسى . جدي السلطان السادس ابن السلطان أحمد ابن

(١) الزركلي ، خير الدين : الأعلام (بيروت : دار العلم للملايين ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ج ٦ ، ص : ٢٣١) .

السلطان سعيد ابن السلطان فائين ابن السلطان محيا ابن السلطان
زوغا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى ابن السيد
محمد ابن الحنيفة بن الإمام على بن أبي طالب لله . ونعرف من
الترجمة أن هؤلاء السلاطين كانوا في المغرب الأقصى (١).

أما ميلاده فقد كان عام ٨٩٨هـ بقرية قلقشندة ثم انتقل
بعد أربعين يوماً إلى قرية أبيه وإليها اشتهر باسمه الشعراني أو
الشعراوى (٢).

وقد غادر قريته إلى القاهرة طلباً للعلم حيث استفاد من كثرة
شيوخ القاهرة وأقام بالجامع الأزهر ملازماً لشيخه وأستاذه نور الدين
الشنوني نحو خمس سنين .

ثم غادر الأزهر إلى الجامع النجدي عام ٩١٩هـ ، ولبث به سبعة
عشر عاماً ، ثم تحول بعدها إلى مدرسة أم خوند حيث اشتهر شهرة
كبيرة (٣).

(١) الشعراني : لطائف المتن ، تقديم عبد الحليم محمود (القاهرة : عالم الفكر ، سنة
١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ص : ٥ .

(٢) ورد عن المناوى أنه ولد يوم ٢٧ من رمضان سنة ٨٩٨هـ . وكذلك على مبارك ،
والمستشرق شاخ . ويقول توفيق الطويل في كتابه : « أعلام الإسلام » عن
الشعراني أنه لاصحة لما جاء في المناقب الكبرى وغيرها مما يخالف ذلك . هذا فيما
يتعلق بميلاده .

(٣) توفيق الطويل : الشعراني « أعلام الإسلام » (القاهرة : دائرة المعارف الإسلامية ،
سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٥م ، ص : ٥ .

وفي هذه الفترة اتصل بأساتذة العلم منهم جلال الدين السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، وناصر الدين اللقاني ، والسمنودي ، وغيرهم كثير . حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، والتزم القيام بالفرائض وهو ابن ثمان سنين .

ولقد وقف الإمام الشعراني على أحوال الصوفية في عصره ، وتعرف على مشاربهم ، وتذوق مواجيدهم ، حيث إنه تلقى العلم عن صفوة من علماء عصره من رجال الشرع وأرباب التصوف . وكأنه جمع فيضاً من المعلومات لترتد فيضاً من الكتب والمؤلفات في شتى العلوم والفنون فإنه بمثابة روح عصره .

شيوخ الإمام الشعراني

للشعراني شيوخ تتلمذ عليهم وأخلص في خدمتهم وتأدب بأدابهم . ذكرهم في الطبقات الكبرى بشيء من التمجيد والإعزاز .

١. الشيخ نور الدين الشونى (توفى سنة ٩٤٤هـ) :

يقول عنه الشعراني في : « الطبقات الكبرى » : هو شيخى ووالدى وقدوتى الشيخ نور الدين الشونى . وهو أطول شيخى فى خدمته . مات سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

٢. الشيخ على الخواص :

هو شيخ الإمام الشعراني . ذكره الإمام الشعراني فى معظم مؤلفاته وكان يقول عنه سيدى على الخواص ، وعندما ينقل نصاً من نصوصه يقول عنه سمعته مراراً . وهذا دليل على ملازمة الشعراني له . لذلك نجده يقول عنه : شيخى وأستاذى وقدوتى سيدى على الخواص البرلسى رحمه الله . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب إلا أنه كان يتكلم عن معانى القرآن الكريم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء .

٣. الشيخ على نور الدين المرصى (توفى سنة ٩٣٠هـ) :

أشار الإمام الشعراني إليه فى كثير من كتبه ، وقد اعتبره الناس جنيد عصره . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

٤. الشيخ محمد الشناوى (توفى سنة ٩٣٢هـ) :

أحد أكابر العارفين وأئمة المرشدين الكاملين المكملين ، أخذ منه الشعرانى العهد ولبس الخرقة على يديه ، وأجازه فى تربية المريدين . وكانت وفاته سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة .

٥. الشيخ محمد بن أخت مدين (توفى سنة ٨٨١هـ) :

هو محمد بن أحمد بن عبد الدائم الأشمونى المالكى ابن أخت الشيخ مدين الصوفى الكبير والولى الشهير . عاصره الإمام الشعرانى وقد أخذ عنه . توفى سنة واحد وثمانين وثمانمائة .

٦. الشيخ محمد بن عنان (توفى سنة ٩٢٢هـ) :

هو شيخ الإمام الشعرانى ، وهو أحد أكابر الأولياء أصحاب المقامات العالية والعرفان الكبير . توفى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة .

٧. أبو الفضل الأحمدي (توفى سنة ٩٤٢هـ) :

هو فضل الدين أحد أفراد العارفين وأئمة الأولياء المقربين . وهو أخو الإمام الشعرانى فى الطريق ، ومتقدم عليه فى الأخذ عن سيدى على الخواص . وكانت وفاته سنة اثنين وأربعين وتسعمائة .

٨. أمين الدين بن النجار (توفى سنة ٩٢٩هـ) :

هو إمام جامع الغمرى بمصر المحروسة . كان لله من الراسخين

في العلم وانتهت إليه الرياسة في علو السند بالكتب الستة وغيرها .
توفي سنة تسعة وعشرين وتسعمائة .

٩. الشيخ زكريا الأنصاري (توفي سنة ٩٢٦ هـ) :

هو شيخ الإسلام وأحد أئمة العلماء العاملين والأولياء
العارفين ، ومن أجل أركان الطريقين الفقه والتصوف . توفي سنة ستة
وعشرين وتسعمائة عن مائة وثلاث سنوات من العمر .

حقيقة الزهد عند الإمام الشعراني

لقد كان الإمام الشعراني ورعاً حيث إنه ابتعد عن الناس
وتقشف في مأكله ومشربه .

ومما يروى أن الدفتر دار أحمد قدم إليه مبلغاً من المال جهراً
فرفضه الشعراني ، فبعث به مرة أخرى عن طريق أحد مماليكه خفية
عن الأنظار فقال الشعراني للمملوك : « كيف أقبله منك وقد رفضته
من مولاك » . وانطلق المملوك مدهوشاً يشيد بزهد هذا الرجل الغريب
من فقراء مصر (١) .

وقد م المباشر للشراني الذهب والفضة في جامع النمرى
فألقاها في صحن المسجد على مرأى منهم حتى تهافت لالتقاطها
المجاورون .

ويقول الشعراني : قمت ليلة فوجدت قساوة في قلبي لم أعرف
لها سبباً . فقليل لى فى المنام إن أردت حياة قلبك التى لاموت بعدها ،
فاخرج عن الركون إلى الخلق .

(١) الشعراني ، عبد الوهاب بن أحمد : الكوكب الشاهق فى الفرق بين المرید الصادق
وغير الصادق ، تحقيق حسن محمد الشرقاوى (الإسكندرية : دار المعارف فرع
الإسكندرية ، سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص : ١٥) .

مؤلفات الإمام الشعراني

تبلغ مؤلفات الإمام الشعراني عددا ضخماً من الكتب بين مؤلفات وحواشي واختصارات بعضها مطبوع ، وبعضها مخطوط ويذكر منها صاحب : « معجم المؤلفين » :

١ - الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت رقم ١ مجاميع عربى .

كما يوجد تحت رقم حفظ ٨٤ نصوص حلیم عربى .

ويوجد أيضاً تحت رقم حفظ (٣٦٧٧) تصوف عربى ، ١٦٠٥
تصوف طلعت عربى ، وعدد النسخ الموجودة كما هو مسجل أربعة
نسخ تحت أرقام الحفظ السابقة وهى على الترتيب : ١ ، ٨٤ ، ٣٦٧٧ ،
١٦٠٥

٢ - الدرر المنثورة فى بيان زبدة العلوم المشهورة . وهذا المخطوط
بدار الكتب تحت أرقام الحفظ الآتية : ١٥٧ معارف عامة عربى ، وتحت
رقم حفظ ١٩١ معارف عامة طلعت عربى .

كما يوجد تحت الأرقام التالية : ١١ ، ١٢ ، ١٩ تصوف حلیم
عربى ، ٢٦٠٣ تصوف عربى ، ٨٧ ، ٨٨ معالم تيمور عربى .

وعدد النسخ الموجودة ثمان نسخ كما هو واضح بالأرقام السابقة .

٣ - لوائح الأنوار في طبقات الأخيار (ويعرف باسم طبقات الشعراني الكبرى) ويوجد هذا المخطوط تحت الأرقام التالية : ١٩٢٣ ، ١٩٣٣ ، ١٩٧٠ ، ٢٠٦٦ ، ٢٠٩٦ ، ٢٠٩٧ ، ٢٠٩٨ تاريخ طلعت عربي ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ١١٢٣ ، ١٤٢٣ ، ١٤٣٤ ، ٤٥٠٧ ، ٥٥٢١ تاريخ عربي ، ١٠٥ مجاميع م عربي ، ٧٦٤ ، ١٠١٢ ، ١٣٠١ ، ١٩٥٧ تاريخ تيمور عربي ، ١٧٩ تصوف حلیم عربي ، ١٦ مخطوطات الزكية عربي ، ٢٥٠٦١ ح عربي .

وعدد النسخ كما هو واضح من العرض السابق ثلاثة وعشرين نسخة مخطوطة تحت عنوان : « لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار » المعروف باسم الطبقات الكبرى . وهذا المخطوط مطبوع .

٤ - الطبقات الوسطى ويوجد هذا المخطوط تحت الأرقام التالية :

٣٠٠ ، ٨٦٨ ، ١١٩٨ تاريخ تيمور عربي .

وعدد النسخ المخطوطة ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٥ - الطبقات الصغرى : وهذا المخطوط مطبوع .

٦ - المقدمة النحوية في علوم العربية .

٧ - شرح جمع الجوامع للسبكي فى أصول الفقه .

ويضيف الزركلى إلى تصانيفه الكثيرة :

٨ - أدب القضاة مخطوط .

٩ - إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين .

وهذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية : ٣٢
تصوف عربى ، ١١٤ تصوف حلیم عربى ، ١١٧ تصوف تيمور
عربى .

وعدد النسخ المخطوطة ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

١٠ - الأنوار القدسية فى معرفة آداب العبودية . وهذا المخطوط

مطبوع بهامش الطبقات الكبرى للإمام الشعرانى . وموجود
بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية : ٢٨ تصوف عربى ، ٧٤٠
مجاميع عربى ، ٢٨٠٣٥ ب عربى ، ١٢٣ تصوف م عربى ٦٩٤
تصوف عربى ، ١٠١٦ تصوف طلعت عربى ، ٨٣٠ مجاميع طلعت
عربى .

وعدد النسخ المخطوطة سبع نسخ تحت الأرقام السابقة .

١١ - البحر المورود فى الموائيق والمعهود . وهذا المخطوط

مطبوع . وموجود بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ الآتية :

٦٣٧٣٩ ب عربي ، ٤٠ ، ٥١٩ ، ٦٥٨ ، ٧٦٦ تصوف عربي ،
١٣٩٨ تصوف طلعت عربي ، ٦٥ تصوف تيمور عربي .

وعدد النسخ الموجودة سبعة نسخ كما هو موضح تحت الأرقام
السابقة .

١٢ - البدر المنير . هذا المخطوط مطبوع . ويوجد بدار الكتب
المصرية بهذا العنوان : « البدر المنير في الحديث » تحت أرقام الحفظ
التالية : ١٠٣ حديث عربي ، ٢٦٢٩ ب عربي ، ٣٧٨٥٢ ب عربي ،
٥٧١ حديث طلعت عربي .

وهذا المخطوط معنون بعنوان : « البدر المنير من حديث البشير
والنذير » تحت رقمي ٥٧٢ ، ٦١٤ حديث طلعت عربي .

١٣ - بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من
الآداب والأخلاق مخطوط بخطه . وموجود بدار الكتب المصرية تحت
رقم حفظ ٣٩ تصوف عربي .

١٤ - تنبيه المغترين في آداب الدين . وهذا المخطوط مطبوع .

١٥ - تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم
الطاهر » .

وهذا المخطوط يوجد بدار الكتب المصرية . آخذاً أرقام الحفظ

الآية : ١٣٣ ، ٢٤٢ ، ٣٣٥ ، ٥٩٩ ، ٦٩٧ تصوف عربى ، ٩٤٩
تصوف طلعت عربى ، ٦٦ ، ٣٦٥ تصوف تيمور عربى ، ٨٧٢
مخطوطات الزكية عربى .

وعدد النسخ المخطوط كما هو موضح تسعة نسخ تحت الأرقام
السابقة .

١٦ - تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء .

١٧ - الجواهر والدرر الكبرى (من كلام الشيخ على الخواص)
مطبوع .

وهذا المخطوط مسجل بقائمة المخطوطات بدار الكتب المصرية
تحت أرقام الحفظ التالية : ٥٨ تصوف عربى ، ٩٥١ ، ١٠٧١ ،
١٣٨١ ، ٢٠ مجاميع عربى ، وعدد النسخ المخطوطة خمسة نسخ تحت
الأرقام السابقة .

١٨ - الجواهر والدرر الوسطى . هذا المخطوط مطبوع .

١٩ - حقوق إخوة الإسلام (فى المواعظ) . مخطوط موجود
بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٩٤٧ تصوف عربى ،
١٥٢ تصوف حلیم عربى ، ٩٣١ تصوف طلعت عربى ، ٧٤ مجاميع
تيمور عربى .

وعدد النسخ أربعة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٠ - درر الغواص فى فتاوى سيدى على الخواص مطبوع .

ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٤٢٠١
تصوف عربى ، ١٤٧ مخطوطات الزكية عربى .

٢١ - ذيل لواقح الأنوار (جزء صغير) ويوجد بدار الكتب

المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٤٩٣ ، ٥١٣ ، ٥٩٨ تاريخ عربى ،
٦٧٤ تاريخ تيمور عربى ، ٢٤٨ مخطوطات الزكية عربى ، ومسجل
تحت عنوان : « ذيل الطبقات الكبرى » .

وعدد النسخ خمس نسخ مخطوطه تحت الأرقام السابقة .

٢٢ - القواعد الكشفية الموضحة لمعانى الصفات الإلهية .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية :

١٣٤ ، ٥٢١ ، ٨٩٣ تصوف عربى ، طلعت عربى .

وعدد النسخ الموجودة ثلاثة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٣ - الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر مطبوع . وهذا

المخطوط موجود بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٦٠٦ ،

٣١٢٥ ، ٢٧٢ تصوف عربى ، ١٤٩٤ تصوف طلعت عربى ، ١٦٤ م

عربى .

وعدد النسخ المخطوطة خمسة نسخ تحت الأرقام السابقة .

٢٤ - كشف الغمة عن جميع الآمه . مطبوع . وهذا المخطوط

يوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ١٧٢٢ حديث عربى .

وعدد النسخ الموجودة بقسم المخطوطات ثلاث نسخ مخطوطة .

٢٥ - لطائف المنن والأخلاق (ويعرف بالمنن الكبرى) - مطبوع .

ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت عنوان : « لطائف

المنن والأخلاق فى التحدث بنعمة الله على الإطلاق » آخذاً الأرقام التالية : ١٥٠ ، ٣٢٢ ، ٥٢٣ ، ٦٠٧ ، ٢٦٦٣ ، ٣٧٦٦ تصوف

عربى ، ٣٧٦ تاريخ عربى ، ٩٢٧ ، ١٣٦٤ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٦٧ تصوف طلعت عربى ، ١٧٠ ، ١٧١ تصوف م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة عشر نسخة مخطوطة .

٢٦ - لوائح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية - مطبوع .

٢٧ - مختصر تذكرة السويدي فى الطب - مطبوع .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام ١٩٥٧٧ ل عربى ،

١٠٤ ، ٩٠٣ طب عربى ، ٤١ طب م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة نسخ مخطوطة .

٢٨- مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين - مطبوع .

ويوجد بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ١٧٠ ،

٦٨٥ تصوف عربى ، ١٧٨ تصوف م عربى ، ٥٧٨ مخطوطات الزكية

عربى .

وعدد النسخ المخطوطة أربعة نسخ مخطوطة .

٢٩- مشارق الأنوار - مطبوع . ويوجد بدار الكتب المصرية تحت

أرقام الحفظ التالية : ١١٤ ، ١٢١ تصوف م عربى .

وعدد النسخ المخطوطة نسختان تحت الرقمين السابقين .

٣٠- المنح السنية - مطبوع . ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب

المصرية تحت رقمى الحفظ ١٠١ تصوف حلیم عربى ، ٣٠١٥ تصوف

عربى . وعدد النسخ المخطوطة نسختان تحت الرقمين السابقين .

٣٢- منح المنّة فى التمسك بالسنة - مطبوع .

وهذا المخطوط موجود بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٠٧

مجاميع عربى .

٣٣- الميزان الكبرى - مطبوع .

ويوجد هذا المخطوط بدار الكتب المصرية تحت عنوان :

« الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين » تحت أرقام
الحفظ التالية : ٧٧ فقه المذاهب عربى ، ٢٣٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٤٠٧ ،
٤٠٨ ، ١٧٨٣ فقه شافعى عربى ، ٦٥٤ فقه تيمور عربى ٨١ فقه
المذهب طلعت عربى ، ١ ، ٢ فقه شافعى ق عربى ، ٤٧ ، ٤٨ فقه
شافعى م عربى ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ علم كلام طلعت عربى ، ٧٧ ، ٧٨ ،
٧٩ ، ٨٠ فقه المذهب طلعت عربى ، ٦٥٥ فقه تيمور عربى ، ٧٥٤ ،
٨٦٢ فقه شافعى عربى ، ٢١٦٣٥ ب عربى .

وعدد النسخ المخطوطة بدار الكتب المصرية ثلاثة وعشرين نسخة
مخطوطة .

٣٤ - اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد علوم الأكابر - مطبوع .
وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام حفظ ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٣٥٠ ، ٥٢٢ ، ٦٠٩ ، ٣٤٩٤ تصوف عربى ، ٥٨ ، ١١٠ تصوف
حليم عربى . ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ تصوف طلعت عربى .
وعدد النسخ المخطوطة عشر نسخ تحت الأرقام السابقة .

٣٥ - الرسالة من مؤلفات الإمام الشعرانى .

٣٦ - مختصر إرشاد الغافلين من الفقهاء والفقراء إلى إرشاد
صحبة الأمراء وتسمى بالمتن الصغرى . وهو موجود بدار الكتب
المصرية تحت رقم حفظ ١٠٨٢ تصوف طلعت عربى .

٣٧ - سلوك المحققين .

٣٨ - لباب الأعراف المانع في اللحن في السنة والكتاب .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمي حفظ ٢١٥ ،

٧١٥ نحو تيمور عربى .

وعدد النسخ المخطوطة نسختان بدار الكتب المصرية تحت

الرقمين السابقين .

٣٩ - مختصر المدونة للإمام مالك .

٤٠ - التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص .

٤١ - طهارة الجسم والفؤاد من سوء الظن بالله تعالى وبالعباد .

٤٢ - الميزان الخضرية الشعرانية المدخلة لجميع أقوال أئمة

المذاهب وتقليدهم في الشريعة المحمدية .

وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٦٥٩ فقه

شافعى عربى .

٤٣ - أسرار الدين من مؤلفات الإمام الشعرانى .

٤٤ - أسرار الشريعة من مؤلفات الإمام الشعرانى .

٤٥ - الفلك المشحون . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت

رقم حفظ ٧٤ تصوف حلیم عربى .

٤٦ - المنهج المبين فى بيان أدلة مذاهب المجتهدين (مختصر السنن الكبرى للإمام البيهقى) .

وهو موجود بدار الكتب المصرية تحت عنوان : « مختصر عقيدة الإمام البيهقى » تحت رقم حفظ ٦٥٥ مجاميع طلعت عربى .

٤٧ - المنز والأخلاق من مؤلفات الإمام الشعراني .

٤٨ - طبقات الصوفية من مؤلفات الإمام الشعراني .

٤٩ - هادى الحائرین إلى رسوم أخلاق العارفين .

٥٠ - الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، رسالتنا

للحصول على درجة الماجستير فى الآداب .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٢٥ ،

١٩٣ تصوف عربى ، ١١٤ تصوف م ، ٨٢١ خصوصى ويحمل رقم

٣٣٤٣٥ عمومى تصوف ، وهو الآن مؤلف منشور .

٥١ - الفوائد المبنية على القواعد الفقهية للزركشى .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٩١٠٠ فقه شافعى

عربى .

٥٢ - الكشف والتبيين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت

رقم حفظ ٨ مجاميع عربى .

٥٣ - كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان مطبوع . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام الحفظ التالية : ٩٢ مجاميع عربى ، ٢٢٩٨٤ ، ٢٣٤٦٣ ب عربى ، ٢٢٨٦ ، ٣١٨٦ تصوف عربى ، ٣١٩ ، ٣٣١ ، ٣٧٤ ، ٤٠٢ مباحث إسلامية طلعت عربى ، ٨٣ غيبات تيمور عربى ، ٦٢ تصوف خليل أغا عربى ، ٤١٢ مخطوطات الزكية عربى .

وعدد النسخ اثنتا عشر نسخة مخطوطة .

٥٤ - المقاصد السنية فى بيان القواعد الشرعية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧١٧ مجاميع عربى ، ٧ فقه شافعى حليم عربى .

٥٥ - مقدمة فى ذم رأى وبيان تبرئة الأئمة المجتهدين .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ١٩٩٦٠ ب عربى ، ٤١٨٤ تصوف عربى .

٥٦ - مشارق الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية . مخطوط

بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٤٣٩ ب عربى .

٥٧ - مختصر تذكرة القرطبي . مخطوط بدار الكتب المصرية

تحت أرقام الحفظ التالية : ٢٢٩٦١ ب عربى ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ١٤٢٠ تصوف عربى ، ١٢١٦ تصوف طلعت عربى .

وعدد النسخ المخطوطة ست نسخ مخطوطة .

٥٨ - موازين القاصدين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم

٦٩٣ تصوف عربى .

٥٩ - الفتح المبين فى ذكر جملة من أسرار الدين . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧٩٤ تصوف عربى .

٦٠ - رياض الصالحين . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم

حفظ ٩٧٠ تصوف عربى .

٦١ - الموازين الذرية المسينة لعقائد الفرق العلية . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ٢١٠، ٢١٧ مجاميع طلعت عربى .

٦٢ - رسالة فى آداب الفقراء القاصدين طريق أهل الله عز وجل .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٦٤٢ مجاميع طلعت

عربى .

٦٣ - الإنسان المبصر فى معرفة الولي الكامل من المقصر .

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٣٩ تصوف حلیم

عربى .

٦٤ - الدرر واللمع فى الصدق والورع . مخطوط بدار الكتب

المصرية تحت رقمى حفظ ٣٥٨٤ تصوف عربى ، ٩٢١ تصوف طلعت

عربى .

- ٦٥- من الشيخ الشعراوى الصغرى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٩٥٠٠ تصوف طلعت عربى .
- ٦٦- وصايا الشيخ الشعراوى فى الآداب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٠١٨ تصوف طلعت عربى .
- ٦٧- تحفة الأكياس فى حسن الظن بالناس . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٤٣٥ تصوف طلعت عربى .
- ٦٨- الأنوار القدسية فى معرفة قواعد الصوفية - مطبوع . وهو مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقمى حفظ ١٢٤ تصوف م عربى ، ١٨٢ تصوف حلیم عربى .
- ٦٩- جملة رويانى عن الشيخ جلال الدين السيوطى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٢٥ تصوف عربى .
- ٧٠- لوائح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت أرقام حفظ ١٤٦ تصوف م عربى ، ١٧٩ تصوف حلیم عربى ، ٨٧١ مخطوطات الزكية عربى .
- ٧١- رسالة مباركة . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤ تصوف تيمور عربى .
- ٧٢- رسالة فى تبرئة الشيخ الأكبر ابن عربى . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٦٧ تصوف تيمور عربى .

٧٣ - المرید الصادق . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
حفظ ٢٢٥ تصوف تيمور عربى .

٧٤ - مواعظ الزابور . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
حفظ ٥ ديانات تيمور عربى .

٧٥ - مقدمة فى بيان أهل العقائد الزائفة المخالفة . مخطوط بدار
الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٤٢ عقائد تيمور عربى .

٧٦ - القول المختار لتنشيط الطائع وزجر الفجار . مخطوط بدار
الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٧٧٥ تاريخ تيمور عربى .

٧٧ - منهاج المتعلم . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
حفظ ٦٨ تعليم تيمور عربى .

٧٨ - متن وأخلاق وسطى . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت
رقم حفظ ١٦٩ تصوف حلیم عربى .

٧٩ - العقد الذهبى مختصر تذكرة القرطبى . مخطوط بدار
الكتب المصرية تحت رقم حفظ ١٨٣ تصوف حلیم عربى .

٨٠ - القول المبين لدليل لبس الخرقه والتلقين . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم حفظ ٧٦٤ مخطوطات الزكية عربى .

٨١ - ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى . مخطوط بدار

الكتب المصرية تحت رقم ٤١١ مجاميع عربى . موضوع تحقيقنا . وقد
عُثِرَ على نسخة واحدة من دار الكتب المصرية .

وسوف نوضح فيما بعد وصف المخطوط ، وحالته ، ونسبته

للإمام الشعراني .

منهجنا في الدراسة والتحقيق

ينبغي أن نوضح في البداية أنه ليس هناك إحصاء دقيق لمؤلفات الإمام الشعراني ، لكن الكتب المنسوبة إليه والتي أفردت الفهارس المختلفة لها بعض صفحاتها تربو على ثلاثمائة وثلاثين كتاباً .

فقد أحصى « بروكلمان » كتبه فوجدها أكثر من ستين كتاباً ، وأما على مبارك فإنه يقرر أن مؤلفاته قد بلغت السبعين مؤلفاً ، وقيل : إنه خلف ثلاثمائة كتاب تناولت الطب ، والنحو ، والتفسير ، والفقه ، والتصوف ، وغيره .

من هنا أصبح الإمام الشعراني عالماً فذاً في مجالات متعددة من العلم والمعرفة جعلته سابقاً لعصره وأقرانه . بل إن شئت فقل يعد بحق موسوعة في العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الحياتية . لذلك كان علامة مميزة لعصره حاز قصب السبق فكان إماماً عالماً عاملاً متحققاً سلوكاً وتطبيقاً .

وصف المخطوط :

المخطوط معنون في صفحته الأولى بالعنوان الآتي :

« هذا الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة

الشيخ عبد الوهاب الشعراوى رحمه الله تعالى آمين « مع ملاحظة أن هذه الصفحة ليست مرقمة . فلم تأخذ مسلسلاً .

والسبب فى ذلك أن النظام المتبع هنا فى التسلسل هو نظام الورقة لا الصفحة . فالورقة مقسمة إلى قسمين أحدهما أيمن ، والآخر أيسر ، ولكنهما يأخذان فى الترقيم رقمين مسلسلين لارقماً واحداً ، والورقة الأولى بالنسبة لهذا المخطوط تبدأ من الجانب الأيسر . أما الجانب الأيمن من هذه الورقة فلا يوجد به شىء مكتوب إلا فى الوسط جهة اليسار مكتوب بخط الرقعة المنسق الجميل :

« دار الكتب والوثائق المصرية قسم التصوير ١٩٦٨ » .

ولعل السبب فى ذلك أن هذا المخطوط ، أو إن شئت فقل هذه الرسالة المخطوطة ضمن مجموعة رسائل . وأراد ناسخها أن يكون هناك فاصل بين هذه الرسالة والتى تسبقها من الرسائل المكتوبة . والدليل على صدق مانقول أن هذه الرسالة مدرجة ضمن الفهارس تحت رقم حفظ ٤١١ مجاميع عربى ، مصورة بالميكرو فيلم ٥٣٤٣ ، رول ١٠٧٣ .

والعنوان بالورقة الأولى السالف الذكر يأخذ شكل المثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل . وذكر أن هذا الكتاب للشعراوى

ولم يقل الشعراني . وكلاهما واحد . فمن الممكن أن نقول الإمام
عبد الوهاب الشعراني أو عبد الوهاب الشعراوي .

وهذا ما أوضحناه فيما تقدم عندما تحدثنا عن سيرة
الإمام الشعراني أن والده أحمد هاجر بعد موت والده إلى ساقية
أبي شعرة ، وهي قرية بالمنوفية تجاه النيل وإليها ينتسب الإمام
الشعراني .

وهذا ما أورده الزركلى فى : « الأعلام » .

وهذا العنوان أعلى الورقة الأولى حتى منتصف الورقة .

أما فى منتصف الورقة جهة اليمين مكتوب :

« هذا ملك الموفق الشيخ محمد بدوى ابن الشيخ العلامة إبراهيم
بدوى النحاس » آخذاً شكل المثلث قاعدته إلى أعلى ، ورأسه إلى
أسفل .

وبجانب هذا العنوان كلام مطموس غير واضح على الإطلاق .

ولعل السبب فى ذلك أن ناسخ المخطوط أراد ألا يظهره لنا .

أو بمعنى أدق أراد أن بلغيه بعد كتابته . وربما خطأ وقع فيه ناسخ
المخطوط فأراد أن يطمسه حتى لا يقع القارئ لهذا المخطوط أو
الدارس له فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الناسخ .

ولاشك أن هذا أمر بديهي يعرفه القارىء المتمرس والدارس
للمخطوطات .

والخط المكتوب به العنوانين السابقين عنوان المخطوط ، وحق
التملك بالخط النسخ العادى باللون الأسود الغامق .

وفى منتصف الورقة إلى أسفل مكتوب بالخط النسخ العادى فى
ثلاثة سطور مائلة الحكمة التالية :

« أنت فى غفلة وقلبك ساهى . ذهب العمر وانتهى .
مضى الزمان وأنت فى اللذات . إلى متى وأنت فى الغفلة . كيف المنام
فى الهيهات . والشيب أدركك والصبا قد فات » .

ولعل هذه الحكمة التى سجلها ناسخ المخطوط فى الورقة الأولى
تنبيهاً لمن يقرأ هذه الرسالة قبل الدخول فى قراءتها . فهى بمثابة نصيحة
يسدى بها لمن يطلع على هذه الرسالة لأن العمر أنفاس والواجب على
المرء أن يقضى كل أنفاسه فى طاعة الله حاضراً حتى لا يقع فى الغفلة
بعيداً عن المعصية .

وكذلك مكتوب فى الثلث الأول من الورقة الأولى جهة اليسار
الرقم ١١٣ هكذا .

أما عن الثلث الأخير من الورقة الأولى مكتوب عليه بخط
الرقعة باللون الأسود الغامق : « مشترى ذو سيون حصر الأملاك

بالضبطية : ٢٣ يونية سنة ٨٣ نمرة ١٨٧٣٦ نمر ٤١١ مجاميع .

وفى أسفل الورقة فى المنتصف قبل نهايتها ختم غير واضح على شكل دائرة مسجل عليه بالخط الثلث : الكتبخانة الخديوية تصوف رقم ٢٨٧ .

أما عن نهاية الورقة الأولى فارغة حيث إن نهايتها الختم السالف الذكر .

والمخطوط عبارة عن ستة عشر ورقة . الورقة الأولى منه بدون ترقيم . أى أنها لاتأخذ رقما مسلسلاً لأننا كما ذكرنا من قبل أن هذا المخطوط ضمن مجاميع تحت رقم حفظ ٤١١ مجاميع عربى .

وهذه الورقة كما أسلفنا من قبل تبدأ من جهة اليسار .

أما عن الورقة الثانية من هذا المخطوط أو هذه الرسالة كما يسميها الإمام الشعرانى تأخذ رقمين مسلسلين هما (١ ، ٢) .

أى أن هذه الورقة تنقسم إلى صفحتين (الصفحة الأولى ، والصفحة الثانية) .

وباقى الأوراق ابتداء من الورقة الثالثة إلى الورقة السادسة عشرة تأخذ رقمين مسلسلين ينتهى فى الورقة السادسة عشرة برقم ٣١ جهة اليمين من الورقة الأخيرة .

وأما باقى الورقة الأخيرة مكتوب عليها جهة اليسار : رسالة
لسيدى عبد الوهاب الشعرانى فى نتيجة العلوم . وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وهذا العنوان أعلى الصفحة الأخيرة فى المنتصف مكتوب بالخط
النسخ العادى باللون الأسود الغامق .

ومكتوب أيضاً فى منتصف الصفحة بخط الرقعة العادى باللون
الأسود الغامق :

يامالك الملك كله لم أحد يدرك محله

إذا تعمس أمرى بخفى لطفك حله

أما بالنسبة للورق المسجل عليه المخطوط من النوع الخشن غير
المصقول ولونه أبيض .

أما عن حجم الرسالة المخطوطة فتبدى الملاحظات التالية :

(١) الطول ٢٧ سم ، والعرض ٥ , ١١ سم ، والسبك ٣ سم
وعدد الكلمات الأفقية فى السطر الواحد تتراوح من تسع كلمات إلى
اثنى عشر كلمة . وعدد سطور الصفحة الواحدة ٢٣ سطراً .

مع ملاحظة أن العدد السابق من السطور مضروباً فى ٢ حيث
إن الورقة تنقسم إلى شقين أحدهما أيمن والآخر أيسر .

ولكنها أخذت نمط الترقيم الحديث بالنسبة للكتب والمؤلفات جميعها فكانت كل ورقة من هذا المخطوط تأخذ رقمين لارقماً واحداً كما هو معهود في المخطوطات القديمة .

(٢) الخط المكتوب به المخطوط الخط العادي والحبر المستخدم أسود ، ومدون باليد بخطى النسخ والرقعة لكون ناسخ المخطوط يجمع بينهما في كتابته . مع ملاحظة أن الناسخ يغفل الهمزة ويسقطها من كتابته .

(٣) قام ناسخ المخطوط بترقيمه بخط النسخ العادي مستخدماً الحبر الأحمر الخفيف . أما بعض الكلمات التي أراد أن يظهرها في ثنايا السطور سطرها بالحبر الأحمر الثقيل جداً لتمييزها . وكانت هذه الكلمات متداخلة ولم يتم فصلها كفقرة جديدة .

(٤) استخدم ناسخ المخطوط الياء على النبرة بدل الهمزة في كتابته في معظم أرجاء المخطوط . ولا شك أن هذه الطريقة تسود معظم المخطوطات جميعها عند نسخها . أو إن شئت فقل : هذه سمة مميزة لجميع أنواع المخطوطات المنسوخة . وهذا ما رأيته في معظم مخطوطات الإمام الشعراني .

ونخلص من ذلك إلى أن هذه السمة تميز بها كل ناسخ عاش في القرن العاشر الهجري وما بعده . أي عصر الإمام

الشعراني .

والمخطوط يتحدث عن : « ردع الفقراء عن دعوى الولاية
الكبرى » .

أطلق عليه المؤلف هذا الاسم . وسماه مقالة ، وكذلك سماه
رسالة . ولم يقسم هذه الرسالة إلى أبواب أو فصول . ولكن أشار
ناسخ المخطوط إلى بعض العناوين المتداخلة مع المتن . ولم يستخدم
هامشاً له . وهذا خلاف المعهود لدينا في الهوامش في الكتب
والمؤلفات الحديثة .

ولعل السبب في كون هذه المخطوط أو هذه الرسالة
المخطوطة جاءت على هذا النسق ولم تقسم إلى أبواب أو فصول
لصغر حجم هذه الرسالة وكون عدد أوراقها لم تستوعب أبواباً
ولافصلاً .

وكذلك لم يوضح ناسخ المخطوط في صفحته الأولى تاريخ
نسخه ، وكذلك الأمر بالنسبة لصفحته الأخيرة لم يوضح تاريخاً
لنسخ ، ولم يوضح اسم ناسخ المخطوط . ولعل ناسخه أحد تلاميذ
الإمام الشعراني الذي سجله وراءه عندما كان يتحدث عن مدعى
الولاية وتلقاه منه شفاهة .

كما تجدر الإشارة إلى أن ناسخ المخطوط يسقط منه نقط الياء ،

والتاء ، والجيم غالباً .

ولقد احتشد هذا المخطوط فى جملة بعدد كبير من المصطلحات الصوفية نوردها على الترتيب التالى كما جاءت بالمخطوط من أول أوراقه إلى آخرها بين ثنايا السطور .

الحمد لله كانت بداية المخطوط بعد البسملة ، والفقر ، والتصوف ، والولاية ، والذكر ، والخلوة ، والأدب ، والمقام ، والملائكة ، والشريعة ، والحقيقة ، والطريقة ، والمعرفة ، والجوع ، والشيخ ، والمريد ، والمراد ، والبلاء ، والإسلام ، والكشف ، والإيمان ، والدعوى ، والذوق ، والسعادة ، والحضرة ، والتجلى ، والنفس ، والنفس ، والوقت ، والسر ، والقرب ، والدعوة ، والبصيرة ، والظاهر والباطن ، والمزاج ، والعزلة ، والنقيب ، والاستقامة ، والغيب ، والتوبة ، والوحى ، واليقين ، والحق والباطل ، والورع ، والبركة ، والتكبر ، والمنة ، والزجر ، والقطب ، والدعاء ، والحال ، والغفلة ، والمثل ، والعبودية .

كانت هذه المصطلحات واردة بالمخطوط من أوله إلى منتهاه . ويدل عرض الإمام الشعراني لهذه المصطلحات بهذا الأسلوب وهذا العمق على بصيرته المتقدة ، وثقافته الواسعة الشاملة . ومدى استفادته الغنية بالمعارف الصوفية كما بينا ذلك عند الحديث عن الكتب التى

قرأها في التصوف وغيرها من العلوم الشرعية .

من هنا جاءت طريقتنا في التحقيق والتعليق على النسخة
الوحيدة الأصلية والموجودة تحت أيدينا . ورجعت في هذا العمل إلى
المصادر الأصلية المتعددة في التصوف الإسلامي حول هذا الموضوع .
واستعنت أيضاً بالمراجع الفرعية والحديثة التي تناولت هذا الجانب في
الحديث عن المصطلحات الصوفية . وعلقت على كل ما رأيت به حاجة
إلى مزيد من الإيضاح إتماماً للفائدة وحرصاً على إمداد القارئ بكل
ما هو مفيد نافع حول هذا المخطوط الذي لم يتم طبعه ولم يزل بخط
كاتبه وناسخه .

- بدأت الرسالة المخطوطة بالورقة الأولى مكتوب عليها : « هذا
الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ
عبدالوهاب الشعراني رحمه الله تعالى آمين » .

- بدأت الصفحة الثانية بالبسملة : وبدأ النص بقوله : بسم الله
الرحمن الرحيم وهو ثقتي وكفي ، الحمد لله رب العالمين والصلاة
والتسليم على أشرف المرسلين أجمعين وحسبى الله ونعم الوكيل .

وبعد فقد دعاني داعي الشفقة على طائفة من الفقراء في هذا
الزمان سموا أنفسهم بالصوفية وادعوا الولاية الكبرى .

- وينتهي المخطوط بقول ناسخه : « وقد وضعنا هذه الرسالة
للتنفير عن طريق هؤلاء المغترين . فإذا حصل التنفير فليتنظر في بقية
رسائلنا الموضوعة لبيان الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء
وأصحاب الحرف وغيرهم والحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم
على أشرف مخلوقاتك وزين عبادك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين تمت » .

نسبة المخطوط إلى الإمام الشعراني

بعد استعراضنا لحالة المخطوط كما أوضحنا فيما تقدم يبقى إذن أن نشير هنا إلى الأسباب التي جعلت من هذا المخطوط أن يكون منسوباً للإمام عبد الوهاب الشعراني يمكن إجمالها فيما يلي :

أولاً : أن المخطوط يبدأ في الورقة الأولى بذكر مؤلفه أنه الإمام عبد الوهاب الشعراني . ولا شك أن هذا هو النظام المتبع في كل المخطوطات المنسوخة للإمام الشعراني .

فالناسخ ينهج نهج الناسخين للمخطوطات الأخرى فسجل اسم المؤلف على ورقته الأولى .

ثانياً : أن المتمرس في قراءة كتب الإمام عبد الوهاب الشعراني يوقن بلا شك أو ارتياب أن مؤلفه هو الإمام الشعراني نظراً لتمييز أسلوبه ، ووضوح خصائصه ، واستخدام تعبيرات ومصطلحات تشتمل عليها غالبية مؤلفاته .

وكذلك ذكره لشيخين من شيوخه خصهما بالذكر في جميع مؤلفاته وهما : الشيخ علي الخواص ، والشيخ علي المرصفي ، فيذكرهما الشعراني كثيراً بقوله : يقول شيخى علي الخواص . ويقول

شيخي على المرصفي .

وفى عبارة أخرى يقول : سمعت شيخي علياً الخواص ، أو سمعت شيخي علياً المرصفي .

وفى عبارة ثالثة : يقول : سمعته مراراً للإشارة إلي كل واحد منهما . أي لشيخه علي الخواص أو شيخه علي المرصفي .

ثالثاً : مما أكد أن المخطوط ينتسب للإمام الشعراني أن ناسخه يقول : « هذا الكتاب تأليف سيدنا ومولانا الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ عبد الوهاب الشعراوي » .

رابعاً : من الشواهد التي تؤكد نسبة المخطوط إلى الإمام الشعراني أنه دأب في مؤلفه هذا على الاستشهاد بأقوال أساتذته ومشايخه عندما كان يعرض لمسألة من المسائل فيقول : قال شيخي ويذكر اسمه . وكان شيخي يقول ويذكر اسمه .

وكذلك ذكره لبعض شيوخه الذين عاصروهم وتلمذ على أيديهم وغيرهم من الشيوخ الذين ذكرهم أمثال : عبد القادر الجيلاني ، وأحمد الرفاعي ، وعبد القادر الدشوطي ، وعلي البرلس ، وأحمد البدوي ، وعبد الله البلتاجي ، وداود الأعزب ، وأبو السعود بن أبي العشائر .

وكذلك لذكره أساتذته الذين لقن عنهم العلم ، وسلك على

أيديهم الطريق ، ولبس الخرفة ، وأمر بالتربية والتعليم للمريدين ، وعاش معهم ، وتذوق مشاربهم ، وحضر مجالسهم ، ولقن عنهم الذكر ، وعرف أحوالهم ومقاماتهم .

خامساً : الواضح من أسلوب المخطوط أنه ينقل عن عصر الإمام الشعراني (القرن العاشر الهجري) ، ومن البيئة المصرية القاهرية التي عاش فيها ، وتوفى بها ، فضلاً عن ذكره بالتحديد للعلماء والأئمة والصالحين والأمراء ورجال الحكم الذين قابلهم ، وماتم بينه وبينهم من أحاديث ، وما وقع من الأولياء منهم من كرامات ، وما حدث لأرباب الحكم من وقائع وأحداث على يد أهل الله .

الإشارات المستخدمة في التحقيق والدراسة :

(١) استخدمنا الأرقام الحسائية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، إلخ

للتدليل على :

أ - الإشارة إلى الساقط من الكلمات أو الجمل في المخطوط .

فنقول ساقطة في الأصل .

ب - الإشارة إلى الكلمة المطموسة أو غير الواضحة في النسخة

المخطوطة .

ج - الإشارة إلى الكلمات الغريبة الواردة بالمخطوط والمختلفة مع السياق .

د - الإشارة إلى سقوط جملة بأكملها أو أكثر في الأصل المنسوخ .

٢) استخدمنا القوسين عند إضافة كلمة أو جملة غير موجودة بالأصل حفظاً لسياق المعنى .

٣) استخدمنا الحروف الهجائية : أ ، ب ، ج ، د ، هـ ، ... إلخ لتوضيح ما يأتى :

أ - الآيات القرآنية ب - الأحاديث القدسية
ج - الأحاديث النبوية .

٤) استخدمنا علامة (#) كى نوضح :

أ - شرح المصطلحات الصوفية الواردة بالمخطوط .
ب - ترجمة الأعلام الواردة بالمخطوط .

- وقد التزمنا بالنص المقروء فى تحقيق هذه الرسالة كلما أمكن ذلك .

- وكذلك قمنا بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث الواردة بالمخطوط سواء كانت أحاديث قدسية أم أحاديث نبوية .

- احتشد المخطوط بعدد كبير من مصطلحات الصوفية تناولناها بالشرح والتحليل والتعليق عليها .

- قمنا بترجمة الأعلام الواردة بالمخطوط ترجمة كاملة وشاملة .

- احتاج الأمر أن نتدخل فى بعض الأحيان بزيادة كلمة يحتاج السياق إليها ليستقيم بها النص معنى ولغة فكنا نضع ذلك بين قوسين (...) ونشير إليها فى الهامش .

٥) استخدمنا فى فهرس الكتاب رقم الصفحة المشار إليها فهرس الآية والحديث القدسى والحديث النبوي ، وكذلك فهرس الشعر اللوارد بالمتن والحواشى ، وكذلك بقية الفهارس .

فكانت إشارتنا إلى الصفحة برقمها إن كانت بالمتن فنقول مثلاً
ص : ١١٧ .

وإذا أردنا أن نذكر نفس الصفحة بالحاشية نقول ١١٧هـ . (هذا
تميز للمصفاة بالمتن والحاشية)

منهج الإمام الشعراني :

أولاً : يبدأ الإمام الشعراني رسالته بمنهج واضح سهل وميسور يحدثنا فيه عن : « ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى » ولقد أقام في رسالته هذه حواراً بين كل من أراد أن يدعى الولاية بعدد من الاستفهامات الاستنكارية موجهة إليهم . ثم يقوم بالجواب عليها نفيّاً عليهم أن يكونوا من أصحاب الولاية لا إثباتاً لهم .

وكذلك أوضح أنه لا أساس ولا منهج ولا دعوة لكل من ادعى الولاية . لذلك ينبهنا الشعراني قائلاً : « ينبغي على كل من أراد أن ينصب نفسه شيخاً أن يكون عارفاً بأسرار الطريق . وكذلك ملماً بجميع الموارد والمصادر فحق الولاية عند الشعراني معرفة العلوم الدنية على الكشف والذوق لا على النقل والفهم .

ثانياً : يحذر الإمام الشعراني مدعى المشيخة ومدعى الولاية بالتعرض لما أجمع عليه العلماء . لذلك نراه في هذه الرسالة يسوق جملة من المواعظ والحكم لمن أراد التصدر للولاية أو المشيخة يحذره فيها من الابتداع والتقليد الأعمى وسلوك منهج الاتباع الذي هو منهج السلف الصالح .

من هنا جاءت دعوته الإصلاحية في التركيز حول هذا المنهج

الذي عمدته الكتاب والسنة . وبعبارة أخرى يمكن القول : إن دعوة الإمام الشعراني لأصحاب المنهج المخالف وهو منهج الابتداع بما ابتدعوه من مخالفات ومحدثات كانت واضحة لذلك نقول : الاتباع لا الابتداع .

ثالثاً : استعرض الإمام الشعراني في رسالته هذه حواراً طويلاً بينه وبين مدعى الولاية يطالبهم فيه بل ويحذرهم أيضاً من هذا الادعاء الذي لا أساس له من الكتاب والسنة . وجاء هذا التحذير على صور متكررة بين ثنايا الرسالة من أولها إلى آخرها .

ولقد احتشدت هذه الرسالة من أولها إلى آخرها بفعل الأمر : (احذر) .

لذلك انصبت دعوته ووصاياه لكل من ادعى الولاية في النقاط التالية :

(١) الرجوع إلى الكتاب والسنة قولاً وعملاً وسلوكاً وتطبيقاً .

والأقتداء بالأكابر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(٢) يرى الإمام الشعراني أنه لا ينبغي التعمق في علوم الصوفية إلا لكل جواد في العلوم . وهذه دعوة لمن ادعى الولاية حتى لا يتعرض لطريق الصوفية بغير حق ويرجع إلى الفهم الصحيح من الكتاب والسنة ، ومعرفة العلوم الشرعية ، وقراءة كتب التفسير للقرآن الكريم

بإمعان ، ومعرفة التأويل وأسراره .

(٣) التعرف على الأدلة التي استند عليها الأئمة المجتهدين سواء
أكان ذلك في الكتاب ، أو السنة ، أو القياس ، أو الإجماع .

(٤) التعمق في علوم الفقه ، والمعاني ، والبيان .

(٥) معرفة ألفاظ الصوفية ومعانيها ومباشرتهم حتى يشرف على
مقاصدهم .

(٦) الإطلاع على ما قاله السلف والخلف في معاني آيات الصفات
وأخبارها .

(٧) الإلتزام بما جاء في الكتاب والسنة وعدم مخالفته . أما الأمور
المحدثة هي التي يجب مخالفتها لأنها خارجة عن السنة ، وعلى ذلك
فالبدعة هي من الأمور الزائدة على الشريعة التي لم يأذن بها الله
تعالى ، ومن هنا كان الإنكار على صاحبها واجب .

رابعاً : يوضح الشعراني في رسالته العلاقة بين التابع والمتبوع
في مسألة مدعى الولاية أو المشيخة . وهنا يقول : « من رأى أحواله
مستقيمة رأى أحوال غيره معوجة . ومن رأى أحواله معوجة رأى
أحوال غيره مستقيمة . فمن تتلمذ لكل الخلق جعل نفسه تابعاً
لامتبوعاً . ومن رأى أحواله مستقيمة تمشيخ علي الخلق وجعل نفسه
متبوعاً لا تابعاً » .

لذلك جاءت دعوته إلى مخالفة النفس فيقول : « اعلم أن أعلى درجات الاستقامة شهود العبد العوج في نفسه ، وأعلى درجات الاعوجاج شهود العبد الاستقامة في نفسه » .

من هنا طالب أصحاب الإدعاء عدم ازدرائهم للخلق . لذلك ذكر أن من علامات الداعي إلى الله بصدق ألا يتغير عليه حال من الأحوال إذا انقلب تلميذه إلى شيخ آخر .

كما أورد في رسالته أن تعظيم الخلق للعبد سم قاتل يؤدي به إلى الهلاك .

خامساً : ساق الشعراني في رسالته على لسان شيخه محذراً الذين يفضلون أنفسهم عن الخلق بأن الحمار أنفع منهم . والتحقيق هنا أن هذا لا يليق بمقام أحد من البشر أن يفضل حيوان على إنسان مهما كان السبب .

ولست أدري لماذا ذكر الإمام الشعراني هذا القول ولعله أراد أنفع منهم في نقل المتاع ومدى استفادة الناس به .

ولقد جاء في هذه الرسالة نقلاً عن الإمام الشعراني أنه ذكر عدداً من الشيوخ أمثال : عبد القادر الدشوطي ، وعلى المرصفي ، وتاج الدين الذاكر أنهم فقراء قليلو الأدب . ولا شك أن هذا القول يتعارض كل المعارضة مع الإمام الشعراني في نقده لهؤلاء الشيوخ . فهم

شيوخه جميعاً وذكرهم في معظم مؤلفاته بالتبجيل والاحترام . كما
أننى أشك في صحته . ومن المؤكد أن هذا اللفظ وقع سهواً من ناسخه
وكان قصد الناسخ غير ذلك ، وأنهم مؤدبون بأدب الشريعة والحقيقة .

سادساً : ركز الإمام الشعراني في رسالته أن على المسلم الكامل
في هذا الزمان - أى زمن الإمام الشعراني - أعز من الكبريت الأحمر .
وأوضح صفات المسلم الكامل أن يكون سليم اللسان ، والسمع ،
والبصر واليد ، والفرج ، والقلب مما حرم الله في الظاهر والباطن . كما
أوضح أن رتبة الولاية درجة عظيمة ، لاتنال إلا بالتحقق بمقامات
الإسلام والإيمان ، والإحسان .

لذلك ينبهنا في رسالته بأن ادعاء الولاية مستمر طوال الأيام
والسنين إلى أن تقوم القيامة .

ويقرر أن درجة الإسلام عزيزة في هذا الزمان لكثرة المنازعة في
بواطن المعتقدين لله تعالى في صفات الكمال بما يستحق له من المدح
ورفع المنزلة على الخلق .

كما قرر أن الإسلام هو الاستسلام والإقبال لله تعالى ظاهراً
وباطناً وألا يكون عنده منازعة في شيء من الكمالات وأن يسلم
اعتقاده وإيمانه من الشكوك والأوهام المضلة عن طريق الأنبياء
 والمرسلين وعباد الله الصالحين .

ويذهب الشعراني في رسالته قائلاً : « ما أنفع ما يشتغل به العبد من العلوم الكونية ما كان متعلقاً بالأدب مع الله تعالى ومع خلقه وما عدا ذلك فهو اشتغال بما لا يعنى . وجمع ذلك كله أن يشهد العبد نفسه غارقاً في كل وصف مذموم عارياً عن كل وصف محمود .

ومن شهد هذا المشهد فقد أعطى كل ذى حق حقه وميز وصفه من وصف سيده ودخل حضرة النعيم المقيم أبد الآبدين . فهذه طريقة نفيسة سهلة .

من هنا يقرر أن الخلق لا يعلمون منك إلا ظاهرك والمدار على السرائر لأعلى الظواهر . لذلك يؤكد أنه لا يجب على أحد أن يقلد آخر في عمله تقليداً أعمى كما أوضحنا من قبل .

سابعاً : يحذر الإمام الشعراني الذاكر في ذكره الله تعالى من قصده التنزيه فإنه سبحانه وتعالى له الكمال المطلق . وهو في ذلك متأثر بالبسطامي في ذكره . كما ينبه بعدم المداومة على الذكر في أوقات مخصوصة . ومن الواجب على المرء أن ينوع في ذكره حتى لاتصيبه الغفلة .

والمراد بذكر الله تعالى كثيراً حسبما يرى الإمام الشعراني أن يتوالى على العبد شهوده أن الله تعالى ناظر إليه وأنه في حضرته . ولا شك أن هذه مرتبة الإحسان التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم : « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فالإحسان هو التحقق بالعبودية على مشاهدة حضرة الربوبية بنور البصيرة ، أى رؤية الحق موصوفاً بصفاته بعين صفته ، فهو يراه يقيناً ولا يراه حقيقة . ولهذا قال : « كأنك تراه » .

ثامناً : أوضح الشعراني فى رسالته الرابطة القوية بين الشيخ والمريد . فالمريد يتأدب بأدب الشيخ . فالشيخ هو الذى سلك طريق الحق وعرف المخاوف والمهالك فيرشد المريد ويشير إليه بما ينفعه وما يقره .

تاسعاً : يدعو الشعراني فى رسالته إلى زيارة الإخوان . ولقد أفرد رسالة خاصة بعنوان : « حقوق إخوة الإسلام » .

عاشراً : يدعو الشعراني فى رسالته إلى الحرفة والامتهان لكسب الحلال . ويجب على الإنسان ألا يتقاعس عن العمل . لذلك ينبه على الإنسان أن يكون صاحب عمل . وهذا المسلك كان مسلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته . وكذلك كان مسلك الصوفية السنيين .

من هنا ذكر فى رسالته عدداً من أصحاب الحرف مثل الفلاحين والطباخين ، والتراسين ، وغيرهم من أصحاب الحرف ، ولا شك أن هذه دعوة إلى العمل يدعونا فيها الإمام الشعراني للحرفة والتكسب .

كما يوضح الإمام الشعراني في رسالته المنهج التربوي والعملية عند الصوفية .

حادي عشر: استخدم الإمام الشعراني في رسالته كلمة : « دركات » في عبارة « دركات المنازعة » ، وهي جمع دركة . كما استخدم كلمة « دركتين » في الإشارة إلى اثنتين .

ثاني عشر: سطر الشعراني جزءاً من رسالته هذه في بعض مؤلفاته نذكر منها : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، والطبقات الكبرى . وكذلك توجد عبارات مكررة في معظم مؤلفاته . وهذا يدل دلالة قوية على أن هذه الرسالة ضمن مؤلفات الإمام الشعراني .

ثالث عشر: الرسالة المخطوطة تبدأ كل فقرة من فقراتها بالفعل الماضي : قال . وهذا يدل على أن ناسخ الرسالة كان يروى عن شيخه الإمام الشعراني . لذلك نرجح أن الناسخ هو تلميذ الإمام الشعراني وأحد مريديه الملتصقين به . كما نرجح أيضاً أن هذا المخطوط أو هذه الرسالة المخطوطة نسخت في عصر الإمام الشعراني .

رابع عشر: ساق الإمام الشعراني في رسالته عدداً من الأسئلة وكل هذه الاسئلة توضح معنى القرب عند هؤلاء المدعين للولاية .

وقام الإمام الشعراني بالجواب عليها بقوله : قال لهم الحق . ولعله قصد بكلمة الحق هنا . أى الحق المنطوق به الذى يدحض دعواهم فى الولاية الباطلة المزعومة .

خامس عشر : هذه الرسالة ينهج فيها الشعراني نهجه فى مؤلفه : « تنبيه المغترين » وغيرها من المؤلفات الأخرى .

سادس عشر : حفلت هذه الرسالة بعدد كبير من مصطلحات الصوفية ورموزهم التى يستخدمونها . كما اشتملت على عدد من الأمثال والحكم التى تطالب أصحابها بعلو الهمة والترفع عن الناس . ولقد أورد الشعراني بعض الكلمات التى يستخدمها العامة من البشر مثل قوله : « الشحات » وهذا رمز للذى يأخذ الصدقات .

ويذكر الشعراني فى رسالته : « وقال » : ويقصد بذلك شيخه على الخواص ، أو شيخه على المرصفي . وهذا غالب عليه فى جميع مؤلفاته .

كما ذكر فى رسالته : مؤلفاً له أسماء :

« تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء » أنه اشتمل على عشرة آلاف علم كل علم منها لا يدرك له قرار .

وهذا ما يذكرنا بمؤلفه : « الأجوبة المرضية عن أئمة

الفقهاء والصوفية « فلقد أورد فيها علوماً كثيرة ، والغالب عليها أنها علوم ذوقية . كما أوضح أن هذه العلوم غريبة على غير الصوفية لكونها علوماً وهبية لدنية .

سابع عشر : غلب على هذا المخطوط الجانب الاسترسالى فى الحديث وتميز بالأسلوب السهل الواضح . وكان الإمام الشعرانى يتحدث ويقوم أحد مريديه بالتسجيل وراءه . وكان ناسخ هذه الرسالة يقوم بكتابة السطور والفقرات متداخلة مع بعضها البعض فليس هناك فاصلٌ بين الكلمات والجمل كما هو ملاحظ فى الكتب الحديثة . لذلك سقط بعض الكلمات والجمل التى تدخلنا فيها للمحافظة على السياق والمعنى .

كما سقطت بعض أسماء الأولياء الذين لقبهم شيوخه .

وكذلك وجدت بعض الكلمات المطموسة كانت إشارتنا إليها بحالتها التى وجدت فيها بهامش صفحتها . كما وجدت بعض الكلمات غير واضحة والبعض الآخر بها خطأ إملائي قمنا بتصحيحها وإعادة صوابها .

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنية بجزء من الآية قمنا بإكمالها .

وكتابة بعض الكلمات مثل : « قوله تعالى » لأن ناسخ الرسالة أغفلها ولم يكتبها .

كما ذكر الشعراني في رسالته عدداً من الأعلام جاءوا على الترتيب التالي : عبد القادر الجيلي ، وأحمد الرفاعي ، وعبد القادر الدشوطي ، وعلى المرصفي ، وتاج الدين الذاكر ، وعلى البرلسي ، وأحمد البدوي ، وعبد الله البلتاجي ، وداود الأعزب ، وأبو السعود ابن أبي العشائر . وكل هؤلاء لقبهم شيوخه ، منهم من تتلمذ عليهم ومنهم من أخذ عنهم ، وذكر هؤلاء الشيوخ في : « طبقاته الكبرى » .

ثامن عشر : يقيم الإمام الشعراني في رسالته حواراً بين كلب السوق وكلب الصيد بين فيه شرف كلب الصيد عن كلب السوق في تعففه عن الناس .

وهذا رمز ساقه الشعراني ليبين لك أيها المدعى كيف تتعفف عن الناس وعما في أيديهم مصداقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » .

اختتم الشعراني رسالته بقوله : « هؤلاء المغترين ولم يقل هؤلاء المدعين على الرغم من أن الرسالة من أولها إلى آخرها تقول : هؤلاء المدعين . ولا شك أنه ذكر كلمة : « المغترين » في مؤلفه :

« تنبيه المغترين » .

كما اختتم الرسالة بقوله : « وقد وضعنا هذه الرسالة . وهذا يدل على أنها رسالة وليست كتاباً كما أوضحنا ذلك فيما تقدم .

يتميز الإمام الشعراني بأن معظم دراساته تقع في التصوف الإسلامي وكذلك دراسات التفسير والفقه والتوحيد والحديث والنحو والطب . وهذا ما أوضحناه عندما تحدثنا عن مؤلفاته .

ينبها المؤلف في ختام رسالته على العمل بالكتاب والسنة ومادرج عليه جماعة الأئمة من الزهد في الدنيا والرغبة في العقبى والإقبال على المقصد الأسنى ودوام الحضور مع المولى في الحياة الدنيا والآخرة .

ولقد أوضحت هذه الدراسة أن الإمام الشعراني عالم حر في نطاق الشريعة السمحاء ، متزن العقل ، لا يجمع مع هواه ، ولا يتعصب لمسلكه ، ولا لرأيه .

ولقد أوضح الشعراني ما يرمى إليه من معاني ، وما يريد كشفه من مواقف ، وقد استطاع أن يعرض ما أراد من ذلك في براعة وبعد عن التكلف عندما تمسك بحقيقة الشريعة .

ولقد استطاع بعرضه لرسالته في صورة منظمة مترابطة متكاملة

مع بيان الفكرة الشاملة التي جعل منها موضوعاً واحداً للحديث عن :
« ردع الفقراء في دعوى الولاية الكبرى » .

متنهجاً في سبيل ذلك منهجاً علمياً منظماً ، لا يقل عما هو متبع
في الدراسات الإنسانية المعاصرة بصفة عامة ، والفلسفية منها بصفة
خاصة .

وفي الصفحات القادمة نستعرض معاً هذه الرسالة
التي أودعها لنا الإمام الشكراني بعنوان : « ردع الفقراء عن
دعوى الولاية الكبرى » .

تناولناها بالتقديم الذي قدمناه ، والتحقيق والتعليق على
نصوص هذه الرسالة .

والشرح الكامل المفسر لاصطلاحات الصوفية ورموزهم التي
حشدت بها هذه الرسالة .

القسم الثانى

النص المحقق

(ردع الفقرا عن دعوى الولاية الكبرى)

بسم الله الرحمن الرحيم وهو ثقتي وكفى

الحمد لله (*) رب العالمين والصلاة والتسليم على أشرف

المرسلين أجمعين وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(*) الحمد لله : الحمد في اللغة : هو الوصف الجميل على قصد

التعظيم والتبجيل ، سواء تعلق بالفضائل ، وهي الأوصاف اللازمة ، أو بالفواضل ، وهي الأوصاف المتعدية والأفعال السنية ، واعلم أن حقيقة الحمد هو الشاء على المحمود بذكر نعوته الجليلة ، وأفعاله الجميلة ، واللام ، هنا تفيد الاستغراق للجنس كله ، وعليه فجميع المحامد لله سبحانه وتعالى . إما وصفاً وإما خلقاً .

الحمد لله تقدس في أزليته وأبديته وأحديته عن النظر والشبيه ، وتنزه في جماله وجلاله وكماله عن مقالات أهل التمويه ، الغنى عن جميع خلقه ، فلا أن يحصره ، ولا أحد ينصره ، ولا ضياء يظهره ، ولا حجاب يخفيه ، الواحد الأحد ، القدوس الصمد ، الذي لا شك فيه ، شهدت بكمال قدرته عجائب صنعته ، فكل ما سواه موجد ومدير ومنميه ، الحى العليم القدير السميع البصير الملك الكبير ، فلا مقرب لمن يبعده ، ولا مبعد لمن يدينه ، المتكلم بكلام أزلى ، ومن عطل أو شبه فقد وقع في التيه ، حجب للمؤمنين إثبات صفات الكمال والعجز عن إدراك الجلال فهذا القدر يكفيه ، ومن رام الوقوف على غاية أو ظن المعرفة لها نهاية فقد تعدى طوره .

والحمد هو الشاء على الله تعالى بما يليق بجماله وجلاله . ولذلك شرع للعبد أن يقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى وبحمده » .

والله سبحانه وتعالى هو المستحق للحمد حقيقة وكل من يحمده ويشنى عليه من الخلق فهو يرجع إلى أن الله تعالى هو =

.....

- المحمود حقيقة لأنه الخالق للعبد وفعله.

والحمد لله المستحمد لعباده ، بلا فاقة إليهم ولا حاجة ، وكل مستحمد
سواه فالفاقة إلى من استحمد إليه ، فأنه هو الغنى الحميد ، لا يستحق هذا
الوصف غيره ، ولا يستحق ثناءً سواه.

والله سبحانه وتعالى هو الحميد بحمده لنفسه أزلاً وبحمده عباده له أبداً ،
ويرجع هذا الوصف إلى صفات الجلال والعلو والكمال منسوباً إلى ذكر
الذاكرين له فإن الحمد هو ذكر أوصاف الكمال من حيث هو الكمال .

والحميد الذى يحمد فعله لأنه لا يخلو من حكمة . فالحق سبحانه
وتعالى علم عجز الخلق عن حمده فحمد نفسه بنفسه فى أزله . فلما
خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمده بحمده . فقال : الحمد لله رب
العالمين . أى الحمد الذى حمد نفسه بنفسه هو له لا ينبغى أن يكون
لغيره .

والحمد لله المتفرد بجمال جبروته ، وجلال ملكوته ، له الآلاء والنعم ، وله
الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

والحمد لله رب العالمين ، إله العالمين ، الموجود المعبود ، الذى لا إله غيره ،
تنزه عن مشابهة الحوادث ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير . لا آلاء
إلا آلاؤه ، ولا نعماء إلا نعمائه ، له الأسماء الحسنى والنور الأبهى
والصفات العلية .

(القشيري : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ٢١-٢٢) .

فمقام الحمد أعلى المقامات ولهذا كان لواء محمد صلى الله عليه وآله
وسلم لواء الحمد ، لأنه أثنى على ذاته سبحانه وتعالى بما تستحقه المكانة
الإلهية وظهرت فى المراتب الحقية وال مراتب الخلقية كما هو عليه =

.....

= الوجود ، واختص اسم الله بالحمد ، لأن الألوهية هي الشاملة لجميع معاني الوجود ، ومراتبه ، واسم الله هو المعطى لكل ذي حق من حقائق الوجود حقه ، وليس هذا المعنى لغير هذا الاسم فاخص هذا الاسم بالحمد . (الجيلي : الإنسان الكامل ، ج ١ ص : ١٣١) .

الحمد لله المنفرد بكبريائه وعظمته ، المتوحد بتعالیه وصمديته ، ولم يجعل السبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، وقصر ألسنة الفصحاء عن الثناء على جمال حضرته ، إلا بما أثنى به على نفسه ، وأحصى من اسمه وصفته . (الغزالي ، أبو حامد : المقصد الأسنى ، ص ٥) .

الحمد لله ذي الجلال والإكرام لا إله إلا هو ، لا يعلم ما هو ، ولا كيف هو ، ولا أين هو ، ولا حيث هو إلا هو ، ذي الملك والملكوت ، ذي العزة والجبروت ، التواب الوهاب ، مسبب الأسباب وفتاح الأبواب ، من إذا دعى أجاب . من لا تحويه الفكر ، ولا يدركه البصر ، ولا يخفى عليه أثر ، رازق البشر ، ومقدر كل قدر ، ولمن عصي غفر . (أبو العزائم ، محمد ماضي : محكمة الصلح الكبرى ، القاهرة : دار الكتاب الصوفي ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص : ٣) .

الحمد لله الواحد فلا يجحد ، الأحد الذي في سرمديته توحيد ، الفرد الذي في ربوبيته تفرد ، الشكور الذي لا يشكر غيره ولا يحمد ، الغفور الذي يغفر الذنوب لمن يتوب ولا يتردد ، الملك الذي أفنى الممالك والملوك وملكه سرمدى ، العلى الذي يصعد إليه الكلم الطيب .

(وال) في الحمد للاستغراق ، ليتناول كل أفراد الحمد المحققة والمقدرة .

= وقيل : للجنس ومعناه : أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضى =

.....

= ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، أما من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق.

(محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية . القاهرة : دار الاعتصام ، الطبعة الرابعة ، بدون تاريخ ، ص : ٧-٨) .
والحمد هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، والشكر هو الثناء على الله تعالى بما يكون منه من النعم . (المحاسبى : المسائل فى الزهد ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، القاهرة : دار التراث الإسلامى ، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص : ٣٥) .

فله الحمد ، لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه ، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزیز إفضاله .
فحمده سبحانه له هو من صفات كماله . وحمد الخلق له على إنعامه وطوله وجلاله وجماله واستحقاقه لصفات العلو ، واستجابة لنعوت العز والسمو .

(المحاسبى : البعث والنشور ، تحقيق محمد عيسى رضوان . بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م . ص : ٦) .

فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة فى مخلوقاته . ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حى ، وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون إلا محموداً كما لا يكون إلا إلهاً ورباً وقادراً . (ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين ، ص : ١٠٥) .

= وقد قيل : الحمد كله لله ، فهذا له معنيان :

.....

أحدهما : أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمده به الم محمود التام .
وإن كان بعض خلقه يحمده أيضا - كما يحمده رسله وأنبيأؤه وأتباعهم -
فذلك من حمده تبارك وتعالى ، بل هو الم محمود بالقصد الأول وبالذات ،
وما قالوه من الحمد وإنما قالوه بحمده فهو الم محمود أولا وآخرأ وظاهراً
وباطناً ، كما أنه بكل شيء عليم .

المعنى الثاني : أن يقول : « لك الحمد كله » . أى الحمد التام الكامل ،
فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة . والتحقيق أنه له الحمد بالمعنيين
جميعاً ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه سبحانه وتعالى ،
فهو الم محمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما
أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو وليس الملك التام الكامل
إلا له .

فالحق سبحانه وتعالى له الملك وله الحمد . والمقصود أن الملك والحمد فى
حقه متلازمان ، لكل ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده وحكمته ، فهو
محمود فى ملكه وله الملك والقدرة مع حمده . فكما يستحيل خروج شيء
من الموجودات عن ملكه يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ، ولهذا
يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره ، لينبه عباده على أن مصدر خلقه
وأمره عن حمده ، فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر
وعبودية ، وحمد ثناء ومدح ، ويجمعها التبارك ، فتبارك الله يشمل ذلك
كله ، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقب قوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ

تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ٥٤ » .

فائبات الحمد له سبحانه ، فإن الحمد يتضمن مدح الم محمود بصفات
كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضا عنه ، والخضوع له . فلا =

وبعد .. فقد دعاني داعي الشفقة على طائفة من الفقراء (*)

= يكون حامداً من جحد صفات المحمود ، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له . ولما كانت صفات المحمود أكثر كان حمده أكمل . ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه ، لكمال صفاته وكثرتها . ولأجل هذا لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه .

(*) **الفقر** : فقر وافتقر : ضد استغنى ، وافتقر إليه : احتاج فهو فقير ، والجمع فقراء . وأفقره ضد أغناه ، والفقر ضد الغنى .

(محمد إسماعيل إبراهيم ، قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، ص : ٢٩٣) .

فالفقر هنا هو الافتقار إلى الله تعالى ، كما جاء في قول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

« سورة فاطر : الآية : ١٥ » .

لقد بين الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه ، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتي للفقير .

فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلّة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الله سبحانه لذاته لا أمر أوجب غناه .

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً • كما الغنى أبداً وصف له ذاتي =

.....

= فالفقر المطلق من كل وجه ثابت للبشر جميعاً ولدواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه وتعالى إلا غنياً ، كما يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً.

(ابن قيم الجوزية: طريق الهجتين وباب السعادتين. راجعه محب الدين الخطيب. القاهرة: المكتبة السلفية، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص: ٨). فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، اكلائى كلاءة الوليد، ولا تكلنى إلى أحد من خلقك».

هذا هو حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان دائم الافتقار إلى مولاه من هنا تنضح حقيقة الفقر وهو توجه العبد بجميع أحواله إلى الله . والفقر عند الصوفية معناه الحاجة ، والحاجة إلى الله تعالى على الحقيقة . (ابن مفلح المقدسى الحنبلى ، شمس الدين أبو عبد الله : الآداب الشرعية والمنح المرعية. الرياض: مكتبة الرياض الحديثة ، سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م ، ص: ٢٣) .

كما أن الفقر عندهم شعار الأولياء، وليس الفقر معناه ألا يملك المريد شيئاً ، وإنما الفقر ألا يملكه شيء ، فيعيش الصوفى فى عز وهو فى فقر ، حيث لا يطلب بظاهره ولا يباطنه من أحد شيئاً ، ولا يشكو ولا يظهر أثر الفاقة، وإنما يظهر الغنى فى غير تصنع .. =

.....

= هذا هو مقام الفقر الحق الذي أسس الصوفية قواعده وأهابوا بالمسلمين أن يتمسكوا بعروته .

فالفقر عندهم هو تجرد القلب عن المظاهر الكونية، وانشغاله بالله سبحانه وتعالى وحده، وتخلي القلب عن الأملاك لأنها شواغل وقواطع لكل عبد يسكن إليها بقلبه، ويتعلق بها، ويفكر فيها كل وقته أو أكثره .

(الشعراني : لطائف المنن والأخلاق ، تحقيق عبد الحليم محمود . القاهرة : عالم الفكر ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص : ١٢٢) .

وهذا كله هو معنى قول الإمام الجليل عليه السلام : « ليكن بدنك حياً عند طاعة الله تعالى ، وميتاً عند معصية الله جلّ وعلا » .

وعلازمة صحة الفقر هو التجرد عن الأملاك بمعنى ألا يتغير حال الفقير بوجود الأسباب وعدمها ، لا في القوة ولا في الضعف ، ولا في السكون ، ولا في الانزعاج ، ولا تؤثر فيه المهالك ، لا يهزه وجودها ولا يستنفره عدمها ، فإن ملك كأن لم يملك . (المحاسبى : الوصايا ، تحقيق عبد القادر عطا ، القاهرة : مطبعة صبيح ، سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص : ٥٨ - ٥٩) .

وقد قيل : الفقر هو وقوف الحاجة على القلب ومحوها من كل أحد سوى الرب

ومما يحكى عن الإمام عليّ رضي الله تعالى عنه أنه رأى فقيراً يمشى في سوق البصرة وهو يتبختر في مشيه ، فقال له الإمام علي رضي الله تعالى عنه : من أنت ؟ فقال فقير . فقال له الإمام : ما علامة الفقر ؟ فقال منك يؤخذ العلم يا أبا الحسن . فقال الإمام عليّ عليه السلام للفقير اثنتا عشر علامة :

الأولى : أن يكون عارفاً بالله .

.....

= **والثانية :** أن يكون مراعيّاً لأوامر الله .

والثالثة : أن يكون متمسكاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

والرابعة : أن يكون دائماً على طهارة .

والخامسة : أن يكون راضياً عن الله تعالى في كل حال .

والسادسة : أن يكون موقناً بما عند الله تعالى .

والسابعة : أن يكون آيساً مما في أيدي الناس .

والثامنة : أن يكون متحملاً للأذى .

والتاسعة : أن يكون مبادراً لأمر الله تعالى .

والعاشرة : أن يكون شفوفاً على الناس .

والحادية عشرة : أن يكون متواضعاً للناس .

والثانية عشرة : أن يعلم أن الشيطان عدو له .

كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾

« سورة فاطر : الآية : ٦ » .

لذلك قيل : العبادة الحقّة هي ما تحقق فيها الافتقار المطلق من جانب العبد والغنى المطلق من جانب الحق ، والله وحده هو الغنى المفتقر إليه ، بل إن الافتقار إلى الأسباب افتقار في الحقيقة إلى الله وحده .

ولهذا يقول ابن عربي في شرح الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ

إِلَى اللَّهِ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١٥ » . الفقراء هم الذين يفتقرون إلى كل شيء من حيث أن ذلك الشيء هو مسمى الله فإن الحقيقة تأبى أن تفتقر إلى غير الله .

.....

= وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الناس فقراء إليه على الإطلاق ،
والفقر حاصل منهم ، فعلمنا أن الحق قد ظهر في كل ما نفتقر إليه .

وتتضح عبقرية الإمام الجنيد في كونه أول من فلسف معنى الفقر ، لا
بمعنى العدم في ملكية الشيء ، بل بمعنى الافتقار الذي هو عنده (تمام
الغنى) .

وقد سئل : أيهما أتم : الاستغناء بالله ، أم الافتقار إلى الله عز وجل ؟

فأجاب : الافتقار إلى الله عز وجل موجب للغنى بالله عز وجل ، فإذا صح
الافتقار إلى الله عز وجل كمل الغنى بالله تعالى ، فلا يقال أيهما أتم ، فلا
تمام لأحدهما إلا بتمام الآخر ، ومن صحح الافتقار صحح الاستغناء .

ومن هنا يتضح لنا المعنى الحقيقي للفقر عند الإمام الجنيد الذي يدل على
بعد نظره ، ودقة كلامه ، وعمق فكره ، وساحة ذوقه ، عندما أوضح
مصطلحي : « الغنى » و « الفقر » فهما عنده متلازمان ، فالفقر التام إلى الله
غنى تام عن الخلق وحرية تامة أيضاً .

وبعبارة أخرى يمكن أن يقال : الفقر الكامل عبودية كاملة للحق وغنى به .

(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد البغدادي ، ص : ٢٠٩) .

هذا هو الفقير المجرد عن العلائق ، المعرض عن العوائق ، لم يبق له قبلة
ولامقصد إلا الله تعالى . وقد أعرض عن كل شيء سواه . وتحقق
بحقيقة : « لا إله إلا الله » . (عبد الحلیم محمود : أبو مدين الغوث ،
ص : ١٠٠) .

لذلك كان الفقر سر الله عند العبد فإذا كتبه كان أميناً وإذا أظهره سقط عنه
اسم الفقر . (أبو العلا عفيفي : الملامية والصوفية وأهل الفتوة ، ص : ٢٢) . =

.....

= كما قيل الفقير الصادق من أثر وقته ، فإن كان فيه تطلع إلى وقت ثان لم يستحق اسم الفقر . وهو الذي يأنس بالعدم كما يأنس الجاهل بالغنى ، ويستوحش من الغنى كما يستوحش الجاهل من الفقر ، وهو الذي يأخذ الشيء من جهته ويختار القليل على الكثير عند الحاجة .

ومن هنا كان للفقراء أخلاق اختصوا بها تتمثل في السكون عند الفقر ، والاضطراب عند الوجود ، والأنس بالهموم ، والوحشة عند الأفراح ، فحب الفقر شديد لا يصبر عليه إلا صديق .

لذلك قيل : من طلب الفقر استقبله الغنى ، ومن طلب الغنى استقبله الفقر ، والغنى هو الغنى بالله . (ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص ٣١٠) .

ولقد قيل في توضيح خفايا الفقر لدقته وغموضه على أغلب الأذهان : لا بد أن يخرج الفقير عن فقره بانتفاء شهود فقره ، فاعتقاده في نفسه أنه فقير يخرج عن شهود الفقر ، والفقير ليس وحشى الطباع ، فلا بد أن يصفو قلبه لكل إنسان ويسلم صدره من كل دنس ، وتسمح نفسه بالبذل والإيثار .

(المحاسبى : الوصايا ، هامش ص : ٥٨ - ٥٩) .

وسئل رويم عن الفقر فقال : إرسال النفس في أحكام الله تعالى .
وكان أبو مدين المغربي يقول : حقيقة الفقر أن لا تشاهد سواه .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١٣٤) .

والفقير حسبما يرى الإمام الجنيد هو الذى لا يسأل أحداً ولا يعارض وإن عورض سكت .

.....

= والسؤال الآن : هل هناك علاقة بين الفقر والتصوف ؟

والجواب : الفقر أساس من أسس التصوف ، إذ لا يمكن أن يكون الصوفي صوفياً إلا بعد أن يتحقق بالفقر . فالفقر من هذه الناحية طريق من طرق الوصول إلى التصوف ، كما أنه لا يلزم من وجود الفقر وجود التصوف ، ولا أن يكون كل متحقق بالفقر صوفياً ، ولكن لا بد لكل صوفي أن يكون متحققاً بالفقر .

ونتساءل أيضاً : هل هناك علاقة بين الزهد والتصوف ؟

والجواب : التصوف معنى جامع ، إذ التصوف غير الفقر وغير الزهد . ولتوضيح ذلك نقول : إن التصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد ، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لا يكون الصوفي صوفياً ، ولو كان زاهداً أو فقيراً .

فإذا ما تأملنا ما عرف به الجريري التصوف وهو قوله : « التصوف هو الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى » .

من هنا يتبين أن التصوف هو حصول الأخلاق وتبديلها ، وأنه بهذا يكون فى مرتبة فوق مرتبة الزهد ومرتبة الفقر .

ويؤيد هذا ما قيل : من أن نهاية الفقر مع شرفه هى بداية التصوف .

وإذا ما تأملنا أيضاً ما عرف به الجنيد التصوف وهو قوله : « التصوف هو أن يملك الحق عنك ، ويحييك به » تبين أن أخص خصائص المتحقق بالتصوف هو أن يفنى عن نفسه ، ويبقى بربه ، بحيث لا يكون قائماً فى الأشياء ولا مريداً لها أو منصرفاً عنها بإرادته هو ، بل يكون كذلك بإرادة الله . وهذا مخالف لما عليه كل من الفقير والزاهد .

=

.....

= فالفقر والزاهد إنما يقومان فى الأشياء بنفسيهما ، ويريدان لها ، أو ينصرفان عنها بإرادتهما ، ويأخذان نفسيهما بالفقر والزهد ، ويصدران عن دوافع نفسية تدفعهما إلى الفقر أو الزهد ، فى حين أن الصوفى فأن عن نفسه مسقط لإرادته وتديره ، لا يعنيه مراد نفسه بقدر ما يعنيه مراد ربه . ولا يصدر فى أحواله وأفعاله عن إرادته الفردية بقدر ما يصدر عن مقتضيات المشيئة الإلهية .

وهذا ما بينه السهروردى إذ عرف الصوفى بأنه من كان دائم التصفية للقلب عن شوب النفس مستعيناً على هذه التصفية بدوام افتقاره إلى الله تعالى فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه .

ومن هنا نتبين أن التصوف أرقى من الفقر والزهد ، وإن كان متطوياً عليهما ، ومستنداً إليهما . ونتبين أيضاً أن الفقر والزهد بمثابة المدخل إلى أبواب التصوف أو التمهيد الذى يمهد النفس الإنسانية للتحقق بالأحوال الروحية المشرقة ، والنفحات القلبية الصادقة التى هى قوام التصوف ، وسبيل الصوفى إلى كشف الحقيقة .

(محمد مصطفى حلمى : الحياة الروحية فى الإسلام ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص : ١٠٢ - ١٠٣) .

لذلك كان التصوف مبنياً على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

(أبو العلا عفيفى : التصوف ، الثورة الروحية فى الإسلام ، ص : ٤٨)

فالفرق بين الفقر والافتقار أن الفقر هو الحال التى يكون عليها الفقير ، وهو حال يعدم فيها ما يملكه غيره ، والافتقار هو الحال التى يشعر فيها باحتياجه إلى ربه واعتماده عليه .

.....

= ومعنى ترك التعرض والاختيار : عدم الوقوف فى طريق الإرادة الإلهية ، وعدم نسبة الاختيار إلى الإنسان .

ومن هنا تساوى عند الفقراء الصادقين الذهب والتراب فى عدم ميل القلب إليه من غير ترجيح الذهب عليه ، لأنهم لا ملك لهم مع الله تعالى . فهم يأكلون ويلبسون من مال سيدهم ويسكنون فى ملكه فى الدارين .

والفقر هو الانشغال بالله تعالى ، لا بغيره ، فالانشغال بالله والركون إليه لم يزل ولم يتغير ، وهذا هو فقر العارفين بالله تعالى ، فإنهم يشعرون رغم ما يملكون من مال وجاه أنهم مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى على الدوام . ولقد سئل الجنيد عن الفقير الصادق ؟ فأجاب : هو أن لا يستغنى بشىء ، ويستغنى به كل شىء .

كما يفسر زوال الفقر عند المشاهدة إذ يقول : « إنهم استغنوا بما كان بدا ، فخرجوا عن الفاقة » . (محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ٨٦) .

ويفسر كذلك صورة الفقير الراضى فى قمة العزة إذا قورن بغيره ، فقد سئل : من أعز الناس ؟ فقال : الفقير الراضى ، لأن الغنى بالله هو قمة العزة به ، مع كون القمة الفقر إليه . والفقر الكامل هو الغنى التام بالله .

لذلك يقول الإمام الجنيد : « النفس التى أعزها الله بحقيقة الفناء تزول عنها موافقات الفاقات » .

وفوق ذلك ماساقه عندما يعرض لوصف بلاء أهل الفناء ، حيث قال : « أقام لها عطشها إليه من كل مأثم مأثماً ، ورفع لها فى كل كسوة علماً ، يذيقها طعم الفقر ، ويجدد عليها رؤية احتمال الجهد ، أى الشعور الدائم فى كل الأحوال بالفقر إلى الله .

ويقول أيضاً : « إن الله كشف لعباده معائبهم فى ذكر الطين لهم ، =

.....

= وعرف مقاديرهم بذكر النطقة ، أشهدهم على عجزهم في قلبهم ،
ليعرفوا فاقتهم إليه في كل حال .

وهكذا يتحول معنى الفقر إلى العبودية الكاملة التي تعنى عند الجنيد سوى
العود إلى الشعور بحال مشابه لما كان عليه أثناء أخذ الميثاق ، وهي الحال
التي يحلو له دائماً أن يفسر على ضوئها فكرة : « الفناء » ، وهي أحد
مفاتيح مذهب إن لم تكن المفتاح الأول .

والجنيد على أي حال يشير إلى الحقيقة اللازمة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

« سورة فاطر : الآية : ١٥ » .

ومقام الفقر عند الصوفية شعار الأولياء ، لأن الغنى أو الملك قد يكونان
حجاباً يحول بين المريد وبين اشتغاله بالله ، وليس الفقر عند الصوفية أن لا
يملك المريد شيئاً وإنما الفقر ألا يملكه شيء ، فيعيش الصوفي في غنى
وهو في فقر ، حيث لا يطلب بظاهره ولا يباطنه من أحد شيئاً ، ولا يشكو
ولا يظهر أثر الفاقة ، وإنما يظهر الغنى في غير تصنع . (الطوسي :
اللمع ، ص : ٥٧) .

ومن استغاثات ابن عطاء الله السكندري رضى الله تعالى عنه التي يؤكد فيها
مذهبه الشاذلى السنى في أن الاعتداد بالفقر ذنب رغم توسله بالفقر إلى الله ،
وأن المحاسن لا تظهر إلا بفضل الله ، والمساوى لا تظهر إلا بعدل الله .

« إلهي أنا الفقير في غناي ، فكيف لا أكون فقيراً في فقرى » .

ها أنا أتوسل إليك بفقرى إليك ، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن
يصل إليك ؟

في هذا الزمان سموا أنفسهم بالصوفية (*) .

= فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك ولا يكون لك منها شيء ، بحيث تكون
كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للمفقر .

ونريد أن نوضح في هذا المقام أن الفقر عند الصوفية له معنيان : فقر
مادى ، وفقر معنوى :

الفقر المادى : وهو الفقد أو الحاجة ، وهو ليس محبباً في ذاته .

الفقر المعنوى : وهو الفقر الحقيقى المستحب لدى الصوفية ، وهو ليس
بمعنى الفقد والحاجة ، بل هو شعور الإنسان برغم ما يملك من مال ويتمتع
به من جاه ، بفقره إلى الله تعالى على الدوام ، لأنه ليس له غنى عن الله .

وعلى هذا فالإنسان الصادق حسبما يرى الشاذلى هو الذى يتحقق
بأوصاف الفقر والضعف والعجز والذلة ، ويعرف أنها من أوصاف
العبودية ، فيجلس عليها ناظراً لأوصافه تعالى من الغنى والقدرة
والعزة ، ويعرف أنها من أوصاف الربوبية ، وبذلك يعلم حقيقة نفسه .

(*) **التصوف** : يتصل بالقلوب . وأسرار القلوب وخلجاتها أدق من أن
تظهر لكل كاتب أو باحث ، ومصدر خطورته أن التصوف عمل وسلوك
ومجاهدة ومكابدة ، وليس كتباً تقرأ ، أو كلاماً يحفظ ، وهو يختلف
من طائفة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر ، بل ربما يختلف في
الشخص نفسه من وقت لآخر حسب الواردات عليه .

ومن ثم فالكتابة فيه يجب أن تتسم بالحذر وخاصة عند سالكى
الطريق حتى لا يظلموا القوم أو يظلموا أنفسهم . وإذا كان سالكوا
الطريق أنفسهم يخشون ذلك فما بالك بغيرهم (أبو عبد الرحمن
السلمى : أصول الملامية ، ص : ١٣) .

.....

= والفرق بين الصوفية وغيرهم هو أن الدنيا لا تستعبدهم ، وإنما تستعبد غيرهم والصوفي في أصل منهجه « عدم التنازع » ، أى لا ينازع الآخرين الرأى ، ولا يحاول قهرهم بالجدل . والصوفي العارف لا يرى حيثما توجه إلا الله (مصطفى محمود : السر الأعظم ، ص : ١١) .

كما أن التصوف ليس أخذ عن القيل والقال ، ولكن أخذ عن الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات ، ولابتداء الفقير بالعلم وابدائه بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه (الجيلانى ، عبد القادر : فتوح الغيب ، ص : ١٦٦)
لذلك نقول : إن التصوف ليس علماً تكفى فيه الدراسة ، ويكفى فيه البحث فى الكتب ، ولكنه ممارسة ، وسلوك ، وعمل (عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٣٧) .

وقد قيل : أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة ، فالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل (عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية ، ص ٦٦ - ٦٧) .

وهنا ينبغى أن ننبه أن بداية الصوفية إنما تكون بداية فقهية ، وتكون النهاية نهاية صوفية ، ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث ، ولم يحط علماً بما أحاطوا به يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العاملين .

ويقول الجنيد : « التصوف هو تصفية القلب عن موافقة البرية ، ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخماد الصفات البشرية ، ومجانبة الدعاوى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية ، والتعلق بالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى الشريعة . =

.....

= لا شك أن هذا تعريف جامع مانع للتصوف اشتمل على أمور كثيرة كلها مبنية على الشريعة سجله لنا الإمام الجنيد عندما عرج بنا إلى ساحة الذوق عنده.

ويحدثنا الطوسي عن المتصوفين فيقول : « هم العلماء بالله وبأحكام الله بما علمهم الله ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا لأن كل واحد قد فنى بما وجد .
(الطوسي : اللمع ، ص : ٤٧) .

وقال بعضهم فى التصوف ثلاثة أجوبة :

- (١) جواب بشرط العلم : وهو تصفية القلوب من الأكدار واستعمال الخلق مع الخليقة ، واتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى الشريعة .
- (٢) جواب بلسان الحقيقة : وهو عدم القلق والخروج من رق الصفات والاستغناء بخالق السموات .
- (٣) جواب بلسان الحق : أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم ، وصفاهم من صفاتهم فسموا صوفية .

من هنا يمكن القول : إن العارف هو الصوفى ، لكن يجب أن نفهم أن العارف هو نهاية الصوفى ، فالصوفى يسلك حتى بصير عارفا إذا كان لديه استعداد للوصول إلى رتبة العرفان ، والمراد بأن العارف يصل فى المدة القصيرة إلى ما لا يصل إليه غيره فى سنين طويلة ، والمراد بالغير ، غير السالك طريق المعرفة من العباد .

والمراد بالصوفى السالك الذى يسير السالك إلى المعرفة كذلك .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، هامش ص : ٥٨١) . =

.....

وقد قيل : التصوف بدايته تخلق ، ونهايته تحقق .

ولما سئل الشبلي : ما بدء التصوف ، وما نهايته ؟

فقال : بدؤه : معرفة الله عز وجل . ونهايته : توحيد الله .

وقد حاول بعض الباحثين صياغة تعريف واحد للتصوف تلتقى فيه كل تعريفات الصوفية فقال : إن التصوف في أساسه وجوهره فقد ووجود ، فقد لأنية العبد ، ووجود له بالله وفي الله ، أى فناء عن الذات الشخصية وأوصافها وآثارها وبقاء في الله .

(أبو العلا عفيفي : التصوف : النورة الروحية ، ص : ٤١)

يربط الكتاني بين التصوف والأخلاق فيقول : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الأخلاق زاد عليك في التصوف .

هذا النص للكتاني بين فيه كيفية إقامة التصوف على أسس شرعية ، ولكون التصوف يتناول الجانب الوجداني ربطه بالأخلاق الإسلامية . وجعل بداية الأمر أن يكون السالك إلى طريق الحق متمتعاً بالأخلاق . وجعل الأخلاق المدخل الأساسي للدخول إلى باب التصوف .

كما قيل : التصوف هو التخلق بالأخلاق الإلهية .

هكذا يتضح لنا العلاقة الوثيقة بين الأخلاق والتصوف . وعليه يمكن القول أن التصوف الإسلامي مبني على الأخلاق الإسلامية .

كما أن التصوف تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية .

أو بعبارة أخرى : طرح النفس في العبودية ، والخروج من البشرية ، والنظر إلى الحق بالكلية (عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلي ، ص :

وادعوا الولاية (*) الكبرى وهم أضل من الأنعام

(*) **الولاية** : تعد الولاية من أول وأهم المراتب التي ينالها الواصل ، ومن بين الأولياء تبرز طائفة من الموهوبين ليحتلوا مراكز القطبية المختلفة .

فالولاية هي القربة من الله تعالى ، وهي كالنبوة تأتي من الله بالاجتباء أو التفضل إلا أن هناك اختلافا جذريا بين النبوة والولاية ، ويتمثل في أن النبوة هي تمام الدرجة وليس هناك أفضل منها إلا المرسلين ، فالرسالة أجل من النبوة .

(الترمذى : علم الأولياء ، ص : ٥٠)

ويقول ابن عربي : مقام الولاية هو أعلى من الاجتهاد ..

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربي ، ص : ١٢٨)

ويتناسق سهل التستري مع القرآن الكريم كشأنه في اتخاذ القرآن والسنة إماماً له فيقول : « الولي من توات أعماله على الموافقة » .

كما قال : الولي هو من أسلم قلبه لله تعالى فتولى الله جوارحه . وأعلى درجة الولاية هي درجة الصديقية .

ولقد سئل عنها سهل فقال : الصديقون هم الذين عدوا أنفاسهم بالتسبيح والتقديس ، وحفظوا الجوارح ، والحواس ، فصار قولهم وفعلهم صدقا ، وصار دخولهم في الأشياء وخروجها عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقد صدق عند ملك مقتدر .

(عبد الحليم محمود : سهل التستري . القاهرة : دار الشعب ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص : ١١٨) .

فالولي من تولى الحق سبحانه وتعالى أمره ، وحفظه من العصيان ، ولم يخله عن نفسه بالخذلان حتى يلفه في الكمال مبلغ الرجال .

.....

== (الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٦٩) .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ١٩٦) .

وقد قيل : الولي هو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان ، ومن يتوالت عليه إحسان الله وأفضاله ، والولي هو العارف بالله وصفاته بحسب مايمكن ، المواظب على الطاعات ، المجتنب المعاصي ، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات .

والجدير بالذكر في هذا المقام أن فكرة الولاية لم تتأكد كنظرية إلا على يد الحكيم الترمذي الذي جعلها محور فلسفته كما تبين ذلك من أسماء كتبه وهي : « علم الأولياء » ، و « سيرة الأولياء » و « ختم الأولياء » . حيث أدى به هذا الاهتمام بالولاية إلى أن جاء تصوفه مرتكزا على نظرية متكاملة في الولاية . يمكن إيجازها فيما يلي :

١) الولاية هي القربة من الله سبحانه وتعالى .

٢) الأنبياء والمرسلين يحملون الولاية في باطنهم بكل خصائصها ومؤهلاتها علاوة على ما امتازوا به من الوحي والنبوة والرسالة .

ولهذا فكل نبي ولي ، وليس كل ولي نبي .

(الترمذي : علم الأولياء وآراء الترمذي الصوفية والفلسفية ، تقديم ودراسة وتحقيق سامي نصر لطف . القاهرة : مكتبة الحرية الحديثة ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ٥٠ - ٥٤) .

ولقد ربط الترمذي بين الولاية والمعرفة الصوفية وكأنهما وجهان لحقيقة واحدة هي الطريق الصوفي الحق .

ومن أقوال الخراز في هذا الصدد : الولي الحقيقي هو الذي يسير =

= بين الناس ، ويأكل وينام معهم ، ويشترى ويبيع في الأسواق ، ويتزوج ، ويشترك مع الناس في مجالسهم ولا ينسى الله لحظة واحدة .

(ول ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الأديان ، ترجمة محمد بدران . القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٧٤ م ، الجزء الثاني من المجلد الرابع ، ج ١٣ ، ص : ٢١٧) .

ويرى أئمة الصوفية أن أخص صفات الولي وأبرزها أنه عبد فني في الله لوصوله إلى مقام القرب من الله بفضل قداسته وورعه وفنائه في محبة ربه .

فالولي له علم وتجربة روحية يرقى فيها للوصول إلى الحق بنفسه متصفاً بالأوصاف الإلهية ومتخليقاً بالأخلاق الربانية ، فهو الفاني عن وجوده الباقي بالحق . (القشيري : الرسالة ، ص : ١١٧) .

ويطلق الصوفية اسم « الولي » على الرجل الذي وصل إلى مقام الفناء عن ذاته وإرادته وبقي بالإرادة الإلهية .

ومن هنا فالولاية عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به ، ولانهاية لكمال الولاية ، فمراتب الولاية غير متناهية .

(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ٣١٤) .

ومن ثم نخلص إلى أن الأولياء في فنائهم إنما فنوا في أحوالهم ببقائهم في مشاهدة مالکهم فتوالت عليهم أنوار الولاية ، فلم يكن لهم مع نفوسهم أخباراً ، ولا مع واحد غير الله قراراً ، وهم المتحابون في الله .

ويمكن القول : الولاية هي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه ، وذلك بتولي الحق إياه حتى يبلغه مقام القرب والتمكين . =

-
- = (ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبدالحى : شذرات الذهب . القاهرة : مكتبة القدسى ، سنة ١٣٠٠هـ ، ج ٢ ، ص : ١٩٢) .
- والولى اسم باق لله تعالى ، فهو لعبيده تخلقاً وتحققاً وتعلقاً .
- وكما قلنا : إن الولى اسم من أسماء الله تعالى ، لكنه يطلق على العبد أيضا إذا اكتملت فيه صفات الولاية ووصل إلى مقامها .
- (ابن عربى : فصوص الحکم ، تحقيق وتعليق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبي ، سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، ج ٢ ، ص : ٧٣) .
- وللأولياء علامات يعرفون بها وهى : لطف لسانهم ، وقبول عذر من اعتذر إليهم ، وكمال الشفقة على جميع الخلق برهم وفاجرهم .
- (ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٧٨) .
- يقول الخراز : إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره ، والوصول إلى قربهِ ، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم ، وأجزل نصيبهم من كل كائن . فعيش أبدانهم عيش الجنانين (أهل الجنة) ، وعيش أرواحهم عيش الربانيين .
- ومن روائع البسطامى التى سجلها أنه قال : « إن لله شراباً فى الدنيا ادخره فى مكنون ربوبيته ليسقيه أوليائه فى ميدان محبته على منابر كرامته ، فإذا شربوا طربوا ، فإذا طربوا طاشوا ، فإذا طاشوا عاشوا ، فإذا عاشوا طاروا ، فإذا طاروا وصلوا ، فإذا وصلوا اتصلوا ، فهم فى مقعد صدق عند ملك مقتدر .
- (عبد الرحمن الصفورى : نزهة المجالس ومنتخب التفائس ، ج ١ ، ص : ٨٠) .
- =

.....

= ولما كان الأنبياء يتفاضلون في مقاماتهم ، فكذلك الأولياء يفضل بعضهم بعضا على قدر إرثه من النبي . (ابن الصباغ : درة الأسرار ، ص : ١٣٣) .
وتعد الولاية عند الشاذلية وراثه للأنبياء في علومهم استناداً إلى الحديث الشريف : « العلماء ورثة الأنبياء » .

من هنا قال الشاذلي : لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته ، أو تدبير من تدبيراته ، أو اختيار من اختياراته ، فلو خلى الله تعالى عبده وذلك لم يصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد الله وصول عبده تولى ذلك له بأن يظهر له من صفاته العلية ونعوته القدسية ما يغيب صفات عبده ونعوته عنه .

(ابن عطاء الله السكندري : الحكم بشرح عبد الله الشرقاوي . القاهرة : مطبعة صبيح ، سنة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، ص : ٧٢) .

ويقول الشاذلي في موطن آخر : « ولي يفنى عن كل شيء فلا يشهد مع الله تعالى شيء ، وولي يبقى في كل شيء فيشهد الله تعالى في كل شيء » .
وهذا أتم . (ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، ص : ٨٩ ، ص : ٣١٥) .

فالولي في فنائه ، حسبما يرى الشاذلي لا بد أن يبقى معه لطيفة علمية يترتب عليها التكليف . وتلك اللطيفة هي العقل العارف بأحكام الشريعة ، وعليه يترتب الثواب والعقاب .

ويتابع المرسى أستاذه قائلاً : « لن يصل الولي إلى الله تعالى ، حتى تنقطع عنه شهرة الوصول إلى الله تعالى » .

(عبد الحليم محمود : أبو العباس المرسى . القاهرة : دار الشعب ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص : ٤٧) .
=

.....

= ويفسر ذلك الشعراني فيقول : أى انقطاع أدب لانقطاع ملل لغلبة التفويض على قلبه .

ومن وصايا إبراهيم بن أدهم أنه قال لرجل : أتحب أن تكون وليا لله ؟ فقال : نعم ، فقال : لا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة ، وفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك . فالولى عبد مشغول بالله حتى يتولاه من فضله ولطفه .

فالولى حسبما يرى الجيلانى : يرفع عنه الحجب ويدخل دار الفردانية وينكشف عنه الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة بقى بلا هو فانياً عن نفسه وعن صفاته ، وعن حوله وقوته وحركته ودنياه وأخراه فيصير كإناء مملوء صافيا . يقصد أن يصبح الولى مشتاقا قابلا للكشف .

(الجيلانى ، عبد القادر : الغنية لطالبي طريق الحق . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ، ج ١ ، ص : ١٦١) .

ولما كانت الولاية مرتبطة بفضل الله تعالى وتوفيقه ، فإن الأصل أنها لله ، الذى يوالى أو يولى ، فالولاية لله .

أمّا عن أقسام الولاية قال أحد العارفين : ولاية الرحمة للعوام ، وولاية النصر للخواص ، وولاية المحبة للخواص الخواص ؛ فولاية الرحمة للعوام فى الحياة الدنيا يوفقهم لإقامة الشريعة وفى الآخرة يجازيهم بالجنة ، وبولاية النصر للخواص فى الحياة الدنيا يسلطهم على أعدى عدوهم ، وهو أنفسهم الأمانة بالسوء ، ليجعلوها مزاكاة من أخلاقها الذميمة وأوصافها الدنيئة ، وفى الآخرة يجذبهم : ﴿ ارجعنى إلى ربك راضية مرضية ﴾ « سورة الفجر : الآية : ٢٨ » . =

.....

= وبولاية المحبة لخواص الخواص ، في الحياة الدنيا يفتح عليهم أبواب المشاهدات والمكاشفات ، وفي الآخرة يجعلهم من أهل القربات والمعانيات .

(السيد دحلان : تقريب الأصول ، ص : ٣٠٦) .

ومن الممكن جمع مختلف طوائف الواصلين من الصوفية في مرتبتين شاملتين هما : « الولاية والقضية » .

والولاية تنقسم إلى ولاية صغرى وبنالها أصحاب الترقى .

والأخرى : ولاية كبرى وبنالها أصحاب الجذب .

وكلنا الولايتين هما مقام الإحسان .

والولاية إما تتم في الدرجة الثالثة للسيار : الدرجة الأولى : التلوين ، والدرجة الثانية التمكين ، والدرجة الثالثة : التكوين .

أو نقول : الدرجة الأولى : العلم ، ثم الحالة ، ثم الفناء عن الحالة في المحول .

أو نقول الدرجة الأولى : مشاهدة الصور ، ثم مشاهدة المعاني ، ثم الفناء عن المعاني في معنى المعاني .

أو نقول : التجريد ، ثم التفريد ، ثم التوحيد .

أو نقول : علم اليقين ، ثم حق اليقين ، ثم عين اليقين .

فعلم اليقين : مكتسب ، وحق اليقين : حالة ، وعين اليقين : فناء .

أو نقول : العبادة ، ثم العبودية ، ثم العبودة .

أو نقول : طلب العبد ، ثم قبول الحق للعبد ، ثم الفناء في الحق . =

.....

- أونقول : كما قال الحلّاج : قطع العلائق ، ثم الاتصاف بالحقائق ، ثم الفناء عن الحقائق في حق الحقائق .

أونقول : التعبد ، ثم العبودية ، ثم الحرية .

أونقول : التذكر ، ثم الذكر ، ثم الاستغراق في المذكور .

أونقول : عبارة ، ثم إشارة ، ثم غيب .

أونقول : حضور ، ثم غيبة ، ثم إحضار .

أونقول : شهود ، ثم غيبة ، ثم إشهاد .

أونقول : التخلي ، ثم التجلي ، ثم التولي .

ويتفاوت الأولياء في درجاتهم تبعاً لمقدرتهم في الاستمداد من المعارف الربانية فأهل الولاية العامة هم الذين سكروا من رؤية الكأس ، وتبعتهم الطائفة الثانية الذين رشقوا رشفة أو رشفتين ، أما الكمل من أولياء الله تعالى فإنهم فتح الله لهم باب الفهم عنه ، والعلم به ، والأخذ منه ، فتمكنوا من خزائن العلوم ، وكشف لهم عن حقيقة كل ناطق وموهوم فصاروا يأخذون عن الله ويفهمون عن الله بالله .

(محمد وفا الشاذلي : نفائس العرفان من أنفاس الرحمن . القاهرة : مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١٩٣ ، تصوف طلعت ، رقم (ب) ، ص : ٢) .

وعلى هذا النحو فكلما منح الولي القدرة على النهل من العلم الإلهي كلما قرب من الله وأخذ من معين القرب .

ولما كانت الولاية هي هبة ربانية اختص بها الحق سبحانه وتعالى بعض عباده ، فيسر لهم السبيل إليها ، لذلك نرى ابن عجيبة يقسم الخلق =

كما سيتضح لكل ناظر في هذه الرسالة إن شاء الله تعالى .

= إلى قسمين بشأنها وهما :

(١) قسم اختصه الله تعالى بمحبته ، وجعلهم من أهل ولايته ، لذلك فتح لهم الباب إلى ما قدره لهم ، وكشف لهم الحجاب فأشهدهم أسرار ذاته ، ولم يحجبهم عنه بأسرار قدرته ، وهؤلاء هم أهل الولاية والعرفان الذين يصلون إلى الشهود والعيان .

(٢) أما القسم الآخر من الخلق فقد أقامهم الحق تعالى لخدمته ، وجعلهم من أهل حكمته حيث أسدل عليهم حجاب الوهم ، وغيب عنهم نور العلم والفهم ، ومن ثم فقد وقفوا مع ظواهر القشور ، ولم يشهدوا بواطن النور ، رغم شدة ظهوره لاعتمادهم على الدليل والبرهان .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٢٧) .

وتبعا لهذين القسمين من الخلق نرى ابن عجيبة يميز بين نوعين من الولاية هما :

١- الولاية غير الدائمة : وهي التي تأتي من جهة الفرق وتتعلق بالأمر الدنيوية .

٢- الولاية الدائمة : وهي التي تأتي من جهة الجمع ، وهي العز والغنى بالله ، ومعرفة تعالى ، والغيبة عن سواه .

ولاشك أن هذه الولاية لا تنقطع ، فهي شرف لا ينفذ ، وعز لا يبسد ، وهي ما يجب أن يسعى الإنسان من أجله .

ولابد لكي ينال السالك تلك الولاية الدائمة أن يكون قد انصف ببعض السمات التي تؤهلها لها ومنها :

١- تمام التوكل على الله ، وإسقاط التدبير معه تعالى بعدم التعلق =

فصار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر (*)

بجماعة أو أذن له أن يلقي الناس أولم يأذن له .

= بحفظ النفس لأن من أوصاف الولي الكامل أن لا يكون محتاجا إلا على الحال الذي يقيمه الحق تعالى فيه في الوقت ، بمعنى أن لا يكون له مراد إلا ما يبرز عن عنصر القدرة الإلهية ولا تشتهي نفسه غير ذلك .

٢- أن تكون الحقوق والحفظ كلها عنده سواء ، لأنه بالله فيما يأخذ ويترك وهو في ذلك مختلف عن الذي يعمل لله رجاء الثواب ، فالعمل بالله صاحبه داخل الحجاب في مشاهدة الأجباب ، أما العمل لله فإنه يحب الثواب من وراء الباب .

ويدلل ابن عجيبة على ذلك بقول الشاذلي :

« إذا أكرم الله عبدا في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه وجعله يتقلب في عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة ، مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها ، وإذا أهان الله عبدا في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه وستر عنه عبوديته ، فهو يتقلب في شهواته ، وعبوديته لله عنه بمعزل .

وهكذا فإنه يجب على الإنسان أن يعمل تحققا بعبوديته لا يطلب حظاً لنفسه أو مشوبة ، بل تأدية لما خلقه الله ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ « سورة الصافات : الآية ٥٦ » .

(*) الذكر : هو العمدة في الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .

(عبد الحليم محمود : فاذكروني أذكركم : القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ ، ص ٦١) .

فما من وقت إلا والعبد مطالب فيه بالذكر إما وجوباً وإما ندباً =

.....

= بخلاف غيره من الطاعات . (الرندي ، ابن عباد النفري : غيث المواهب
العلية في شرح الحكم العطائية ، ج ١ ، ص : ١٥٧) .

وهنا يقول ابن عباس / : إن هذه الكلمة القرآنية لها وجهين :

أحدهما : أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه .

والآخر : أن ذكر الله تعالى أعظم من كل شيء سواه .

والواقع أن الإنسان إذا تدبر في الآيات القرآنية الواردة في الذكر فإنه
يجدها تستغرق الأوقات والحالات . فأيما كان الإنسان وكيفما كان
فالواجب عليه دائما أن يكون ذاكرة لله سبحانه وتعالى .

فالذكر يطمئن القلب ، ويرفع الغفلة ، ويذهب الرين ، ويدعو للاستغفار
عن ماضي الذنوب وينهي عن الفحشاء والمنكر .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ أَغْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ « سورة الكهف : الآية : ٢٨ » .

والفرق بين الغفلة والنسيان أن الغفلة ترك باختيار العاقل ، والنسيان ترك
بغير اختياره . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾
« سورة الأعراف : الآية : ٢٠٥ » .

وتأكيداً لصحة ما نقول يذهب الكلاباذي في « التعرف » متحدثاً عن
حقيقة الذكر فيقول : « هو نسيان كل شيء ، وذكر شيء واحد هو الله »
وهذا يتم على مرحلتين :

الأولى : نسيان ما سوى الله .

=

.....

= **الثانية :** التخلص من هذا النسيان .

ويستدل على ذلك بالآية الكريمة : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ « سورة الكهف : الآية ٢٤ » حيث أنها تدل على أنك إذا نسيت كل ما سوى الله فقد ذكرته تعالى . وبذلك فالذكر عنده طرد الغفلة . فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر لله تعالى وإن سكت .

ولعل هذا القول السابق للكلا باذي يتفق مع ما قرره أبو عبد الله الأنصاري فلقد فسر الآية القرآنية : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ . أي إذا نسيت غيره ، ثم نسيت ذكرك في ذكره ، ثم نسيت في ذكر الخلق إياك كل ذكر . فلو اشتغل الذاكر بذكر الله على الدوام . وفنى عن غيره على التمام لانصقلت مرآة قلبه ، فالقلوب تصدأ كما يصدأ الحديد ، ولا يجليها إلا ذكر الله ، وإذا ما انجلت القلوب وصقلت تجلت فيها حقائق الأشياء سواء الماضية منها أو الآتية ، وهذا الذاكر الذي يفيد في صفاء القلوب لا بد أن يكون ذاكراً واحداً بقلب واحد وهم واحد وإلا فلن يجد شيئاً .

(عبد الباري داود : السياحة في الإسلام ، ص : ٣٩)

ولقد سئل ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين لله كثيراً ، فقال : إذا واطب العبد على الذكر المأثور صباحاً ومساءً ، في الأوقات المختلفة ، فهو من الذاكرين الله كثيراً .

(محمود على قراعة : الفرار إلى الله ، القاهرة : دار مصر للطباعة ، سنة ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ص : ١٩٢ .

وقد قيل : استراح مع الله ، ولا تسترح عن الله ، فإن من استراح مع الله نجا ، ومن استراح عن الله هلك . والاستراحة مع الله تروح القلوب بذكره ، =

.....

= والاستراحة عن الله مداومة الغفلة . (أبو نعيم : الحلية ، ح ١ ، ص : ٣٦)
وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أى الأعمال أفضل ؟ قال : أن
تموت يوم أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى .
(رواه الطبراني من حديث معاذ بن جبل)

فإذا أراد الله تعالى أن يوالى عبداً من عباده فتح له باب الذكر ، فإذا استلذ
بالذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ، ثم أجلسه
على كرسى التوحيد ، ثم رفع عنه الحجاب وأدخله دار الفردانية ، وكشف
له عن الجلال والعظمة ، فإذا نظر الجلال والعظمة بقى بلاهو ، فيصير فانياً
بارئاً عن دعاوى نفسه محفوظاً بالله .

(عبد الرحمن الصفوري : نزهة المجالس ، ص : ١٥٠)

فكل من فنى فى ذكر الله فإن روحه شهدت جمال الحضرة ، أو تفكرت فى
جمال المذكور وبهائه ، أوفى حسن ثوابه وجزائه .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٤٣)

وقد قيل : من قام بحقيقة الذكر والحمد والشكر سخر له الأكوان . ومن
لازم لذكر الله قطعه عن كل شىء سواه .

فالذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع
الحق .

فالمتكلم ذاكر ، والمتفكر فى عظمة الله وجلاله وجبروته وآياته وسمواته
ذاكر ، والممثل مأمراً الله به والمنتهى عما نهى الله عنه ذاكر ، والذكر قد
يكون باللسان وقد يكون بالجنان ، وقد يكون بأعضاء الإنسان ، وقد يكون
بالإعلان والاجهار والجامع لذلك كله ذاكر كامل .
=

.....

= ويحدثنا ابن عطاء الله من ساحة ذوقه فيقول : « اعلم أن كل ذكر شعر به قلبك تسمعه الحافظة فإن شعورهم يقارن شعورك وفيه سر حتى إذا غاب ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية يغييب ذكرك عن شعور الحافظة » . (ابن عطاء الله السكندري : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ، ص : ٧ - ٨)

وكان الشاذلي يقول : اقرع باب الذكر باللجأ والافتقار إلى الله بملازمة الصمت عن الأمثال والأجناس ، ومراعاة السر عن محادثة النفس في جميع الأنفاس إن أردت الغنى .

(ابن عباد الشافعي : المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ، ص : ٧٥)

كما قال : هن ثلاث : فرغ لسانك للذكر ، وقلبك للتفكير ، وبدنك لمتابعة الأمر وأنت إذا من الصالحين .

وقد قيل : من اختلى اجتلى . والمعنى أنه خلا بذكر الله وانقطع عن الناس فإذا فعل ذلك انجلت مرآة قلبه .

وكان الفضيل بن عياض يقول : إن لله عبادة إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم في بطونهم ، ثم تندمل ، ثم تنقطع ، ثم تندمل أبداً ما عاشوا .

ويقول الكتاني : « الغافلون يعيشون في حلم الله ، والذاكرون يعيشون في رحمة الله ، والعافون يعيشون في لطف الله ، والصادقون يعيشون في قرب الله » .

فذكر الله إذ يتقل المؤمن من عالم ما قبله إلى عالم ما بعده .. من عالم حلم الله عنك ، إلى عالم رحمته ولطفه ، وحيه وقربه .. من عالم الغفلة إلى عالم الذكر ، فالمعرفة ، فالصدق .

(خالد محمد خالد : الله والموعود ، ص : ١٩١) .

أوسمع في خلوته (*) هاتفاً من جنى أو شيطان يظن أنه ولي
لله عزوجل فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم
فتارة يجلس في بلده ، وتارة يطوف البلاد ويكلف العباد في هذه
الأيام الكدرة النكدة على الخاص .

(*) **الخلوة** : المقصود بالخلوة مكان يعتكف فيه الولي . فالخلوة أعلى
المقامات وهو المنزل الذي يعمره الإنسان ويملؤه بذاته فلا يسعه معه
غيره .. أصل الخلوة من العالم الخلاء الذي ملأه العالم .. فأول ما يكشف
لصاحب الخلوة آيات العالم قبل آيات نفسه .

وتعتبر الخلوة من المستلزمات الروحية التي يؤديها المريد في الطريق إلى الله
والتي يهتم بها مشايخ الطرق لتربية النفوس وتركيز قلوب مريديهم .
ويعتقد العلماء أن الخلوة هي تدعيم للتوبة وتثبيت للإخلاص . وسير في
طريق الله عزوجل . وهي أفضل لحظات يقضيها الإنسان وربّه وهي عزلة
عن الناس وقربة إلى الله ، وفيها يستغفر الإنسان من ذنبه ، وينظر إلى نفسه
فيصلح عيوبها ، ويداوى ما اعوج من أمرها . ويتوب عما اقترف من
ذنوب وآثام .

وقد قيل في فائدة الخلوة في الحصول على العلوم الإلهية : « فإن المتأهب
إذا لزم الخلوة والذكر وفرغ المحل من الفكر وقعد فقيراً لاشيء له عند
باب ربه حيثئذ يمن الله تعالى عليه من العلم والأسرار الإلهية والمعارف
الربانية .

والمقصود بالخلوة ليس المكان وإنما حالة فيض النور الإلهي على الشخص
. ثم إنه لما انطبع بالنور كان في خلوة بربه وبقي في تلك الخلوة إلى الأبد
فالمعارف إذا ما ذكرناه عرف أنه في خلوة بربه لا بنفسه .

.....

= وقد اختار يوسف عليه السلام السجن ، لأن فيه لذة الخلوة مع الله تعالى ،
وحلاوة المشاهدة والمناجاة .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن الخلوة مع الله تعالى تكون في حالة الظهور
مع الخلق ومعاملتهم .

ونسترشد هنا برأى الجنيد البغدادي إذ يقول : « لى ثلاثون سنة أخاطب
الله والناس يرون أنني أخاطبهم » .

(المحاسبى : المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ، تحقيق مصطفى عبد
القادر عطا . القاهرة : دار التراث الإسلامى ، سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ،
هامش ص : ٨٧) .

وفى عبارة أخرى لما قيل له : بم نلت مانلت ؟ فقال : بجلوسى تحت تلك
الدرجة ثلاثين سنة وأوماً إلى درجة فى بيته .

ويلزم الخلوة الصمت والجوع والسهر ، بذلك فهى تشتمل أيضاً على
العزلة التى نبه عليها ابن عطاء الله بقوله : « ما نفع القلب مثل عزلة يدخل
بها ميدان الفكرة » . فالعزلة تحفظ الإنسان من المعاصى الناتجة عن اختلاطه
بالناس ، والتعرض للخصومات والفتن وما ينكبون عليه من الشواغل
الدنيوية ، من هنا ينبغى أن نفرق بين العزلة والخلوة ، فالعزلة تختلف عن
الخلوة فى كونها انقطاع معنوى لا حقيقى عن الخلق . فالمعتزل يساكن
الناس ويعاملهم بشرط أن يحفظ قلبه من النظر إليهم والإقبال عليهم ، فلا
يجعل قلبه ولا أذنه وعاء لما يأتون به من فضول الكلام ، بل يحتفظ بقلبه
وجوارحه .

(ابن عطاء الله : مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح . القاهرة : دار إحياء
الكتب العربية ، بدون تاريخ ، ص : ٥٢) .

.....

= أما الخلوة فتكون بالبعد عن الخلق فى مكان مخصوص لذلك ، وغايتها
محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره ، وذلك بالانقطاع عما هو غير الله
وتفريغ القلب مما سواه حتى لا يبقى به ربانية لغيره .
ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقصد الخلوة فى بداية أمره .
وقد قيل فى الخلوة : إنها رياض المحبين ، وبستان العارفين المتفكرين ،
وربيع سوائم الذاكرين .
كما قيل : من غلب عليه الأنس لم يكن همه إلا الانفراد والخلوة .
وقال الشاعر :

ألا خلوة أشكو إليك صباة • لها بين لحمى والعظام ديب

وتتضمن الخلوة الصمت إلا عن ذكر المحبوب ، والإعراض عن غير
المحبوب ، وكفى بها مزية على غيرها ، ولذلك ما كانت إلا أم الرياضة ،
إذا زوجت بالذكر ، ولدت حسن المشاهدة .

ومما رواه عيسى عليه السلام أنه قال : « يا معشر الحواريين كلموا الله
عز وجل كثيراً ، وكلموا الناس قليلاً . قالوا : كيف نكلم الله كثيراً ؟ قال :
ادخلوا بمناجاته ، ادخلوا بدعائه .

(ابن رجب الحنبلى : جامع العلوم والحكم ، تحقيق محمد الأحمدي
أبو النور : القاهرة : دار الكتاب الجديد ، سنة ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م .
ج ١ ، ص : ٨٣)

وقد قيل : الخلوة أصل ، والخلطة عارض ، فليلزم الأصل ولا يخالط
العارض إلا بقدر الحاجة وإذا خالط يلزم الصمت فإنه أصل .

(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ضمن رسائل الإمام =

.....

الغزالي . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، مكتبة الجندى ، سنة
١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص : ٢٤)

كما قيل : الخلوة يكون العبد فيها مستغرقا بكلية مع الحق تعالى ، معكوفاً
قلبه عليه ، مشغوفاً به ، والهأ إليه ، متحققاً كأنه بين يديه .

وقيل : الخلوة هي محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره . هذا عن
حقيقة الخلوة ومعناها . وأما صورتها فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من
التبتل إلى الله تعالى والانقطاع عن الغير .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٧٥)

ويضع ابن عطاء الله السكندري بعض الشروط التي ينبغي على المريد
مراعاتها في خلوته حتى تظهر فيه أنوار المنة الإلهية ، ومن أهم تلك
الشروط :

أولاً : أن يتطهر ولا يعلم بخلوته أحد من الناس .

ثانياً : أن يتحمل قسماً من الجوع بلا إفراط فيه ، ولا يشبع عند الأكل .

ثالثاً : أن يداوم على السهر ولا ينام إلا عن غلبة .

رابعاً : أن يحفظ ذهنه من التفكير في مراكب الكون .

ويعد هذا من أهم الشروط في الخلوة لأنه يجعل المريد يكف عن جميع
الأفكار المتعلقة بالعالم الخارجي أيا كان نوعها ، ويستبقى فكرة واحدة
فقط ، هي الفناء في الله مما يحقق الجمع عليه تعالى .

هكذا يصبح التفرغ للخلوة والأساس منها هو الذكر . وهذا مانراه عند
الشاذلية في كون الخلوة هي التفرغ للذكر عندهم .

ولقد أورد ابن عجيبة للخلوة عشرة فوائد نجملها كالآتي :

=

.....

= **أولاً :** السلامة من آفات اللسان ، فإن كل من كان وحده لا يجد من يتكلم معه .

ثانياً : حفظ البصر والسلامة من آفات النظر ، وبذلك يمنع المرید نفسه من التطلع أو الاستشراف إلى ما ينكب عليه الناس من أمور الدنيا .

ثالثاً : حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض ، ويلاحظ أن تلك الفائدة من أهم الفوائد التي نبه عليها معظم العلماء والحكماء .

رابعاً : حصول الزهد في الدنيا والقناعة فيها ، وفي ذلك شرف للعبد وكماله ، وسبب لمحبه عند الحق تعالى لتعلقه به سبحانه ، وهذا ناتج عن المبدأ الأساسي الذي اعتمده الشاذلية للمجاهدة وهو : « الجمع على الله » . الذي يعنى التقرب إلى الله بطاعته وعدم معصيته .

خامساً : السلامة من صحبة الأشرار ومخالطة الأراذل .

سادساً : التفرغ للعبادة والذكر ، والعزم على التقوى ، ويعد هذا من أهم الشروط التي يجب أن يراعيها السالك في خلوته .

سابعاً : يجد السالك في خلوته حلاوة الطاعات والتمكن من لذيق المناجاة . فالتخلي لن يجد أمامه حسياً وقلبياً سوى الحق تعالى ، وبذلك تساعد الخلوة على طاعته لربه .

ثامناً : راحة القلب والبدن مما يحدث من جراء مخالطة الناس ، وما يؤدي بالقلب إلى التعب من الاهتمام بأمور الناس . والبدن أيضاً إلى الاجتهاد من السعي في أغراضهم ، وبذلك يستطيع السالك تكريس كل وقته ومجهوده في سبيل الحصول على مراده .

= **قاسعا** : صيانة النفس والبدن من التعرض للشرور والخصومات التي
توجبها الخلطة .

عاشرا : التمكن من العبادة والتفكر والاعتبار لعدم وجود ما يشغل
المختلي عن ذلك .

وهكذا نرى كيف اعتنى ابن عجيبة بإيضاح أمر العزلة والخلوة بالنسبة
للسالك طريق الحق . فالخلوة إنما تعنى أن يختلي المريد نفسه منفردا في
مكان خاص ، فلا يختلط بالناس ولا يعاملهم حتى يتفرغ تماما للعبادة
والذكر من أجل الطاعة الخالصة لله سبحانه وتعالى . بينما العزلة لا تقتضي
الانفراد بل يختلط السالك الناس ويعاملهم ، ولكنه في هذه الحالة يعاملهم
بصورته الجسمية ، أما قلبه وباطنه فإنه يكون تعلقاً بالحق تعالى فلا يلتفت
إلى ما سواه .

وهذا هو المقصود من دخول المريد الخلوة أول عهده بالطريق ، حتى يتدرب
على العزلة ، فإذا ما تحقق بذلك ، وأصبحت العزلة طبعاً راسخاً في قلبه ،
اختلط بالمجتمع والناس : لا ضير عليه في ذلك ، لأن شواغلهم لن تجد لها
باباً إلى قلبه المتعلق بالله .

فالخلوة من الأغيار ، والعزلة من النفس وماتدعو إليه وتشغل عن الله .

وما أجمل ولا أروع ما قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : أفضل
المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى ، كما قال ابن المبارك : ما
أحسن حال من انقطع إلى الله تعالى .

وقيل للفضيل : إن عليا ابنك يقول : لوددت أني في مكان أرى الناس
ولا يرونى . فبكى الفضيل وقال يا ويح عليّ أفلا أتمها فقال : لا أراهم
ولا يرونى .

وهو مع هذا يدعى أنه قائم فى الخلق مكان نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وكفى بذلك كفرا وجهلا وسوء أدب (*) .

= فإذا اعتزلت الناس فاحذر من قصدهم إليك وإقبالهم عليك . فإنه من اعتزل عن الناس ، لم يفتح بابه ، لقصد الناس إليه ، فإن المراد من العزلة ترك الناس ومعاشرتهم . وليس المراد من ترك الناس ترك صورهم . وإنما المراد أن لا يكون قلبك ولا أذنك وعاء لما يأتون به من فضول الكلام .

(نور الدين على بن محمد القارى : المعدن العدننى فى فضل أويس القرنى ، دراسة وتحقيق وتخريج إبراهيم بن عبد الله الحازمى (بيروت : دار الفكر المعاصر ، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص : ١٤٧) .

(*) **الأدب** : الأدب عبارة عن معرفة أشياء يتجنب بواسطتها كل أنواع الخطايا . ويقصد به أحيانا أدب الشريعة ، وأحيانا أدب الخدمة ، وتارة أدب الحق .

ويقصد من أدب الشريعة الوقوف عند رسوم الشرع ، وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها أو أن تعرف مالك وماله منك . أى تكون عالما بحقوق وحقوقه .

وقد قيل : جمال الأدب بالخدمة . كما قيل : من تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبساط الكرامة ، وبآداب الأولياء لبساط القرية ، وبآداب الصديقين لبساط المشاهدة ، وبآداب الأنبياء لبساط الأنس والانبساط .

فمن لم يعرف الله عز وجل لم يقبل عليه ، ومن لم يتأدب بأمره ونهيه كان الأدب عنه فى عزلة .

فالأدب المقصود هنا ليس فقط الأدب الظاهرى ، لأن الأدب الظاهرى =

.....

= ربما يكون رياءً ونفاقاً ، أو مجاملة واسترضاءً ، أو استعطافاً بشكل أو بآخر ، لكن الأدب المقصود هنا هو الأدب الباطني ، يرجى منه كنس القلب من جميع الآفات ، إذ أن الشيء المؤلم حقاً هو ما يحوم حول القلب من علامات الاعتراض ، وذلك بما يحوى القلب من شهوات ورغبات وآفات ، ولكن عندما ظهر على الشعور فإنها تظهر عند كثير من الناس في شكل سلوك طيب وحسنات وإحسان ومكارم أخلاق ، وذلك بعكس ما في الباطن من آلام وضيق وانحرافات وشرور .

فالذي يؤلم من الظاهر هو فقدان الأدب في أشكال وصور ، ولا عبرة بالشكل والصورة ما دام القلب سليماً وليس معارضا لأداب الله .

فالمریض الحقيقي عند أصحاب الشرع هو مریض القلب الذي تطفی علیه شهوة الغضب والأنانية وحب الذات وطلب الشهوات ، كما أن الصحيح حقاً هو ظاهر القلب . فالصحة في التخلية من أمراض الشره والحسد والكراهية والبغضاء والتعالي والاستعلاء والتكبر وغير ذلك من الآفات ، وعلى ذلك فإن أهل الصدق هم أصحاب القلوب وأطهار النفوس ، تدور حياتهم على سلامة أحوالهم في باطنهم وظاهرهم ، فلا يدخل في قلوبهم غل ولا حقد ولا حسد ، بل إن كل همهم الحب والود والقرب والطهارة والرحمة والتسامح والتأخي ، وذلك في سبيل الله وبالله وإلى الله ومن الله ولقد نصح الإمام مالك لله الشافعي بقوله : « يا محمد اجعل علمك ملحاً وأدبك دقيقاً .

(الشعراني : الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية . القاهرة : دار جوامع الكلم ، بدون تاريخ ، ص ٤٥) =

= وقد قيل : الأدب ثلاثة : أدب الشريعة وهو التعلق بأحكام العلم بصحة عزم الخدمة .

والثاني : أدب الخدمة وهو التشمير عن العلاقات والتجرد عن الملاحظات .
والثالث : أدب الحق وهو موافقة الحق بالمعرفة .

وقد قيل : آداب الحضرة ثلاثة : دوام النظر ، وإلقاء السمع ، والتوطين لما يرد من الحكم .

ويقول الشاذلي : أربعة آداب إذا خلى الفقير المتجرد منها فاجعله والتراب سواء . الرحمة للأصاغر ، والحرمة للأكابر ، والإنصاف من النفس ، وترك الانتصاف لها .

وأربعة آداب أخرى إذا خلى الفقير منها فلا تعبأن به وإن كان أحدهم أعلم البرية : مجانبية الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوى الفاقة ، ومواظبة الخمس في الجماعة .

(ابن عباد الشافعي : المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ، ص : ٧٩) .

وينبغي أن نوضح في هذا الصدد أن الأدب مرتبط بالنفس ، وعليه يمكن القول إن الذي يتأدب هو نفس الإنسان .

ومن تمام حسن الأدب ترك التعريض للصاحب بما يكره عند المخاطبة ومقابلته بما يستثقل عند الكتابة وإن كان حقاً وقصداً وصدقاً ، فإن ذلك أبقى للوداد وأدعى لمداومة الاصطحاب والاعتقاد ، وربما أحدث التعريض في النفس تأثيراً لا يعفو أثره ، وأوردت تغييراً لا يصفو كدره .

(ابن عبد الله الباهلي الأشبيلي : الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص : ١٦٤) .

=

وأين المقام من المقام (*) ؟

= وقد قيل : الأدب صورة العقل ، فحسن صورة عقلك كيف شئت .
وقال ابن المقفع : كما أن الأدب لا يكمل إلا بالعقل ، فكذلك لا يكمل
العقل إلا بالأدب .
وقال حكيم : احرص على أن لا يكون أدبك أغزر من عقلك ، فإن من زاد
أدبه على عقله كان كالراعى الضعيف فى الغنم الكثيرة .
وقال عبد الملك بن مروان : لاعب ولدك سبعا ، وأدبه سبعا ، واستصحبه
سبعا ، فإن أفلح فألق حبله على غاربه .
وقد قيل : أربعة يسود بها المرء : الأدب ، والعلم ، والعفة ، والأمانة .
وكان السرى السقطى يقول : أقوى القوة أن تغلب نفسك ، ومن عجز عن
أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز .
كما قال : من علامة الاستدراج للعبد عماه عن عييه وإطلاعه على عيوب
الناس .

(*) **المقام** : هو الذى يقوم به العبد فى الأوقات من أنواع المعاملات وصنوف
المجاهدات ، التى أقيم العبد بشيء منها على التمام والكمال فهو مقامه ،
حتى ينتقل منه إلى غيره .
وقد قيل : المقام هو ثبات الطالب على أداء حقوق المطلوب بشدة الاجتهاد
وصحة النية .

ويذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب المقامات فى كتابه العزيز بمعانٍ متفرقة
منها قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ
مَّقَامًا ﴾ « سورة مريم : الآية : ٧٣ »

.....

- وقوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾

« سورة الإسراء : الآية ٧٩ »

ويقول الله عن نفسه : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

« سورة إبراهيم : الآية ١٤ »

ويطلق المقام اصطلاحاً على ما يتحقق به العبد من الآداب .

هذا عن المعنى اللغوي والاصطلاحي للمقام .

وهنا ينبغي أن ننبه أن المقام مسمى مقاماً إلا لإقامة صاحبه فيه .

أما عند السالكين فالمقام هو الوصف الذي يثبت على العبد ويقيم فيه ،
فإن لم يثبت سمي حالاً . وهو مقام العبد بين يدي الله تعالى فيما يقام فيه
من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع لله تعالى .

وقد ورد ذكر المقامات بأنها المنازل الروحية التي يمر بها السالك إلى الله تعالى .

وهذه المنازل لا بد لها من جهاد وتزكية . ولذلك يقولون عنها : إنها
مكتسبة أي أنها اجتهاد في الطاعة ، ومواصلة في التسامي في تحقيق
العبودية لله سبحانه !

(الغزالي : المتقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود ، ص : ٤٨)

فالمقامات هي التي يتدرج فيها الصوفي في معراجة إلى الله ، يتدرج فيها
من مقام إلى مقام حتى يصل من التوبة الصادقة إلى القرب من الله تعالى .

(عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٣٧)

وعلى ذلك لا يصح الانتقال من مقام إلى مقام حتى يتحقق السالك تماماً بما
قبله من مقامات . (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ١٠١) . =

.....

= وقال آخرون : « لا يكمل المقام الذى فيه السالك إلا بعد ترقيه إلى مقام فوقه ، ينظر من مقامه العالى إلى مادونه من المقامات فيحكم أمر مقامه .

(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ٩٩)

ويجدر بنا أن نوضح أن لكل حال علماً وذوقاً ، ولكل مقام منهجاً

وقد قيل : إن المقامات هى المراحل فى الطريق إلى الله تعالى وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب مقدرته وعزيمته وقوة صبره فى الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية فى تحديد المقامات والأحوال على حسب أذواقهم ومشاربهم ، فإذا كانت الأحوال تأتى من عين الجود فإن المقامات تحصل ببذل المجهود . وصاحب المقام يمكن فى حاله ، وصاحب الحال مترق عن حاله .

كما قيل : إذا كمل العبد فى معانيه فقد تمكن من المكان وعبر المقامات والأحوال ، فيكون صاحب مكان . فالمكان هو الأصل للكمال والتمكين والنهاية .

والمقام عند الصوفية هو درجة أو رتبة يكون فيها العبد بين يدى الله عز وجل بشأن ما يقوم فى داخله هو من رياضة ومجاهدة وعبادة وانقطاع إلى الله عز وجل . أما الحال فهو ما يحل فى القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير .

وفى هذا الصدد يقول ابن خلدون : « ولا يزال المريد يترقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التى هى الغاية المطلوبة للسعادة . =

.....

= (أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية ، ص : ٢٠٢ - ٢٠٣)

كذلك ينبغي أن نوضح أنه جميع مقامات القوم التي أولها التوبة ، وآخرها نهاية المعرفة بالله تعالى . هذا بالنسبة للعبد ومعرفته ، وإلا فلا نهاية لمعرفة الله من حيث هو سبحانه ، فنهاية معرفة كل إنسان هي منتهى سيره ، وكل سائر ينتهي به السير إلى حيث قسم به ، ولم يصل السائرون جميعا ولن يصلوا إلى معرفة الذات . وعلى هذا إجماع العارفين والمتقين .

(الشعراني : أسرار أركان الإسلام ، تحقيق عبد القادر عطا ، (القاهرة : دار التراث العربي ، سنة ١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠) هامش ص : ١٠٢)

وعلى ذلك فقد أجمع الصوفية على الربط بين الأعمال والأحوال والمقامات في نظام دائم ومتصل لا ارتباط المقامات وترتيبها على بعضها البعض .

والمعروف في المصطلح الصوفي أن الحال والمقام مظهران للشعور الصوفي يتغير معه من حال عارضة إلى مقام ثابت .

(عبد القادر محمود : دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية والعلمية ، ص : ٣٣٩)

ولعل أوضح تعريف للمقام والحال والفرق بينهما ما أورده الهجویری بقوله :

« إن الحال معنى يرد من الحق إلى القلب دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه لكسبه حين يرد ، أو جذبه بالتكلف حين يذهب ، والمقام عبارة عن طريق الطالب وضعه في محل الاجتهاد ، وتكون درجته بمقدار اكتسابه في حضرة الحق تعالى . »

.....

= ولقد روى عن عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه أقوال لها دلالة صوفية ،
منها : قوله :

« وجدت الخير مجموعاً فى أربعة : أولها : التَّحِبُّ إلى الله تعالى .
والثاني : الصبر على أحكام الله تعالى . والثالث : الرضا بقضاء الله
عز وجل . والرابع : الحياء من الله عز وجل

(أبو الوفا التفتازانى : محاضرات فى التصوف الإسلامى ص : ٣٥) .

فكأنه يتحدث هنا عن مقامات أربعة من مقامات أهل السلوك وهى :
المحبة ، و الصبر ، والرضا ، والحياء من الله تعالى .

والحكاية المنقولة عن سيدنا على رضى الله تعالى عنه أنه قال : « سلونى عن
طرق السموات فىأنى أعرف بها من طرق الأرض » .

ولعل هذا القول للإمام على رضى الله تعالى عنه أشار فيه إلى الأحوال والمقامات .
ويشهد لهذا أيضاً ما روى عن الإمام على رضى الله تعالى عنه عندما سأله
رجل عن معنى الإيمان ؟ فقال له : الإيمان على أربع دعائم : الصبر ،
واليقين ، والعدل ، والجهد . ثم شرع يتحدث عن كل مقام من هذه
المقامات .

وهنا يعلق الطوسى قائلاً : « إذا صح ذلك فهو أول من تكلم فى الأحوال
والمقامات » . (الطوسى : اللمع ، ص : ٣٦) .

ويحدثنا الجنيد البغدادي عن بعض المقامات على التعيين ، كمقام
« المنقطعين » ، وعلامتهم قطع العلائق ، و « المتصلين » وعلامتهم وصل
الحقائق ، و « المستخلصين » وعلامتهم الحب والإحاطة بالكلاءة
والرعاية ، و « الصديقين » الذين يليهم الأنبياء ارتفاعاً ، و « المصطفين »
وعلامتهم البقاء بعد الفناء ، وهو المقام الذى ذكر فيه الطوسى الاختلاف
: هل هو خاص بالأنبياء أم هو أيضاً للأولياء .

=

.....

= (محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ١٧)

وكذلك السراج الطوسي يجعلها سبعة مقامات ، وعشرة أحوال .

أما القشيري صاحب : « الرسالة » فإنه يتكلم عن أعداد كبيرة من المقامات والأحوال .

ونجد السهروردي يلخص المقامات في ثلاث هي : التوبة ، والزهد ، والعبودية . وأهم الأحوال عنده هو حال المحبة .

ولقد بين الغزالي أن للتصوف مقامات تسمى أحوالاً ، ويضبطها قانون ، وهو القول أنها مؤلفة من علم وعمل . فالعلم هو المبدأ الذي يولد في الحال ، وثمره العلم بالعمل . مثال ذلك : أن العلم في مقام الشكر ومعرفة النعمة والمنعم .

أما الحال فهو الفرغ الحاصل بإنعامه ، وأما العمل فهو القيام بما هو مقصود المنعم محبوبه . (جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية ، ص : ٣٨٦)

ويقول ابن عجيبة : لكل مقام علم وحال وعمل . فأول المقام علم وهو عبارة عن الوارد الإلهي الحائز على سلوك الطريق ، ثم العمل وهو ما يقوم به السالك من رياضة ومجاهدة ، ثم تأتي الأحوال التي تعدده لنوال المقام ، ويستمر السالك في التدرج في طريق هذا الإطار الثلاثي حتى يصل إلى مقام المعرفة لينعم باليقين والمشاهدة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٣١٩)

ولعل من ذلك يتضح مدى عمق ابن عجيبة في إثبات كيفية ارتباط المقامات والأحوال والأعمال ، فلكل مقام - حسبما يرى - علم وحال وعمل . وهذا هو نفس المعنى الذي ذهب إليه الغزالي في ضوء ما تقدم .

ومما يروى عن ابن عجيبة أيضا : الأعمال حركة الجسم بالمشاهدة ،

.....

= والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة .

فمقام الزهد مثلاً : فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ثم يكون مكابدة بالصبر على العمل حتى يصير حالاً ، ثم يسكن القلب ويدوق حلاوته فيصير مقاماً .

فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب : يعنى أن الأحوال مواهب من الله تعالى جزاءً لثواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً ، فالأحوال تتحول فتذهب ونجىء ، فإذا سكن القلب فى ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل . (المصدر السابق ، ص : ٩٩-١٠٠)

ونوجه الانتباه هنا إلى أن ترتيب المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه ويتنقل إلى الثانى . كما نزال السير الحسى . هذا محال .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ج ١ ، ص : ١٠٣)

و بوضح هذا قول ابن قيم الجوزية : (ألا ترى أن « البقظة » مع السالك فى كل مقام لاتفارقه وكذلك « البصيرة » و « الإرادة » ، و « العزم ») . وكذلك التوبة لكونها أول المقامات فهى آخرها أيضاً .

بل هى فى كل مقام مستصحبة . ولهذا جعلها الله تعالى آخر المقامات ، كما لا يمكن أن يقال : يوجد مقام أعلى من مقام إلا للمقام نفسه ، فوصول الإنسان إلى مقام ، ثم ترقيه إلى مقام آخر . أصبح الإنسان فى ترقى بين المقامات (هذا بالنسبة للفرد الواحد فى ترقيه بين المقامات) .

أما الشيخ زروق فقد جعل الأعمال والأحوال والمقامات يقرب بعضها على بعض ، فالأعمال عبارة عن الحركات الجسمانية ، والأحوال عبارة عن الحركات القلبية ، أما المقامات فهى عبارة عما ينزل إلى القلب من =

وأين الملائكة (*) من الشياطين ؟

= المعارف ونحوها ، ولذلك فمن كانت معرفته أتم كان حاله أحكم ، ومن كان حاله أحكم كان عمله أكمل . (عبد الفتاح بركة : الحكيم الترمذى ونظريته في الولاية ، ج ١ ، ص : ٢٥٤)

ومن هنا قال ابن عطاء الله : حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال .

ولقد حدد الشعراني في : « اليواقيت والجواهر » : عدداً من المقامات التي يجب على السالك اجتيازها حتى يصل إلى مقام المنفردين بـ ٢٤٩٩٩٩ درجة ووحدة ، وعلى المريد الصادق أن يجتازها جميعاً بالمجاهدة ، والصبر ، والطاعة ، والإخلاص لله تعالى ، وهذه المقامات لا يحصل عليها إلا بالمنة الإلهية والهبة الربانية ، فليس من المحتتم مهما اجتهد السالك أن يظفر بها وقل من يصل إليها .

(حسن الشراقوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٣٤)

ويترتب على ذلك في ضوء ما أسلفنا أن ترتيب المقامات لا يشكل اختلافاً في الفكر والسلوك داخل المدرسة الصوفية الواحدة ، وذلك لأن المقامات . كما سبق القول - إنما تتوالى على السالك وفق ما وهبه الله من استعداد ، ووفق ما يمن به الله تعالى على عبده ، ولذلك تختلف المقامات من سالك إلى آخر داخل المدرسة الواحدة ، بالرغم من وحدة الأفكار والأساليب التي تقوم عليها التربية داخل المدرسة الواحدة . فالسالك يتقدم في مقامات خلال طريق يهدف في نهايته إلى الفناء في الحق ثم البقاء به ، وبذلك يتحقق بالتوحيد المطلق بالوصول إلى عين اليقين .

(*) **الملائكة** : الملائكة جمع ملاك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً ، وهو مشتق من كلمة =

.....

= الألوكة التي هي الرسالة . والجمع ملائك وملائكة ، والملا الأعلى ، أو الملائكة عالم لطيف غيبي غير محسوس ، ليس لهم وجود جسماني يدرك بالحواس ، وهم من عوالم ما وراء الطبيعة ، أو غير المنظورة التي لا يعلم حقيقتها إلا الله . وهم مطهرون من الشهوات الجنسية والحيوانية ، ومبرءون من الميول النفسية ومنزهون عن الآثام والخطايا ... والملائكة ليسوا كالبشر يأكلون ، ويشربون ، وينامون ، ويتصفون بشيء مما يتصف به البشر من الحالات المادية ، ولهم قدرة على أن يتمثلوا بصورة البشر ، وغيرها من الصور الحسية .

والملائكة خلقهم الله من نور كما خلق آدم من طين، وكما خلق الجان من نار. ودليل ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة * أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . وخلقهم متقدم على خلق البشر .

والملائكة يتفاضلون في القرب من الله سبحانه وتعالى وعلو المنزلة كالبشر أو أكبر تفاضلاً فإن منهم الملائكة المقربين لقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

« سورة النساء : الآية : ١٧٢ » .

ومنهم حملة العرش لقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ . « سورة الحاقة : الآية ١٧ » .

= ومنهم غير ذلك وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، =

= وعزرائيل ملك الموت .

والملائكة يتفاوتون في الخلق ، كما يتفاوتون في الأقدار تفاوتاً لا يعلمه إلا الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مِّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١ » .

أى أن الله سبحانه وتعالى جعل للملائكة أجنحة فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من يزيد على ذلك ، وهذا مظهر التفاوت في الأقدار عند الله والقدرة على الانتقال .

وروى مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح .

وكثرة الأجنحة دليل القدرة على السرعة في تنفيذ أوامر الله وتبليغ الرسالة .

قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ « سورة الصافات : الآيات ١٦٤ - ١٦٦ »

قال ابن كثير وما من ملك إلا له موضوع مخصوص في السموات

ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداه .

وقال ابن عساكر في ترجمته لمحب بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه وكان ممن بايع يوم الفتح ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً لجلسائه : « أطئت السماء وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راکعاً أو ساجداً ثم قرأ :

.....

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا

لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ « سورة الصافات : الآية ١٦٤ : ١٦٦ » .

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله تعالى والخضوع لجبروته والقيام بأوامره ،
وهم يتصرفون فى شئون العالم بإرادة الله ومشيتته ، وهو سبحانه يدبر
بهم ملكه . وهم لا يقدمون على شىء من تلقاء أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

« سورة النحل : الآية ٥٠ » .

والملائكة عالم غيبى مخلوقين من نور عابدين لله سبحانه وتعالى ، وليس
لهم من خصائص الربوبية والألوهية شىء ، ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

« سورة الأنبياء : الآيتان ١٩ - ٢٠ »

والملائكة خلق عظيم وعددهم كثير لا يأتى عليه العد ولا يحصى من دون
الله تعالى أحد .

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله تعالى عنه فى قصة
المعراج أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم رفع له البيت المعمور فى السماء
يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخرما عليهم .

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض ، الذى دل الدليل
العقلى ، والشرعى على وجودهم ، وعلى وجوب الإيمان بهم ،
والتصديق بأعمالهم ، وأحوالهم .

ولم يأت فى النصوص أسماء من أسماء الملائكة إلا القليل كجبريل ،
وميكائيل ، وإسرافيل ، ومالك ، وعزرائيل ، ورضوان .

.....

= وللملائكة أعمال : عمل في عالم الأرواح ، وعمل في عالم الطبيعة ، ولهم صلة خاصة بالإنسان .

عملهم الروحي :

١- التسبيح والخضوع التام لله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ .
« سورة الأعراف : الآية ٢٠٦ » .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ . « سورة الزمر : الآية ٧٥ » .

٢- حمل العرش : قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ « سورة غافر : الآية ٧ » .
وقال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ .
« سورة الحاقة : الآية ١٧ » .

٣- التسليم على أهل الجنة : قال تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾

« سورة الرعد : الآيتان : ٢٣ - ٢٤ » .

٤- تعذيب أهل النار : قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ « سورة التحريم : الآية : ٦ » =

.....

= وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحٍ
لِّبَشَرٍ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا
مَلَائِكَةً ﴾ . « سورة المدثر : الآيات : ٢٧ - ٣١ » .

٥ - النزول بالوحى . ملك الوحى هو جبريل عليه السلام .

علمهم فى الطبيعة ومع الإنسان :

وللملائكة أعمال فى تدبير أمور الكون : منها إرسال الرياح والهواء ،
ومنها سوق السحب وإنزال المطر ، ومنها إنبات النبات ، ونحو ذلك من
الأعمال الخفية على الأنظار التى لاتقع تحت الحواس .

- تنشيط القوى الروحية الكائنة فى الإنسان بإلهام الحق والخير :

عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى عليه وآله وسلم قال :
إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب
بالحق وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد من ذلك شيئاً
فليعلم أنه من الله وليحمد الله . ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان . ثم
قرأ : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً
مِّنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٦٨ » .

٦ - دعاء الملائكة للمؤمنين : قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ

الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا
وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . « سورة غافر : الآية : ٧ » . =

.....

٧. **تأمينهم مع المصلين** : والملائكة تؤمن مع المصلين ، فمن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا قال الإمام : غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . فقولوا : آمين فإن الملائكة يقولون : آمين . وإن الإمام يقول : آمين . فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه . (رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائي) .

٨. **حضورهم صلاة الفجر والعصر من كل يوم** : روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « فضل صلاة الجماعة على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ . » سورة الإسراء : الآية ٧٨ .

٩. **نزولهم عند قراءة القرآن** : والدليل على ذلك قصة أسيد بن حضير كما رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما .

١٠. **حضورهم مجالس الذكر** : وهم يلتمسون حلقات الذكر لإمدادهم بالقوى الروحية .

١١. **صلاتهم على المؤمنين وخاصة أهل العلم منهم** : قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ . « سورة الأحزاب : الآية ٤٣ » .

وعن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير » .

(رواه الترمذي وقال حديث حسن) .

١٧. موكلون بقبض الأرواح : قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية ٦١ » .

.....

= وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَقَّأَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾

« سورة السجدة : الآية ١١ » .

١٧. التبشير بالجنة : قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ « سورة فصلت : الآية ٣٠ » .
وبعض صفات الملائكة :

١- **حياء الملائكة** : إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة . » يعنى بذلك الرجل عثمان بن عفان لله ، ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة .

٢- **تأذيبهم** : إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم : « من أكل من الثوم ، والبصل ، والكرات فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » .

٣- **تنزيههم عن الأغراض البشرية** : إن الملائكة منزهون عن الأغراض البشرية كالجوع والمرض ، والأكل ، والنوم ، والتعب ، وما إلى ذلك ، فقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام إذ أخبر تعالى عنهم : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

« سورة الأنبياء : الآية ٢٠ » .

٤- **خوفهم من الرب تبارك وتعالى** : إن الملائكة يخافون من الله تعالى أخبر بذلك القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٤٩) يخافون ربهم

ولو كان من يدعى المشيخة من هؤلاء المدعين يزن الخراج
خمسة أضعافه ويتكلف مثل ذلك على الكشاف والقصاد ومشايخ
العرب وقطاع الطريق . ثم بعد ذلك هاف قمحه وزرعه ولم يجد
شيئاً يأكله هو وعياله .

(ولما لم يجد ملجأ يلتجئ إليه) ^(١) سكت ولم يتكلم . ولم
يصر ^(٢) له قلب يتكلم لا بحقيقة ولا بشريعة ^(*) لكنه غره تهيئة

مَنْ فَوْقَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿ ٥٠ - ٤٩ : سورة النحل : ٥٠ .
قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ
مُشْفِقُونَ ﴾ « سورة الأنبياء : الآية ٢٨ .

- ٥ - حبهم من يحب ربهم : وهذا ما أوضحناه فيما تقدم .
- ٦ - طاعتهم لله سبحانه وتعالى : إن الملائكة يطيعون الله تعالى ، لا يعصون
الله بحال من الأحوال ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ « سورة التحريم : الآية ٦ .
- ٧ - دعاؤهم ولعنهم أعداء الله : إن الملائكة يدعون ربهم ويسألونه . وإنهم
ليلعنون من لعنه الله .
- ٨ - عظم خلقهم وتفاوتهم : إن خلق الملائكة لعظيم ، وهم يتفاوتون
فيه تفاوتاً كبيراً . ولقد أوضحنا ذلك بالشرح والتحليل فيما تقدم .

(١) زيادة أضفناها ليستقيم المعنى .

(٢) في الأصل : بصير .

(*) الشريعة : الشريعة في اللغة شريعة الله لعباده من الدين .

الناس له ما يأكل وما يشرب هو وجماعته على السالم من غير

= وهذا المعنى وارد في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ﴾ « سورة الجاثية : الآية : ١٨ » .

أما الحقيقة فمن الحق ، والحق ضد الباطل ، والحق واحد غير متعدد . وقد ورد لفظ الحق في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ١٢١ » .

كما ورد لفظ الحق والباطل في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٤٢ » .

ولاشك أن الشريعة الإسلامية بجوانبها المختلفة وأبعادها المتكاملة هي بمثابة الرسم النهائي الواضح لكل فروع التشريع من فقه وأحكام ومعاملات ، وعلى المسلم أن يحقق ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، وبطبقه دون نقصان أو زيادة .

كما على المسلم أن يحاول أن يفهم الباعث والقصد والغاية من التشريع الإلهي ويقتضي هذا الأمر الدراسة والبحث والتمحيص حتى يقوى علمه ، وبالتالي يطبق ما تعلم ، وهنا يزداد إيماننا ورشدنا .

(حسن محمد الشرقاوي : الشريعة والحقيقة ، ص : ٧) .

فالشريعة بهذا المعنى هي الخريطة والدليل . وإذا ما سار المسلم سالكاً ومطيقاً ما جاءت به من تعاليم ، فإنه قد اهتدى إلى الغاية من الشريعة الإسلامية ، وذلك يعين المرء على أن يلهم بالمعاني إلهاماً . بل ويفاض عليه من نعم الله ويكشف له ما تعذر عليه فهمه .

فإذا كانت الشريعة هي الرسم والخريطة والدليل فإن الحقيقة بلا شريعة =

.....

= باطلة ، فإذا كان التطبيق واعياً وصادقاً اكتمل إيمان المسلم ، وكلما ازداد وعياً وصدقاً ازداد إيماناً ، حتى يصل إلى درجة يكون فيها السلوك والعمل واحداً ، وتكون شريعته حقيقته ، ويكون ظاهره باطنه ، ويكون قلبه وعقله شيئاً واحداً .

وهنا يصل العالم السالك إلى درجة الحكمة العليا كما قال الإمام الترمذى . أو العرفانية كما يرى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، أو الصديقية كما هى عند الإمام الغزالى ، أو القطبانية كما هى عند الأئمة من الصوفية .

وكلها ترمز لمعنى واحد ، وشىء واحد ، وهى البقاء فى الله ، ومع الله ، والله ، ومن الله .

إذن فالشريعة والحقيقة ليس بينهما انفصال ، وإنما غايتهما الاتصال والتكامل ، هما شكل ومضمون ، ظاهر وباطن ، رسم وتنفيذ ، أرض وبناء ، إسلام واستسلام ، إناء وماء ، جسم وروح ، فإذا ما وصل المسلم بمجاهداته إلى الله تعالى أصبح مؤمناً بإذن الله تعالى .

فالإيمان يسبق الإسلام ، والإسلام يتبعه بالسلوك الأخلاقى إيمان . فإذا تحقق ذلك قيل : إن هذا المسلم من الواصلين أو المؤمنين أو الصالحين . والرابطة للتحام الشريعة بالحقيقة هى النية ، وهى العزم على الفعل ، أو هى معرفة وتحديد العمل المراد القيام به .

فالنية إذن تصور الأفعال وتوجهها إلى معرفة الله عز وجل .

والشريعة تتفق بذلك مع الحقيقة وتؤكددها . فالشريعة معلومة للمسلم فى مظهرها الخارجى ، بمعنى أن العقائد والتكاليف والفرائض الشرعية =

.....

= كالصلاة والزكاة والصوم والحج والتوحيد ، هي معالم الدين الإسلامي ، وهي فروض واجبة التطبيق والتنفيذ ، وهي أركان الدين والعلامات المضيئة للطريق الإسلامي . فإذا تركها المسلم بدون سبب قوى يمنعه من تأديتها ، دل ذلك على أنه لايسير في طريق الدين . إذ أن إغفاله هذه الفرائض بمثابة الحكم عليه أنه لايسير في طريق الدين ويتهم بالخروج عنه . والجدير بالذكر في هذا المقام أن الصوفية يربطون بين الشريعة والحقيقة . وهذا الرباط جد وثيق حتى إنهم يرون أنه لاشرعية بلا حقيقة ، ولاحقيقة بلا شريعة ، وكل من تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ، وكل من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق ، فالشريعة أن تعبد ، والحقيقة أن تشهد .

ويرى ابن عربي أن كل علم يأتي عن طريق الكشف والإلهام فيه حقيقة تخالف شريعة متواترة ، فإن هذا العلم لايعول عليه ، أما إذا وافق شريعته فهو صحيح . فإذا ردت الشريعة فلا يعول عليه .

(ابن عربي : كتاب ما لا يعول عليه ، ضمن رسائل ابن عربي . القاهرة : عالم الفكر ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص : ٢١) .

لذلك يرى أئمة الصوفية أن الشريعة إجمال والحقيقة تفصيل . فالشريعة والحقيقة متلازمتان ، لا توجد إحداهما إلا ومعها الأخرى ، وأن الحقيقة هي الإخبار عن الأمور على ما هي عليه في نفسها ، وذلك هو عين الشريعة المطهرة .

(الشعراني : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تقديم وتحقيق وتعليق عبد الباري محمد داود ، القاهرة : مكتبة أم القري ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص : ٢٠٦)

= فمن نظر إلي كون الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه فهو أعور حسبما =

= يرى الإمام الشمراني وذلك لكون الشريعة هي الأساس . أو إن شئت فقل هي أساس علم الحقيقة التي يترقى السالك منها إلي درج الحقيقة ، فلا يصح طلب الحقيقة من غير معرفة الشريعة ، لأنه لا يدخل إلي الحقيقة إلا من باب الشريعة . ومن ظن أن الحقيقة تخالف الشريعة أو عكسه حسبما تقدم فقد جهل لأنه ليس عند المحققين شريعة تخالف حقيقة أبدا . وكل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة كما مر بنا آنفاً .

(ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، ص : ٧٧) .
قال تعالى : ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٨٩ » .
إذن فلا دخول للحقيقة إلا من باب الشريعة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٢١٢) .
فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة ، ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمع في دخوله . (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ٧٧)
والشريعة خطاب الله سبحانه وتعالى لعباده ، وكلامه الذي أوصله إلي خلقه ، بأمره ونهييه ، ليوضح به الحجة ، ويقيم المحجة . والحقيقة تصريفه في خلقه ، وإرادته ومشئته التي يختص بها من اختاره من أحبائه ، ويبعد بها من أبعد عنه بابه .

وقد جمع الحق تبارك وتعالى بين الشريعة والحقيقة في آيات كثيرة منها :
قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ فهذه شريعة .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾
« سورة التكويد : الآية ٢٩ » . فهذه حقيقة .

.....

= أما الطريقة فهي السلوك العملى والمنهج التربوى عند الصوفية فى سلوكهم وترقيهم من الشريعة إلى الحقيقة .

ويصوغ القنائى تعبيراً هندسياً يوضح فيه العلاقة بين الشريعة والحقيقة فيقول : « الشريعة كالدائرة ، والحقيقة منها بمثابة المركز ، وابن الطريق هو ما يبدأ من أى نقطة على الدائرة حتى يصل فى النهاية إلى المركز ، والمركز بالنسبة لجميع الخطوط واحد .

ما أروعه من تعبير عند القنائى يدل على علو همته ليدعونا إلى الدخول فى ساحة ذوقه وعلمه .

وإذا كانت الشريعة قائمة على العبادة ومراعاة الأوامر والنواهي ، فإن الطريقة قائمة على الحضور مع الله تعالى فى كل الأحوال . وبهذا فأول شىء وجب على الطالب هو الشريعة . والمراد منها أوامر الله ورسوله ، أما الطريقة فهي الأخذ بالتقوى ، وما يقرب المريد إلى الله زُلْفَى من قطع المنازل والمقامات ، وهى تنتهى بالحقيقة التى هى الوصول إلى المتصور ومشاهدة نور التجلى .

(الشافعى ، أحمد بن عياد : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، ص : ١٣٢) .

وعلى ضوء ما تقدم يتبين لنا أن الطريقة هى الحلقة الواصلة بين الشريعة والحقيقة ، فالحقيقة نتيجة للطريقة ، والطريقة نتيجة للشريعة ، ومعنى ذلك أن المريد إذا عمل بالشريعة بما هو أقرب إلى الورع ، فإنه يكون سالك للطريقة ، فإذا انفتحت له الطريقة يتمكن منها ظهرت له حينئذ أسرار الحقيقة .

غرامة فكثير كلامه وصار يقول للناس لا بد لكل إنسان يريد الطريق (*) إلى الله من أستاذ فيأكل من لحمهم وخبزهم بهذه المصيدة الخبيثة .

(*) الطريق أو الطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله سبحانه وتعالى من قطع المنازل والترقى في المقامات .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٧٧) .

وهذا يعنى أن الطريقة هي السلوك بالشرعية إلى الحقيقة .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٤٧) .

وبعبارة أخرى نرّمز للطريق الصوفى بالمثلث الذى يمثل ضلعيه كلاً من الشيخ والمريد ، كما تمثل قاعدته المجاهدة المتبعة فيه . فإن الشرعية والطريقة والحقيقة هي بمثابة الزوايا التى يقوم عليها التناسق والانسجام بين أضلاع المثلث ، لأنه بمقدار الاتساق بين تلك الزوايا يتم التناسق والترابط فى شكل المثلث بأكمله .

وإذا كانت الشرعية قائمة على العبادة ومراعاة الأوامر والنواهي حتى يكون حال المرء قائماً على التسليم المطلق لله وحده فيكون متبعاً لامبتدعاً . فإن الطريقة قائمة على الحضور مع الله تعالى فى كل الأحوال .

وبهذا فإن أول شيء واجب على طالب الشرعية هو الأخذ بها ، والمراد منها أوامر الله ورسوله ، أما الطريقة فهي الأخذ بالتقوى وما يقرب المريد إلى الله زُلْفَى من قطع المنازل والمقامات ، وهى تنتهى بالحقيقة التى هى الوصول إلى المقصود ، ومشاهدة نور التجلى .

(ابن عباد الشافعى : المفاهر العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ١٣٣) . =

.....

= وعلى هذا يتبين أن الطريقة هي الحلقة الواصلة بين الشريعة والحقيقة ،
فالحقيقة نتيجة للطريقة ، والطريقة نتيجة للشريعة ، ومعنى ذلك أن المريد
إذا عمل بالشريعة مما هو أقرب إلى الورع ، فإنه سيكون سالكاً للطريقة ،
فإذا انفتحت له عين الطريقة يتمكن منها ظهرت له أسرار الحقيقة . ويتضح
من ذلك أن قوام الطريقة هو أن يكون المريد مع الله دائماً ذاكراً له تعالى في
كل أوقاته ، متحققاً بأوامره ونواهيه .

من هنا قال الصوفية : لله طرائق بقدر عدد الخلائق .

وقد قيل : الطريق إلى الله تعالى أربعة أشياء ، فمن حازها فهو من
المحققين ، ومن حاز ثلاثاً فهو من الأولياء المقربين ، ومن حاز اثنين
فهو من الشهداء الموقنين ، ومن حاز منها واحدة فهو من عباد الله
الصالحين .

أولها : الذكر ، وبساطه العمل الصالح ، وثمرته النور .

وثانيها : التفكير ، وبساطه الصبر ، وثمرته العلم .

وثالثها : الفقر ، وبساطه الشكر ، وثمرته المزيد منه .

**رابعها : الحب ، وبساطه بغض الدنيا وأهلها ، وثمرته الوصول إلى
المحبوب .**

(عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلي ، ص : ١٢٢ - ١٢٣) .

وفي هذا المقام يبين ابن عربي الدواعي أو البواعث التي تجعل المريد
يتحرك في الطريق كالآتي :

أولاً : الدواعي وهي خمسة ببواعث :

الهاجس النفسي « نقر الخاطر » ، والإرادة ، والعزم ، والهمة ، والنية . = =

.....

ثانيها : البواعث ولها ثلاثة أنواع :

١ - الرغبة : وهي إما رغبة المجاورة في المعاينة ، أو رغبة فيما عنده ، أو رغبة فيه .

٢ - الرهبة : وهي إما رهبة من العذاب ، أو رهبة من الحجاب .

٣ - التعظيم : وهو أفراد الحق عنك أو جمعك به .

ثالثاً : الأخلاق : وقد قسمها إلى ثلاثة أنواع :

١ - خلق متعلد : ويفترض فيه أن تكون العلاقة ذات طرفين ، كعلاقة شخص بشخص آخر ، أو أشخاص آخرين يتعدى إليهم الفعل سواء منفعة أو مضرة ، ولا تقوم به النفس تلقائياً ، بل إنه يستدعى سبباً خارجياً لقيامه .

٢ - خلق غير متعلد : وهو لا يتعلق بغير صاحبه كالتوكل مثلاً ، فهذا الخلق يمكن أن تقوم به النفس دون إثارة أو حاجة من الغير .

٣ - خلق مشترك : وتكون فيه العلاقة مشتركة بين جماعة وجماعة أخرى ، أي يشترك فيها أكثر من شخص سواء لطلب منفعة أو دفع مضرة .

رابعاً : الحقائق : ويقسمها إلى أربعة أنواع :

١ - حقائق ترجع إلى الذات المقدسة .

٢ - حقائق ترجع إلى الصفات المنزهة ومثالها النسب .

٣ - حقائق ترجع إلى الأفعال وهي « كن » وأخوانها .

٤ - حقائق ترجع إلى المفعولات وهي الأكوان والمكونات .

ويجعل نفسه أستاذاً عارفاً (*) بالله تعالى وهو جاهل به .
ومن هو جاهل كيف يدعو الخلق إلى من لا يعرفه كما سيأتي
إيضاحه .

= ويرى الإمام أبو العزائم أنه لا بد للمريد قبل الدخول في الطريق من أن
يتأدب بآداب الشريعة العامة ، ويتلقى العقيدة الحقة من أهلها ، ويتعلم
أحكام العبادة والمعاملة .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : دستور آداب السلوك ، ص : ١٠) .

ولقد قيل : أصول الطريق هو إقبالك على الحق وإدبارك عن الخلق .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٦٩) .

كما قيل : أول الطريق التوبة وآخره اتباع أحسن ما أنزل الله .

(عبد الحليم محمود : القرآن والنبي . القاهرة : دار المعارف ، سنة
١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ص : ١٦١) .

فالطريق إلى الله هى آثاره التى تدل عليه ، وهو طريق وحيد ، والعقل
والفكر والعلم شروط أساسية لسالك هذا الطريق .

(*) **المعرفة** : المعرفة فى اللغة إنما تعنى : العلم . أى معرفة المعلوم على ما هو
عليه ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم . وكل عالم بالله عارف ، وكل
عارف بالله عالم .

وقد قيل : كمال المعرفة أن تعرف من أنت فلا تتعدى قدرك .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : شراب الأرواح ، ص ١٧) .

ولقد كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولخواص الصحابة
والتابعين علوم إلهية قدسية ومعارف ربانية وحكم أشرقت على قلوبهم =

.....

= من متابعة النور المحمدي ، والعقيدة المحمدية ، والروح المحمدي ، وما تحويه من علوم ومعارف قلبية باطنية كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لا يبدى بها إلا لأهلها أو شرعية ظاهرة وهي لعموم المسلمين . ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

ومن ماثور حكمه : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » .
ومن أقوال جعفر الصادق : لا معرفة إلا بعمل . فمن عرف دلتته المعرفة على العمل . ومن لم يعمل فلا معرفة له .

وقال الإمام الكاظم : « إن الله تعالى أكمل للناس الحجة بالعقول . وقد جعل العقل دليلاً على معرفته .

وقال معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه : « تعلموا العلم فإن تعلم العلم خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربه . وهو الأنيس في الوحدة ، والصاحب في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقرين عند الرفقاء ، ومنار سبل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة هداة ، لأن العلم حياة القلوب ، ونور الأبصار ، وقوة الأبدان ، يبلغ به العبد منازل الأبرار ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء » .

وقوله تعالى : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ

رَبِّنَا ﴾ « سورة آل عمران : الآية : ٧ » .

ويرى الشيخ محيي الدين بن عربي أن العلم بالله أعظم من المعرفة بالله ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

.....

وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿

﴾ سورة آل عمران : الآية : ١٨ .

بينما يرى الإمام القشيري أن المعرفة تتعدى بنفس لفظها ، بخلاف العلم .
وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

﴾ سورة الزمر : الآية : ٦٧ ، سورة الأنعام : الآية : ٩١ .

أى ما عرفوه حق معرفته .

لذلك نقول : « إن كل من لا يعرف الله فى الدنيا لا يراه فى الآخرة ، وكل
من لا يجد لذة المعرفة فى الدنيا لا يجد لذة النظر فى الآخرة ... ولا يحصد
أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، إن نعيم الجنة بقدر
حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادة هى المعرفة
التي عبر عنها الشارع بالإيمان » .

(محمود بن الشريف : الحب فى القرآن ، ص : ٢٧) .

وهنا ينبغى أن نوضح نصيب الإنسان من المعرفة ، يحصل الإنسان من
اللذة المعنوية بمعرفة العلوم والحقائق التي بموجبها يترقى إلى لذائد المعرفة
بربه ما لا يشاركه فى ذلك غيره وبالقدر الذى شاء الله تعالى له . فترسخ فيه
محبة ربه ذوقاً وتحقيقاً حتى يصل إلى مقامات القرب فى الحياة الدنيا وعند
لقاء مولاه .

(الجبلى ، عبد الكريم : الكهف والرقيم فى شرح بسم الله الرحمن
الرحيم ، ص : ٣٥) .

والمحبة ثمرة المعرفة . من هنا قال الحسن البصرى : « من عرف الله أحبه ، =

.....

= ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ،
ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه «

(محمود بن الشريف : الحب في القرآن ، ص : ٢٧)

ولما سئل الثوري عن أول فرض فرضه الله سبحانه وتعالى على عباده ؟
فأجاب : المعرفة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ « سورة الذاريات : الآية : ٥٦ » .

كما سئل أيضا : بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بالله . قيل : فما بال العقل ؟
قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله . ثم قال : « لما خلق الله العقل
قال له : من أنا ، فسكت ، فكملة بنور الوجدانية ، فقال : أنت الله ، فلم
يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله .

ولقد سئل الثوري : بم عرفت ربك ؟ فأجاب : بفسخ العزم ، ونقض
الهمة . يبين الثوري في هذا النص حقيقة هامة وهي أن الإنسان لا يقوم
وحده دون مهيمن ومسيطر ، بل متحكم . ولو قام وحده لسار في طريق
دون فسخ للعزم ، أو نقض للهمة ، ولكنه يشاهد طيلة حياته ، أنه يعزم
أحيانا فيفسخ عزمه فتنتقض همته ، لا بسبب منه ، وإنما السبب من مدبر
قهار ، لا يعلو على سلطانه سلطان ، ولا يسمو على تدبيره تدبير ، هو الله
سبحانه وتعالى .

(عبد الحليم محمود : سفيان الثوري . القاهرة : دار المعارف ، سنة
١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص : ٤٣) .

هذا النص السابق يكشف لنا جانباً هاماً من جوانب شخصية الثوري عندما
حدثنا بمنطق العقل الذي يتشابه مع منطق النقل في هذا التحليل =

.....

= السابق وبهذا الميزان الشرعى نستطيع أن نحكم بأن الثورى قدم جواباً
للسائل لا يستطيع بعده أن يقدم سؤالاً آخر . وهذا يدل على علو هممة
الثورى فى استخدامه المنهج العقلى القرآنى .

ومما يحكى أن رجلاً قال لبعض العارفين : كيف الطريق إلى الله ؟ فقال :
لو عرفتَه عرفت الطريق إليه ، فقال : أترانى أعبد من لأعرفه ، فقال
المسئول : أو تعصى من تعرفه .

وقيل لبعض العارفين : ما علامة أنك تعرفه ؟ فقال : لا أهم بمخالفته إلا
نادانى من قلبى منادٍ أستحى منه .

وقيل لآخر : متى عرفته ؟ فقال : ما عصيته منذ عرفته .

(القشيري : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ١٠٢) .

لذلك ننبه فى هذا الصدد أنه لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل
حكماً واحداً من شرائع الأنبياء ، فمن ادعى المعرفة واستشكل حكماً
واحداً فى الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب .

(عبد الحفيظ فرغلى على القرنى : ابن عربى ، ص : ١٣٠ - ١٣١) .

وقد قيل : بمقدار ما يعرف العبد من ربه يكون إنكاره لنفسه .

وننبه هنا إلى أن ذا النون المصرى هو الذى خطا بالمعرفة خطوة هامة عندما
فرق بين معرفة العالم بالله ، وبين العلم بالله عن طريق العقل والبرهان ،
فقرن المعرفة الأولى بالمحبة . وفى هذا يقول : « إن المعرفة الحقيقية بالله
ليست العلم بوحدانيته التى يؤمن بها المؤمنون جميعاً ، كما أنها ليست من
علوم البرهان والنظر التى هى من علوم الحكماء والمتكلمين والبلغاء ،
ولكنها معرفة صفات الوحدانية التى هى لأولياء الله خاصة ، لأنهم هم =

.....

= الذين يشاهدون الله بقلوبهم ، فيكشف لهم ما لا يكشفه لغيرهم من عباده .
ولقد أضاف فقال : المعرفة الحقيقية بالله تعالى هي أن ينير الله قلبك بنور
المعرفة الخالص . كالشمس لا ترى إلا بنورها . ولذا كانت حيرة العبد في
الله على قدر معرفته به .

ويحدثنا الخلاج من ساحة ذوقه فيقول : « من عرفه ما وصفه ، ومن وصفه
ما عرفه ، عنت الوجوه لعظمته وكبريائه في أرضه وسمائه ، وأنست
قلوب أوليائه بشهود جلاله وجماله وبهائه ، وكلت الألسن عن شكر آلائه
وأفضاله ونعمائه ، وقصرت المعارف عن ذاته وصفاته وأسمائه ، وحارت
العقول في نزوله وارتفاعه واستوائه !!! » .

(طه عبد الباقي سرور : الخلاج ، ص : ٧٥)

هكذا تأتي المعرفة إلى القلب ، وهي تأتي من وجهين : من عين الجود ،
ومن بذل المجهود .

وقال أحد الحكماء : العارفون يعرفون بالأبصار ما تعرفه الناس بالبصائر ،
ويعرفون بالبصائر ما لا يدركه أحد غيرهم ، ومع ذلك فهم لا يأمنون على
نفوسهم من نفوسهم .

(الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص : ١٤٣) .

وقيل للإمام علي رضي الله تعالى عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : بما عرفني
به نفسه ، لاتشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب
في بعده ، بعيد في قربه ، أمام كل شيء ولا يقال شيء أمامه ، داخل في
الأشياء لا كشيء ، ولا من شيء ، ولا في شيء ، ولا بشيء ، سبحانه من
هو هكذا ولا هكذا غيره .

= (الطوسي : اللمع ، ص : ١٧٩) .

.....

= فالقصد هنا هو معرفة المعتقد الإسلامى . والمعرفة الإلهية فى الفكر الإسلامى غير المقيد بالقوالب الفقهية ، والمقدمات الإستدلالية الكلامية .

ومانسب للإمام على إنما هو تصوير للوحدانية المطلقة ، كما هو تصوير دقيق للذات المحيطة بكل شىء ، دون اتصال بشىء .

وإنه - كما قال الإمام جعفر الصادق - من زعم أن الله فى شىء ، أو من شىء ، أو على شىء ، فقد أشرك ، إذلو كان على شىء لكان محمولاً ، ولوكان فى شىء لكان محصوراً ، ولوكان من شىء لكان محدثاً .

ومع هذا فهو عالم بكل شىء ، لأن المعرفة جوهره ، وهو التقدير لأن القوة جوهره ، وهو المحب لأن الحب جوهره أيضاً . ليس لأن هذه الصفات تبتعد عن جوهره . إن شروط الزمان والمكان لا تنطبق كلية عليه .

وهو نفس ماذهب إليه المعتزلة من أن الله « عليم بذاته » ، و« قادر بذاته » و« حى بذاته » ، دون تباين بين الذات والصفات ، فلايعنى وجود معرفة وقوة وحياة فيه أنها جزء من جوهره ، وإلا فإن حساب هذه الصفات صفات خالدة ومنفصلة ، يمكن الجنوح بها إلى تعدد ذاتية الخالق سبحانه وتعالى .

(كامل سعفران : سبحان الله ، ص : ٥٧ - ٥٨) .

ومما قاله البسطامى : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله .

هكذا ينبغى أن يتفطن أصحاب العقول إلى أن المعرفة لا تنال بالنظر الفكرى ، ولا بضرورات العقول ، فلم يبق إلا أن يكون حصولها عن نجل إلهى فى حضرة غيبية بمظهر من المظاهر .

فكل دليل تستدل به على معرفة الله تعالى أنت أظهر منه ، لأن كل ما كان -

.....

= له باب مفتوح في صدره - كما يقول جلال الدين الرومي - يرى في كل ذرة شمساً .

فليس العلم بكثرة الرواية - كما يقول الإمام مالك - إنما هو نور يضعه الله تعالى في القلب .

وقد قيل : « إن اللسان مرآة القلب ، والقلب مرآة الروح ، والروح مرآة الحقيقة الإنسانية ، والحقيقة الإنسانية مرآة الحق سبحانه وتعالى ، والحقائق الغيبية تصل إلى اللسان من غيب الذات بقطع هذه المسافة البعيدة » .

وعلى هذا يمكن تفسير قول الصديق رضى الله تعالى عنه : « سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » .

فالمعرفة اللاتقة به سبحانه وتعالى رهن بقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ « سورة الأنعام : الآية ١٠٣ »

فمادامت الأبصار لا تدركه ، ومادام « لطيفاً » فكل المحاولات لن تصل إلى الحقيقة الكاملة ، وإن حققت برد اليقين .

هذا هو مقام المعرفة بالله تعالى لا يصل أحد فيه إلى حد يعرف الله تعالى كما يعرف نفسه لأن الحق يستأثر عن عباده بعلم آخر لا يدوقه ملك مقرب ولا نبي مرسل . إذ لو علم العبد ربه كما يعلم تعالى نفسه لساوى ربه في العلم به ولا قائل بذلك فلا بد من الجهل به تعالى ولو بوجه من الوجوه .

قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

« سورة البقرة : الآية ٢٥٥ » .

= ولم يبلغنا حصول هذا المقام لأحد . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

.....

= ومن هنا قال العارفون : سبحانه من كان عين العلم به عين الجهل به ،
وعين الجهل به عين العلم به ، وسبحان من لا يعرف إلا بأنه لا يعرف . أى
أنه يعرف المعرفة الممكنة للخلق فقط دون المعرفة غير الممكنة .

(الشعراني : كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان ، ص : ٣٣) .
ولقد نهانا الله عن التفكير فى ذاته بقوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾
* سورة آل عمران : الآية : ٢٨ .

أى لا تتفكروا فيها فإن العقول ليست لها فى معرفة كنه ذات الله قدم .
من هنا ذهب أهل الحق إلى أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله وشرعه
لأبالعقل فقد أسكنتهم خشية الله وعجزت عن التعريف بذاته ألسنتهم .
(السيد المنوفى : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ١٩) .

وسئل الإمام على رضى الله تعالى عنه : فقيل يأمر المؤمنين أتعبد من ترى أو
من لا ترى ؟ فقال : لا ، بل أعبد من أرى لأروية العيان ولكن رؤية القلب .
كما قيل للإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : هل رأيت الله عز وجل
؟ فقال : لم أكن لأعبد رباً لم أره . قيل : وكيف رأيت وهو الذى لا تدركه
الأبصار ؟ قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق
الإيمان . لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس .

وسئل بعض العارفين عن حقيقة المعرفة ؟ فقال : تخلية السر عن كل إرادة
وترك ما عليه العادة ، وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة ، وترك
الالتفات منه إلى ما سواه ، ولا يمكن معرفة كنه ذاته ولا معرفة كنه
صفاته عز وجل ، ولا يعرف من هو إلا هو تبارك وتعالى والمجد لله
= وحده .

.....

= كما قال ذو النون : حقيقة المعرفة اطلاع الحق على الأسرار بمواصلة لطائف الأنوار .

وسئل بعض العارفين أيضا : متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة ؟
فقال : إذا لم يجد في قلبه مكاناً لغير ربه .

وقال بعضهم : حقيقة المعرفة مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة .
(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٤٤ - ٤٥) .

فإن قيل : فما نهاية معرفة العارفين بالله تعالى ؟

فالجواب : نهاية معرفتهم هو أن ينكشف لهم استحالة معرفة حقيقة ذات الله تعالى لغير الله تعالى . وإنما اتساع معرفة العارفين بالله تعالى إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته ، فيقدر ما ينكشف لهم من معلوماته وعجائب مقدوراته وبدائع آياته في الدنيا والآخرة يكون تفاوتهم في معرفته سبحانه وتعالى .

(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، مصدر سابق ، ص : ٧٤) .

هذه هي المعرفة اليقينية بالله تعالى هي معرفة صفاته تعالى المشتقة من اسمه ، وذلك كما يستدل بالكتابة على وجود الكاتب رغم أنه لم ير الكاتب نفسه ، ولا يعرف شخصه ، فالعارف مهما بلغ من اتساع المعرفة ومهما تقدم في طريق الكشف والمعاينة لن ينكشف له إلا صفات الله وأفعاله ، وليس ماهيته أو جوهره .

والمعرفة التي تتم في حال الفناء عند العارفين إنما هي إدراك مباشر يتميز بالصدق والوضوح وتنأى عن كل ماهو مادي ، أو ما يتعلق بموضوعات عالم الحس ، كما أن الخواص العادية لا تلعب أى دور مهما كان صغيراً =

.....

= فى إدراك موضوعات هذا النوع من المعارف السامية . ولاتأتى هذه المعرفة ولا يتم هذا الكشف إلا عندما يغيب السالك عن أمور الدنيا ويضعف العالم المحيط بأهميته بالنسبة له حال فنائه بحيث يبدو الطريق ممهداً إلى ما يبدو حكمة أسمى وعلماً لدنياً يأتى من الخالق هبة ومنحة وليس كسباً للسالك بأى معنى .

فهناك إذن صلة وثيقة بين المعرفة والفناء حيث يزيل الفناء الستار الموجود على النفس فتظهر الأشياء على حقيقتها .

(محمد مصطفى حلمي : ابن الفارض والحب الإلهي . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص : ٢٤٥) .

ونبه هنا إلى أن الفناء يكون فناء فى العرفان لا فى الأعيان .

(عبد البارى محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ، ص : ١٧٦) .

والعارفون بالله ، فهم يتحركون بحركة الله ، وينطقون عن الله بما يجرى على ألسنتهم ، وينظرون بنور الله فى أبصارهم .

ويقول القشيري فى هذا المعنى : أفناه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ، ثم فناؤه عن صفات الخلق بشهود الحق ، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه فى وجود الحق .

(القشيري : الرسالة ، ص : ٣٧) .

فالمعرفة رؤية لاعلم ، وعين لاخبر ، ومشاهدة لاوصف ، وكشف لاحجاب .

(ابن عطاء الله السكندري : الله . القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد ، ص : ٨٦ - طبعة دار جوامع الكلم) .

= والعارفون بالله تعالى - حسبما يرى ذو النون المصري - فانون عن أنفسهم
لاقوام لهم بذواتهم ، وإنما قوامهم من حيث ذواتهم بالله .

ويتضح من هذا القول أن العارفين بالله لا يتحركون ، ولا يسكنون ،
ولا ينطقون ، ولا يصرون إلا عن الله ، وبالله ، ومع الله . لأن قمة المعرفة
عندهم التوحيد والعرفان .

فإن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبت فشاهدوه في كل شيء ،
وشاهدوا كل الكائنات به ، فكانت مشاهدتهم له به ولهم به ، فكانوا
غائبين حاضرين ، وحاضرين غائبين ، على انفراد الحق بالغيبة والحضور ،
فشاهدوه ظاهراً وباطناً ، وباطناً وظاهراً ، وآخرأً وأولاً .

وقد قال بعض العارفين : « أبى المحققون أن يشهدوا غير الله لما حققهم به
من شهود القيومية وإحاطة الديمومية » .

ويؤيد ذلك قول الخراز لأصحاب الفراسة من العارفين : « للعارفين قرائن
أودعوها علوماً غريبة ، وأنباء عجيبة ، يتكلمون بها بلسان الأحدية ،
ويخبرون عنها بعبارة الأزلية .

ويقول ابن عطاء الله السكندري : « من عرف الحق شهدته في كل شيء ،
ومن فنى به غاب عن كل شيء ، ومن أحبه لم يؤثر عليه شيئاً » .

وتحليل هذا النص يوضح : من عرف الحق : أى من تحقق في مقام المعرفة
بالله تعالى . وفي قوله : شهدته في كل شيء : أى رآه ظاهراً في أعيان
الموجودات ، فلا يستوحش من شيء ، يأنس به في كل شيء ، لأن العارف
إذا كان في مقام البقاء يرى الخلق ، ويرى الحق ظاهراً في كل الأشياء ،
وقائماً بها ، مع عدم غيبته عن نفسه وحسه .

=

.....

= وفى قوله : ومن فنى به : أى من تحقق فى مقام الفناء ، غاب عن كل شىء ، فلا يرى فى الوجود ظاهراً إلا الله تعالى ، ويغيب عن كل شىء سواه جلّ وعلا ، حتى عن نفسه وحسه ، فلا يشاهد لنفسه وجوداً أو تحقّقاً فلا يكون منه على الأشياء اعتماد ، ولاله إليها استناد .

وفى قوله : ومن أحبه : أى من أحب الله تعالى لم يؤثر عليه شيئاً : لم يقدم عليه شيئاً من مراداته ، وشهواته ، فضلاً عن غيرهما من الخلق ، لأن حقيقة المحبة أخذ جمال المحبوب حتى لا يدعه لغيره فى حال من الأحوال .

ويعود ابن عطاء الله فيقول : « إلهى كيف يستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك ، أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك » .

والعارفون بالله كما يصفهم ابن عجيبة : « يشهدون ما من الله إلى الله ، يعنى أنهم غائبون عن أنفسهم لا يرون إلا تصرفاً فى مظاهر أنواره .

فالعارف لا يعرف إلا وجوداً واحداً هو الله تعالى على نحو ما نراه فى جانب وحدة الشهود عند ابن الفارض . حيث أوضح أن المعرفة ذوقية كشفية وليست عقلية عقلية .

والعارف هو من استطاع التحقق بالجمع بين الشريعة والحقيقة فوصل عن طريق ذلك إلى المعرفة بالله التى تتجلى للمسالك فى أعلى مراتب الطريق .

ومن سمات العارف الواصل أن يكون جامعاً بين طاعة الله فى جوارحه عن طريق الالتزام برسوم الشريعة ، والغنى بالله فى باطنه بتخليّة قلبه عما سواه .

= = (ابن عجيبة . إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ١٠٥) .

.....

ومن شأن ذلك العارف المتحقق أيضاً أن تصير الشريعة عنده هي عين الحقيقة، والحقيقة عنده هي عين الشريعة ، ومن ثم يصير علمه كله بالله والله .
(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، مصدر سابق ، ص : ٤٨) .

ومن علامات المعرفة أن يرى العبد نفسه في قبضة العزة ، وتجري عليه نصاير القدرة ، ومن علامات المعرفة المحبة لأن من عرفه أحبه :

فالمعنى العرفاني للفناء يعني : أن ترى الخلق بعين الفناء فيسقط عنك رؤيتهم والتزين لهم ، فهذا من جليل مقامهم . ويصبح المنهج العرفاني هو المنهج القائم على المعرفة الذوقية في الوحدة الشهودية بما أجمله صاحب الحلية لأبي الحسين النوري . فقد قال : « أعلى مقامات أهل الحقائق انقطاعهم عن الخلائق ، وسبيل المحبين التلذذ بمحبتهم ، وسبيل الراجين التأمل بمأمولهم ، وسبيل الفانين الفناء في محبتهم ومأمولهم ، وسبيل الباقيين البقاء ببقائه » .

وقد قيل : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله أثر رضاه . وحقيقة المعرفة المحبة له بالقلب ، والذكر له باللسان ، وقطع الهمة عن كل شيء سواه .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

« سورة الذاريات : الآية : ٦٧ » .

قال ابن عباس في تفسيره : « إلا ليعبدون » : إلا ليعرفون .

فمعرفة الله سبحانه وتعالى نور تشرق به القلوب وهي إنما تحصل لمن توجه إلى الله بكلية وانقطع بهيمته وعكف عليه بقلبه ، فمن اشتغل بالأكوان وتوغل فيها أظلم قلبه لأنها قاطعة له عن نور المعرفة وحائلة بينه وبين =

.....

= الحق فهي للبصيرة بمنزلة السحاب للشمس ، فوجب على المريد المتوجه الانقطاع عنها ، لأنه طالب للنور ، وإنما يتوصل إليه بالتخلي عن ضده وذلك بالتوبة والمجاهدة واللجوء إلى الله تعالى .

(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ٢٠٠) .

وسئل الإمام الجنييد رضى الله تعالى عنه عن المعرفة بالله تعالى هل هي كسب أم ضرورة ؟

فقال : رأيت الأشياء تدرك بشيئين ، فما كان منها حاضراً فبالحس وما كان منها غائباً فبالدليل . ولما كان الحق تعالى غير باد لحواسنا كانت معرفته بالدليل والفحص ، إذ كنا لانعلم الغيب والغائب إلا بالدليل ، ولانعلم الحاضر إلا بالحس .

(الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٧٣) .

ويهتف الشاذلي رضى الله تعالى عنه فيقول : كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف ؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء ؟ !

(ابن عطاء الله السكندري : لطائف المنن ، ص : ٤٢) .

والطريق إلى معرفة الله تعالى وصفاته الفكر والاعتبار بحكمه وآياته ولا سبيل للألباب إلى معرفة كنه ذاته .

وقد قيل : لو تناهت الحكم الإلهية في حد العقول وانحصرت القدرة الربانية في درك العلوم لكان ذلك تقصيراً في الحكمة ونقصاً في القدرة ، ولكن احتجبت أسرار الأزل عن العقول كما استترت سباحات الجلال عن الأبصار ، فقد رجع معنى الوصف في الوصف وعمى الفهم عن الدرك ، ودار الملك في الملك ، وانتهى المخلوق إلى مثله ، واشتد الطلب إلى شكله ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا .

= (الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١٣٠) .

.....

= والمعرفة فيما يرى أبو يزيد البسطامي أقسام : معرفة العوام ، ومعرفة
الخواص ، ومعرفة خواص الخواص .

(عبد الحليم محمود : أبو يزيد البسطامي . القاهرة : دار التراث العربى ،
سنة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ، ص : ١٠١) .

فمعرفة العوام : معرفة العبودية ، ومعرفة الربوبية ، ومعرفة الطاعة ،
ومعرفة المعصية ، ومعرفة العدو والنفس .

ومعرفة الخواص : معرفة الإجلال والعظمة ، ومعرفة الإحسان
والمنة ، ومعرفة التوفيق .

ومعرفة خواص الخواص : معرفة الأنس والمناجاة ، ومعرفة اللطف
والتلطف ، ثم معرفة القلب ، ثم معرفة السر تنهاى فى كل واحدة من هذه
الأنواع مع الأخرى ولا تتعارض معها وجميعها ضرورية للمسالك والعارف .

ولقد قيل : العارفون يعتبرون بالأسباب ويعجبون من التسبب ، فيزدادون
بذلك هدى وإيماناً بشهودهم المعطى المانع واحداً فى العطاء والمنع ،
ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة .

ويقول الإمام على رضى الله تعالى عنه : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » .

فالمعرفة اللدنية : هى معرفة خاصة يحظى بها الإنسان ولا ينالها إلا
أصحاب الورع والأتقياء السائرين فى طريق الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ

مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ « سورة الكهف : الآية ٦٥ » .

والمعرفة اللدنية غير العلوم الكسبية والعقلية ، إذ هى نور يقذفه الله =

.....

= في قلب عبده المؤمن المخلص ، فيصبح مشرقاً بها ، بل يصبح علماً وعالمًا ومعلومًا جميعاً ، فينال بقدر علمه وعمله بعضاً من الأسرار الإلهية ، أو العلوم الربانية التي لا يمكن أن يحظى بمعرفتها في أزمنة متطاولة عن طريق النظر أو الفكر .. لأنها فوق حدود العقل ، فلا يقدر العقل - مهما كان سليماً - على استيعابها أو الحكم عليها فهي تتعدى حدوده ومقاييسه وأحكامه ومنطقه .

وقد ذكر الإمام الغزالي : أن هناك أموراً تخفى على العقل بصفة عامة ، وأن ما يخفى عليه منها نوعان :

نوع قد تدركه بعض العقول ولكنه يبقى خفياً ومحجباً بالأسرار بالنسبة إلى معظم البشر .

ونوع آخر لا يتسنى إدراكه لأي عقل إنساني مهما بلغت حدته وقوة نفاذه ، وهو ذلك العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقل حتى لم تتصور الإحاطة بكنهه .

(الغزالي ، أبو حامد : المقصد الأسنى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة : دار الطباعة المحمدية مكتبة الجندى ، سنة ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م ، ص : ١٧) .

إذن فالعقل الذي يوجب المعرفة بالله عند المعتزلة لا يستطيع في نظر الغزالي أن يؤدي دوره لأن مجال العقل هو عالم الشهادة وليس للعقل أى عمل فيما هو فوق مجاله . أى فى عالم الملكوت .

(الغزالي : مشكاة الأنوار ، تحقيق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ص : ٦٦) .

ولعمري أن الفلاحين وأهل الصنائع أحسن حالاً وأقرب إلى الله من هؤلاء المدعين لأنهم طول عمرهم في أعمال شاقة في نفع الخلق . وهؤلاء المدعون طول عمرهم ساعون في ضرر الخلق لأنهم يقصدون بخلوتهم ورياء ضتهم وذكرهم في بعض الأوقات التمييز على الخلق والتمهيد لطريقتهم التي يطلبون أن يكونوا داعين إليها فيجوع أحدهم جوعاً مفرضاً حتى ينحرف مزاجه فيتنظر شمساً ونجوماً من شدة الجوع (*) .

- (*) الجوع : الجوع ضد الشبع ، وهو اسم من جاع يجوع جوعاً .

(معجم ألفاظ القرآن ، مجمع اللغة العربية ، ج ١ ، ص : ٢٢٥) .

وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ « سورة البقرة : الآية ١٥٥ » .

ولقد كان الجوع مسلكاً رئيسياً للأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . إذ كان وجودهم في حال التجرد عن الدنيا ومشاغفها أمراً لا بد منه لتحقيق السعادة الأبدية متفقيين على استحسان الزهد في الدنيا والتباعد عنها .

(إبراهيم على أبو خشب : يارسول الله . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م ، ص : ٢٤) .

وحال الأنبياء السابقين أعظم شاهد على ذلك :

لقد كان الخليل إبراهيم عليه السلام أزهد الناس في الدنيا ، وكذلك =

فيظنون أن ذلك من علامات الطريق وأن من رأى سالك إلى الله تعالى وأن ذلك خبط فى ظلام . وما أمروا الخلق إلا بتعليم الآداب المتعلقة بمعاملة الله تعالى ومعاملة خلقه لا بأن ينظروا جبلاً وأودية وشموساً وأقماراً متوهمة يتخيلها المزاج عند الخرافة .

= ولده إسماعيل عليه السلام أوحى الله تعالى إليه اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم . قال : ومن هم ؟ قال : الفقراء الصادقون .

(الغزالى ، أبو حامد : الأربعين فى أصول الدين ، ص : ٢١٣) .

ومما روى عن نبي الله داود عليه السلام أنه قال : صم عن الدنيا واجعل فطرك الموت وفر من الناس كفرارك من الأسد .

(الغزالى : منهاج العابدين ، ص : ٤٧) .

ولقد أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : يا موسى استعد للقائى ، عليك بمدارع الجوع فتقصمها ، وظماً الهواجر فتجرعها . يا موسى : الجوع مفاتيح طاعتى ، وسبب الوصول إلى . يا موسى : جالس أهل الظمأ تدم عليك نعمتى ، وجالس أهل المجاعة فهم الذين كشفت عنهم الظلام وأذقتهم طعم محبتى . يا موسى : الجوع لذة النفوس الخيرة ، ومصباح القلوب النيرة . يا موسى : عليك بالصيام فتعم صاحب ، وقم فى غسق الدجى إذا رقد كل هاجع . يا موسى : الصوم نور قدفتنه فى قلوب المطيعين ، ولباس ألبسته أفئدة الورعين وهو مفتاح لأهل خدمتى وأهل عبادتى .

(عبد العزيز الديرينى : طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ، ص : ١٢٠) .

ولعمري إذا فرضنا أن أحدهم رأى من منتهى العرش إلى منتهى التخوم وأحاط علماً بجميع ما بينهما هل ذلك مقرب له إلى الله تعالى؟ وهل يستحق على ذلك جزاء من الجنة أو غيرها؟ فتأمل ذلك واعرف زمانك واخف مكانك والزم شأنك فمثال من يعمل شيخاً في هذا الزمان مثل فقيه فتح المكتب قبيل الغروب وقف ينظر الأطفال ليقرّبهم وكل الأطفال انصرفوا من العصر.

= ويقول عيسى عليه السلام لأصحابه : معاشر الخواريين ، جوعوا لعل قلوبكم ترى ربكم ، وتنوير القلب بالجوع من روائع التجربة .
(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٧٠) .

ولقد كان الجوع حالاً من أحوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فمما يروى عنه أنه ما شبع من خبز ولا شعير قط ، وأنه كان يربط الحجر على بطنه من الجوع ، وكان أكثر أيامه صائماً ، وكان يواصل في صيامه ويتردد في ذهابه إلى غار حراء للخلوة بثمرات يسيرة لأيام كثيرة .

(ابن هشام : السيرة النبوية . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، ج ١ ، ص : ٣١٣) .

من هنا نرى أن نعمة التقلل من الدنيا أكبر من نعمة الإكثار منها لأنها طريق الأنبياء والأصفياء ، وأن التقلل أفضل وأكثر أجراً . فشيء اختاره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنفسه ولأهل بيته لأكمل منه .

(النبهاني ، يوسف بن اسماعيل : الشرف المؤبد لآل محمد . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص : ٧٤) .

.....

- ويؤيد هذا الحديث الذي رواه الديلمي في مسند الفردوس عنه صلى الله عليه وآله وسلم : « البسوا الصوف ، واشربوا ، وكلوا في أنصاف البطون .. تدخلوا في ملكوت السماء » .

وفي ضوء هذا التحليل السابق للجوع عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يظهر لنا جلياً أن العابد لله حق عبادته لا بدله من التسليح بسلاح الجوع ولا يلتفت إلى الشبع ، لأن الجوع يرقق القلب ، ويصبح المرء خاشعاً وخاضعاً لله سبحانه وتعالى .

من هنا نجد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتخذوه قدوة لهم إذ كان الجوع عندهم وسيلة للقرب من الله وتربية للنفس والتسامي بها عن حظوظها حتى تنقاد إلى طريق الحق ، وتتأدب بأداب الله تعالى . ومن هنا كرهوا البطنة .

ولقد كان الجوع خلقاً من أخلاق الصوفية وصفة من صفاتهم ، وهو أحد أركان المجاهدة ، ولقد اعتادوا الجوع والإمساك عن الطعام فوجدوا ينابيع الحكمة في الجوع لكونه رياضة في مجاهدة النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال .

(ابن عربي : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٧) .

لذلك كان الجوع من أجل خصال المؤمن وأكثرها تعباً ، إذا صح له فيه النية الخالصة لله تعالى .

(أبو طالب المكي : علم القلوب ، تحقيق عبدالقادر عطا . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، بدون تاريخ ، ص : ٢١٤) .

ويحذرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من البطنة في قوله : =

.....

« ماملاً ابن آدم وعاءً شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه
فإن كان فاعلاً فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
(رواه الترمذى من حديث المقدام) .

ولقد جاء فى وصف أصحاب النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن أحدهم
كان يأكل الأكلة فيتمنى لو بقيت فى جوفه كما تبقى الأجرة فى الماء
فتكون زاده من الدنيا .

فهذا هو الصديق يقول : « ما شبعنا منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربى ،
وما رويت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربى ، لأن فى كثرة الأكلة قلة فى
العبادة » .

(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ١٤) .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يقول : إياكم
والبطنة فإنه ثقل فى الحياة وتن فى الممات .

(الشعراوى : تنبيه المغترين ، ص : ١٣٠) .

والجوع عند الصوفية تطهير وتزكية للنفس ، وتأديب روحى ، وتعليم
ربانى ، بعالج الشر من منبعه ، ويداوى الداء من مصدره ، فيستأصله ، هو
وسيلة العابدين ، وروضة المخلصين ، وأحسن صلة بين العبد ورب
العالمين

لذلك كان على العاقل أن يتسلح بالجوع ويتخذ طريقاً لعبادة الحق
سبحانه وتعالى . ومن هنا أيضاً تتحقق عبوديته لله عز وجل بالكمالات
الروحية وتخليه عن الأوصاف النفسانية وتسليمه الأمور جميعها إلى الله
سبحانه وتعالى اعترافاً منه بملكه وثقة فيه بعبده .

.....

= (صالح الجعفرى : أسرار الصيام للخواص والعوام ، ص : ١٥) .

فالجوع عند الصوفية مخالفة للنفس وتربيتها ، كما أنه رياضة من الرياضات البدنية يجعل النفس تسير فى طريق الاستقامة والهداية والطاعة لله سبحانه وتعالى . ومن هنا يأتيها الفتح وتكون فى معية الحق .

لذلك كان الخير كله فى معاداة النفس من حاجتها جملة فى الأحوال كلها ، لأن مخالفة النفس ومفارقة أهوائها يجعل الإنسان قلبه مع الله . ولن يتم ذلك إلا بالجوع .

(ابن عبد الله الباهلى الأشبلى : الذخائر والأعلاق ، ص : ١٩) .

فالنفس خلقت جاهلة ظالمة فهى لجهلها تظن أن شفاءها فى إشباع هواها ، وإنما فيه تلفها وعطبها ، فالهوى أكبر أدوائها ومخالفة النفس بالجوع أعظم أدويتها .

(ابن قيم الجوزية : الطب النبوى ، ص : ١٨٥) .

وعلى ذلك يصبح الجوع ذلاً للنفس بكسر شهواتها حتى لاتقع فى الغفلة عن الله تعالى .

وبعبارة أخرى : سجن النفس فى الجوع حتى لاتقع فى المعاصى .

هكذا يصبح للجوع منزلة عالية عند الصوفية يمكن إجمالها فى النقاط التالية :

١ - صفاء القلب ونفاذ البصيرة فإن الشبع يورث البلادة ويعمى القلب .

٢ - رقة القلب وصفائه الذى ينتهى لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر .

وفى ذلك يقول أحد الصوفية : الجوع آلة العبادة ، فإن المعدة إذا امتلأت قعدت الأعضاء عن العبادة .

.....

= كما قال أبو سليمان الداراني : أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهرى
ببطنى . وعلى ذلك يؤدى الجوع إلى لذة المناجاة مع الله وحلاوة التعبد .

٣ - ذل النفس وزوال البطر والانكسار .

٤ - يتذكر المرء بالجوع ألم البلاء وعذابه .

٥ - كسر شهوات المعاصى والاستيلاء على النفس ، فإن منشأ المعاصى
كلها الشهوات .

٦ - رفع النوم ودوام السهر ، فإن شبع شرب كثيراً ، من كثر شربه كثر
نومه .

ولذلك قال بعض الصوفية : معاشر المريدين لاتأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً
فتخسروا كثيراً .

٧ - تيسير المواظبة على العبادة ، فالأكل يمنع من كثرة العبادة ، فمن كثر
أكله كثر تردده إلى الخلاء .

٨ - صحة البدن ودفع الأمراض فإن سبب الأمراض كثرة
الأكل .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « المعدة بيت الداء »
(رواه الترمذى) .

✓ وفى الخبر الشهور : « صوموا تصحوا » .

رواه أبو نعيم فى الحلية ، والطبرانى ، عن أبى هريرة .

٩ - خفة المؤنة . فإن من تعود قله الأكل كفاه من المال القدر اليسير .

١٠ - التمكن من الإيثار والتصدق .

ولعمري من شرط الشيخ (*) أن يعطيه الله القوة .

(*) الشيخ : فى اصطلاح المتأخرين من الصوفية أن الشيخ هو من كملت صفاته فى مراحل الطريق ويستطيع إرشاد المريدين وإعانتهم .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة أحمد ناجى القيسى ، ومحمد مصطفى حلمى . القاهرة : دار النهضة المصرية ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص : ٣١٧) .

وهنا نوضح أن الشيخ لكونه عارفاً مدققاً لا بد وأن يكون عنده دين الأنبياء ، وتدريب الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يقال له أستاذ .

(عبد الحفيظ على القرنى : ابن عربى ، القاهرة : دار الكتاب العربى ، سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص : ١١٢) .

كما قيل : الشيخ هو من أزاح عنك كل حجبك ، وأمات نفسك قبل أن تموت ، وأجال بروحك فى عالم اللاهوت .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية . القاهرة : عالم الفكر ، سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص : ١٧) .

ويكاد يجمع الصوفية على ضرورة الشيخ لسلوك الطريق ، وإن تفاوتت عباراتهم فى ضرورته بين منطرف كالبسطامى يقول : « من ليس له شيخ فشيخه الشيطان » . وبين معتدل كالدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير أن تمارس فإنها تروق ولكنها لا تثمر . كذلك المريد أن لم يكن له أستاذ .

(أحمد محمود صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص : ٢٤٨) .

في دفع عن مريده (*) كل عارض فإذا صار الشيخ نفسه
لا يقدر أن يدفع عن نفسه عارضاً .

= والقول السابق للبسطامي يدل على شطحه وغيبته ولا ينسجم مع مفهوم
الشريعة الإسلامية .

ومن هنا ابن عطاء الله : « ليس شيخك من سمعت منه ، وإنما شيخك من
أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته وإنما شيخك الذي سارت
فيك إشارته ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب وإنما شيخك الذي رفع
بينك وبينه الحجاب ، وليس شيخك الذي واجهك مقاله وإنما شيخك
الذي نهض بك حاله » .

(*) المرید : المرید عند الصوفية هو الذي صح له الابتلاء ودخل في جملة
المنقطعين إلى الله عز وجل . أما المراد فهو العارف الذي لم يبق له إرادة وقد
وصل إلى النهاية وعبر الأحوال والمقامات . فالمرید إذن هو طالب الحقيقة ،
والمراد هو مطلوب من الحق .

المرید مجاهد يجاهد ، والمراد موهوب ، المرید موجود ، والمراد فان ، المرید
يعمل ، والمراد لا يرى العمل ، بل يرى التوفيق والمنة ، المرید يكابد بسلوك
الصراط المستقيم ، والمراد قائم على مجمع كل سبيل ، المرید ينظر
بنور الله ، والمراد يخالف هواه ، المرید يتقرب إلى الله ، والمراد يتبرأ من
روحه ومنه ، وهكذا فإن المراد مقرب من الله فينعم عليه بالأسرار الإلهية
والتجليات الربانية ، والفتوحات الرحمانية ، والفيوضات القدسية ، فيكون
شريعته حقيقته ، وحقيقته شريعته ، فلا شريعة بلا حقيقة ، ولا حقيقة بلا
شريعة .

= (حسن محمد الشرقاوى : الشريعة والحقيقة ، ص : ١٨١) .

والبلاء (*) نازل عليه كالمطر فكيف يقدر أن يدفع عن

تلميذه ؟

= (#) البلاء أو الابتلاء : يعبر لغوياً عن البلاء والابتلاء بمعنى الامتحان والاختبار . ويكون إما بالخير ، وإما بالشر ، أو إما بالنعمة ، وإما بالنقمة .
وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ... ﴾ بمعنى : ولنختبرنكم ، وهى من بلا يبلو .

(محمود شكرى : شرح وتفسير كلمات القرآن الكريم . القاهرة : دار التراث الإسلامى ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص : ٢٠) .

أما عن تعريف الابتلاء الاصطلاحي فهو امتحان واختبار من الله سبحانه وتعالى لعبده الصادق ليعرف مدى صدقه وإخلاصه فى محبته .

وبذلك يكون الابتلاء تجربة واختباراً وأنه مفتاح دار السعادة أودار الشقاء فى الدنيا والآخرة على السواء . والله سبحانه وتعالى يختبر عبده المخلص ليظهر كيف حاله بعد البلاء .

وهذا وارد فى قوله تعالى : ﴿ وَلَيَبْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾

« سورة الأنفال : الآية : ١٧ » .

وقوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

« سورة الأحزاب : الآية : ١١ » .

وهذا الابتلاء أيضا يعنى اختبار الله تعالى للمؤمنين ، حتى يظهر صدقهم

وإخلاصهم وتوكلهم على الله فى كل الأمور ، كما جاء فى الآية الكريمة :

﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٤٩ »

والأصل فى الابتلاء والفتنة أنه الاختبار والامتحان . والإنسان لا يمتحن =

.....

= إنساناً إلا إذا جهل قواه ومواهبه العلمية أو الخلقية أو الفنية أو العقلية ،
فالامتحان هو الوسيلة العلمية للوقوف على مبلغ معرفة الإنسان ونصيبه
من العلم أو الجهل ، فهو أحد الموازين التي تكشف قوى الإنسان ، أو أحد
المقاييس التي تظهر ما استتر أمره على الناس .

أو الممتحن (بكسر الحاء) ، ولكن هذا المعنى مستحيل بالنسبة لله عز وجل
لأنه عليم بذات الصدور ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما
تخفى الصدور ، وقد أحاط بكل شيء علماً .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ
أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ « سورة ق : الآية : ١٦ » .

وفى بعض المسانيد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرفوعاً :
« إذا أراد الله بعبد خيراً صب عليه البلاء صباً »

وقال كعب الأحبار : أجد مكتوباً ، فى التوراة لولا أن يحزن عبدي المؤمن
لعصبت الكافر بعصاة عن حديد لا يصدع أبداً .

وذكر ابن أبي الدنيا أن رجلاً قال يارسول الله : ما الأسقام ؟

قال : أو ما سقمت قط ؟ قال : لا . فقال : قم عنا فليست مؤمناً .

من هنا يتضح أن البلاء موكل بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكذلك
لا يخلو العلماء والأولياء عن الابتلاء . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن
ضروب الإيذاء وأنواع البلاء .

فالدنيا دار ابتلاء وعمل . والإنسان هو المقصود منها . وهو موضع
الامتحان أو الاختبار .

.....

= والبلاء إنما يكون على قدر الرجال . فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا ، فالمؤمن الكامل الإيمان لا يختلج في قلبه اعتراض ، ولا يساكن نفسه فيما يجري من وسوسة ، كلما أشد البلاء عليه زاد إيمانه وقوى تسليمه .

هكذا يتضح أن الابتلاء يكون على قدر الرجال من حيث تفاوتهم في درجته . وهنا يظهر قدر قوة الإيمان . فالناس يستوون في العافية ، فإذا نزل البلاء تباينوا .

كما أن الابتلاء بمعنى البلاء الحسن ، أي النصر من عند الله تعالى .

فالله يختبر عبده المخلص ليظهر كيف يكون حاله بعد البلاء ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾

« سورة الأنفال : الآية : ١٧ »

أي الابتلاء بمعنى النعمة والمنة الإلهية والعطايا الربانية . هذا وارد في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴾

« سورة الإنسان : الآية : ٢ » .

ويجوز أن يكون البلاء من الله ما لا يصدق على أحدهم ، كما يجوز أن يكون نقصاً في المال ، أو الولده ، أو جوعاً ، أو خوفاً ، وذلك وارد في قوله تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

« سورة الأنبياء : الآية : ٣٥ » .

فإذا ابتلى الإنسان بالشر ولم يكن صابراً مجاهداً راضياً ، اعترض على ابتلاء الله وخرج عن طريق الطاعة والإخلاص ، فسقط وانتكس وأصبح =

.....

من الخاسرين ، فلو صبر على ما ابتلاه الله به ورضي بما قسم الله له لأنعم الله عليه بنعمة من عنده ورحمة ورضوان ، ووصل إلى متهى غاية السالكين .

وهناك الابتلاء فى العقيدة ، وهو أقوى أنواع الفتن وأشدّها ، وكذلك الابتلاء بالمرض فى الأبدان ، والابتلاء يكون بزيادة المال والولد .

قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾

« سورة الأنفال : الآية : ٢٨ » .

وكذلك يكون الابتلاء برفع درجات بعض الناس عن بعض .

قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٦ »

وهكذا يتضح أن الابتلاءات متعددة فمنها ما يتصل بالخير أو الشر ، ومنها ما يتصل بالنعمة أو النعمة ، ومنها ما يتصل بالصحة والمرض ، ومنها ما يتصل بالغنى أو الفقر .. إلى غير ذلك من أنواع الابتلاءات التى يبتلى بها الحق تبارك وتعالى عبده ليجربه فيكون من الشاكرين أم من الناكرين ؟ !

وكذلك يتعرف على معدن صدقه ، وحقيقة طاعته ، وإخلاصه فى دعواه عن حاله الذى هو فيه .

ويمتنح الحق سبحانه وتعالى عبده لأسباب عديدة نذكر منها :

أولاً : استحضار عظمة الله سبحانه وتعالى فى قلبه مع التدبر فيكون العبد ذاكرة لله راجعاً عن غيه ، مستيقظاً من غفلته .

ولذلك يتجنب العبد المعاصى والآفات مبتعداً عن هوى نفسه .. مقبلاً على

.....

طريق ربه ، متواضعاً لله بعد أن أعصاه غروره وأفسده تجبره وتكبره . =
(حسن محمد الشرقاوى : نحو علم نفس إسلامى ، ص : ٥٥) .

ثانياً : يتعرض العبد للابتلاء فى دار الدنيا إما بالخير وإما بالشر . وهنا يظهر العبد الصادق من غير الصادق . فالمؤمن الصادق يسلم أمره إلى الله . ويرضى بما قسم الله له . ويصبر على ما أتاه من اختبارات وامتحانات .. أما المنافق فيظهر سخطاً وتبرماً واقتراءً على الله وكذباً .

(عبد القادر الجيلانى : فتوح الغيب ، ص : ١٢٠) .

والعبد الصادق يحذر فى الابتلاء من الاعتراض على الله أو الرضا عن نفسه خوفاً من الوقوع فى الضلالات والانتكاس لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى يجرب عباده المخلصين وغير المخلصين ، والصابرين وغير الصابرين ، والمجاهدين وغير المجاهدين تأييداً . لقوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾

« سورة محمد : الآية : ٣١ » .

والابتلاء بهذا المعنى تجربة للحكم على الصابرين والصادقين والمجاهدين والعاملين .

ولقد سلك الصوفية مسلكاً شرعياً عندما تعرضوا للبلاء ، وها هو الإمام الجنيد يقسم الناس إلى طبقات فيقول : البلاء سراج العارفين ، وبقطة المريدين ، وصلاح المؤمنين ، وهلاك الغافلين .

(الغزالى : مكاشفة القلوب . القاهرة : دار الزهراء ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ٢٥) .

.....

ولقد سئل المحاسبي عن البلاء من الله للمؤمنين كيف سببه ؟
فأجاب : البلاء على ثلاث جهات : الأولى : على المخالطين نقم
وعقوبات ، والثانية : على المستأنفين تمحيص الخبايات . والثالثة : على
العارفين من طريق الاختبارات .

ف قيل له : صف تعبدهم فيما تعبدوا به ؟ فقال : أما المخالطون فذهب
الجزع بقلوبهم وأسرتهم الغفلة فوقعوا في السخط ، وأما المستأنفون
فأقاموا لله بالصبر في مواطن البلاء حتى تخلصوا ونجوا منه بعد
مكابدة ومؤنة ، وأما العارفون فتلقوا البلاء بالرضا عن الله عز وجل فيما
قضى .

(أبو نعيم : حلية الأولياء ، ج ١ ، ص : ٩٢) .

وقال الجنيد : سألت سرية السقطي ، هل يجد المحب ألم البلاء ؟
فقال : لا ، قلت : وإن ضرب بالسيف . قال : نعم ، وإن ضرب بالسيف
سبعين ضربة على ضربة .

(الغزالي : المحبة والشوق والأنس والرضا ، ص : ١٠٧) .

كما قال : إن أهل البلاء لما اتصلوا بحادث الحق فيهم ، وجارى حكمه
عليهم ، تغربت أسرارهم ، وتاهت أرواحهم عمر الأبد ، لاناؤها
المواطن ، ولا تجنّها الأماكن ، تحن إلى مبتليها حنيناً ، وتئن بفناء النائي عنها
أنيباً ، قد شجّاهما فقداها ، وذلهما وجدانها ، أسوفة عليه ، موجعة لديه ،
متشوقة في الوجد إليه ، أعقبها بها ظمأ ، ويزيد الظمأ في أحشائها غماءً ،
فهى القلقة بمعرفتها ، السخية بفقدانها .

وقال أيضاً : الفقر بحر البلاء ، وبلاؤه كله عز .

.....

= ويتنقل بنا الإمام الجنيد إلى ساحة ذوقه فيقول : « وإنما جرت سنة البلاء على أهل البلاء من هاهنا جاذبوا وأقاموا ولم يتخذعوا » .

ويشير هذا النص إلى حال الفناء الذي لا وعى فيه بالآثار ، ولا يمكن الاحساس بالشفاء إلا بالأمرين ، أو بالثنائية ، ولا وجود لها في الشعور .

كذلك نستطيع أن نفهم قول الجنيد ، ومعه جمع من الصوفية بأن الإنسان حجاب نفسه هو حجر الزاوية في هذا الفناء والبلاء الخاص به ، فإن الإنسان إذا انتبه إلى نفسه ذهب كل حال سام .

وفي هذا ما يفسر قوله : « وهبني ثم استتر به عني ، فأنا أضرب الأشياء على ، الويل لي مني » .

ويفسر قوله : « فطلبوا له ، في استيلائه عليهم بساط البلاء على صفاتهم ، لأن لذة الأشياء فيهم ، ففي هذه الحالة قدر من الثنائية يتيح الشعور واستحالة انعدام الثنائية لتباين حقائق الحق والخلق ، هو ما دعاه للقول بأنهم : « لا يجدون بعد الموت فرجاً ، ولا لهم قبل الموت ، من فرط البلاء مخرج » .

وعلى هذا النحو أرجع الإمام الجنيد كل أسباب البلاء إلى الإنسان ، لعدم الفناء المحقق إذ يقول :

● وكل بلاء على مني ياليتني قد أخذتني عني

ومن عبارات الصوفية الغامضة في هذا الصدد : « بلاء البلاء » .

وهنا نستطيع أن نشير جملة من التساؤلات :

هل بلاء البلاء على طريقة فناء الفناء كلما ذهب بلاء جاء بعده بلاء . أي القمم العالية فيه ؟

فإن ادعى الشيخ المذكور وقال : أنا عاجز ولا أشهد نفسي إلا من العوام . قلنا له عقلك يكذب دعواك ، فهل رأيت فلاحاً أو سائلاً من العوام ادعى الولاية والمشيخة وطاف البلاد ينادى على نفسه هلموا إلى الله تعالى واتبعوني فتأمل .

وقد أوضحنا حالهم ودعاويهم الباطلة في : « رسالة الأنوار » فراجعها فإن أفعالهم تكذب دعاويهم في جميع ما يتقلبون فيه .
ولعمري الكامل في هذا الزمان من جد وصف الإسلام فقط من غير زيادة فإن سلب الإسلام (*) قد كثرفي هذا الزمان . وهو سنة ثلاثة وثلاثين وتسعمائة .

= أم هو ما يعرض له من الآفات التي تطرحه عن كونه مبتغياً به وجه الحق خالصاً من الإعجاب بشدة تحمل النفس وصبرهم ؟
أو هو خاص بالتعارض بين الفناء والوجود ؟

وعندما ننظر إلى مثل قول الإمام الجنيد : « ثم أحضرهم في فنائهم ، وأشهدهم الوجود في وجودهم ، فكان ما أحضرهم منهم وأشهدهم من أنفسهم خفياً وحجاباً لطيفاً أدركوا به غمضة الفقد » .

(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد البغدادي ، ص : ٣٦٠) .

(*) الإسلام : الإسلام هو دين الأنبياء كما أخبر الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم مصداقاً لقوله تعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

= « سورة آل عمران : الآية : ٨٥ » .

وقد اطلع أهل الكشف (*) من أولياء هذا الزمان على أنه مات
في هذا الزمان من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مائة
 وخمسين ألفاً فوجدوا منهم عشرة آلاف نفس ماتوا على الإسلام
 والباقي على الكفر نسأل الله العافية .

= فالدين عند الله سبحانه وتعالى الإسلام في كل زمان ومكان ، وهذا الدين
 هو الذي بعث الله به الأولين وآخرين من الرسل ، ولا يقبل منا ديناً غيره
 وللمزيد انظر الآيات : (يونس : ٧١ - ٧٢) ، و (البقرة : ١٣٠ - ١٣٢)
 و (يوسف : ١٠١) ، و (الأعراف : ٢٦) ، و (النمل : ٤٤) ،
 و (المائدة : ٤٤) ، و (آل عمران : ٥٢ - ٥٣) ، و (الشورى : ٢١) ،
 و (الأنعام : ١١٢ - ١١٥) ، و (الفرقان : ٢٧ - ٣٠) ، وكثيراً من الآيات
 التي توضح عظمة الدين الإسلامي .

ولقد امتدح أحد المستشرقين الإسلام فقال : « إن الإسلام دين يستحق كل
 احترام وإجلال ، لأنه أقوى دين على هضم جميع المذنيات ، وأنه خالد
 خلود الأبد ، وإنى أرى كثيراً من بنى قومي العلماء قد دخلوا هذا الدين
 على بينة من أمرهم .

(أحمد شلبي : مقارنة الأديان . الإسلام . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية
 الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص : ٢٩٠) .

(*) **الكشف** : الكشف في اللغة : إنما يعنى كشف الحجاب ، وفي
 الاصطلاح : هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ،
 والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً .

وقد ذكر الطوسي في : « اللمع » : أن الكشف بيان ما يستتر على الفهم
 فيكشف عن العبد كأنه رأى العين .

= (الطوسي : اللمع ، ص : ٣٤٦) .

.....

= ولقد أبان ابن خلدون أن الكشف يعرض لأصحاب المجاهدة وقد صفت نفوسهم عن شوائب الحس فيدركون به من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم ، ويانكشف حجاب الحس يتلقى الصوفي المواهب الربانية والعلوم اللدنية .

ويذهب ابن خلدون في موقف آخر فيقول : إن المعارف الكشفية من قبيل الوجدانيات التي لا عمل للدليل أو البرهان معها .

وقد قيل : المكاشف هو الذي استولى غيبه وشهادته في اللطائف .

(ابن عربي : الحكم الحاتمية ، ص : ٢١) .

إذن فالكشف لاتراه العقول ولا تفهمه وإنما هو من حظ الأرواح عند القبول .

(مصطفى محمود : السر الأعظم . القاهرة : دار المعارف ، الطبعة السادسة ، سنة ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م ص : ٧٥ - ٧٦) .

فأهل الكشف هم أصحاب الذوق يرون الله في كل شيء ، ويعبدونه في كل مجلى ، وتتسع قلوبهم لكل صورة من صوره .

(ابن عربي : فصوص الحكم ، تعليق وتحقيق أبو العلا عفيفي . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ، ص : ٧٨) .

وهنا يقول ابن عربي : إذا زال هواك : يكشف لك باب الحقيقة فتفنى إرادتك فيكشف لك عن الوجدانية ، فتتحقق ، أنه هو : لا أنت .

كما أوضح أن الكشف درجات رتبها كالآتي :

= ١- الكشف النظري أو العقلي وفيه تنكشف معاني المعقولات .

.....

- ٢ = - الكشف القلبي وفيه تنكشف الحقائق للقلب فيشاهدها .
- ٣ - الكشف السرى أو الإلهامى وفيه تنكشف أسرار المخلوقات وتتضح للسالك حكمة خلق المخلوقات .
- ٤ - الكشف الروحى وفيه تنكشف للسالك عرض الجنات والجحيم والمعارج ورؤية الملائكة .
- ٥ - الكشف الخفى وفيه ينكشف للسالك الحق سبحانه وتعالى بصفات الجلال والجمال على حسب مقامه .
- (آسین بلائیوس : ابن عربی حیاته ومذهبه ، ترجمة عبد الرحمن بدوى . الكويت : وكالة المطبوعات ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص : ٢١٢) .
- وكذلك ينبغى أن نوضح أن كلمة المكاشفة أتم من المشاهدة ، وهى ثلاثة :
مكاشفة بالعلم : وهى تحقيق الإصابة بالفهم .
ومكاشفة بالحوال : وهى تحقيق رؤية زيادة الحال .
ومكاشفة بالتوحيد : وهى تحقيق صحة الإشارة .
- (الشيخ صالح الجعفرى : ديوان الجعفرى . القاهرة : دار جوامع الكلم ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص : ٦٥) .
- لكن الذى لاينبغى إغفاله أن الصوفية لاينكرون الحواس والعقل فى المعرفة إلا أنهم يرون أن لكل ملكة من الملكات الإنسانية مجالها ، الحس له مجاله ، والعقل له مجاله ، والخطأ يحدث عندما نسمى إلى فهم أو إدراك شىء بغير وسيلته أو أدائه ، كأن تسعى لأن تحس الشىء بالعقل أو تعقل بالحس ، بل إنهم يؤمنون بأن العقل السليم لايتناقض مع الشرع أو السمع .

.....

= وقد بلغ تحمس بعضهم للعقل إلى درجة القول بأن العقل ضرورى للسمع وأنه لاغناء لأحدهما عن الآخر .

ويحدثنا الغزالى فيقول : « ... فلا غنى بالعقل عن السمع (الشرع) ، ولا غنى بالسمع عن العقل ، فالداعى إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور ، فإياك أن تكون من أحد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين » .

فالعقل السليم فى نظر الإمام الغزالى يشبه العين السليمة من العيوب ، فى حين أن الشرع يشبه الشمس التى يغمر نورها ، فتصبح رؤيتها ممكنة ، فلا العين وحدها تكفى ، ولا وجود للألوان إلا إذا رأتها الأبصار ، ولذا فإن من يقبل على القرآن دون أن يستخدم عقله فى فهمه شبيه بمن يغمض عينيه حين لا يرى هذا الضياء ، أما من ينصرف عن الشرع زاعماً أنه يعتمد على العقل وحده فهو يشبه من فسد طبعه ، فلم يستخدم عينه للرؤية فى ضياء النهار ، بل أصر عبثاً على رؤية الأشياء فى ظلام دامس .

(محمود قاسم : دراسات فى الفلسفة الإسلامية . القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، ص : ٤٣) .

بل إن كثيراً من الصوفية يرون أن العقل السليم ميزان للحق فى كل حال ، وأن أخطاء العقل فى كثير من الأحكام لا ترجع إلى طبيعته بل إلى بعض العوامل الخارجية التى تحجب عنه نور الحق ، وترجع هذه الحجب إلى الخيال والوهم .

وإذا كان بعض الصوفية قد غضوا من شأن العقل وهاجموا الفلسفة ، فإن ذلك يرجع إلى ما وقع فيه كثير من الفلاسفة العقليين المتطرفين الذين ضلت عقولهم وأنكروا بعض الحقائق الدينية التى صرح بها القرآن الكريم . =

فإذا كان هذا الحال وأن رتبة الإسلام عزيزة فكيف برتبة
الإيمان (*) فكيف برتبة الولاية - فرحم الله امرأ عرف قدره

= وعلى الرغم من أن الصوفية يؤمنون بالعقل ويثقون به في المعرفة إلا أنهم
يرون أن له حدوداً ينبغي أن يقف عندها ولا يتخطاها . لأن من طبيعته
أن يعجز عن معرفة الحق تفصيلاً في كل الأمور .

ومادام العقل يعجز عن إدراك حقيقة الذات الإلهية فينبغي أن يعترف من
تلقاء نفسه بأن هناك طوراً أسمى منه ، وليس في الاعتراف ما يعيبه ، لأنه -
حتى في مجال عجزه - يعرف طاقته ويعرف قدر نفسه .

وهذا الطور الذي يفوق العقل ويسمو على مرتبته هو طور البصيرة .

وعلى أي حال فإن الصوفية لم يعتمدوا على العقل فقط في الوصول إلى
معرفة الحقيقة التي يطلبونها وإنما اعتمدوا على منهج آخر يدركون فيه
الأشياء إدراكاً مباشراً ، وهذا المنهج قد أطلقوا عليه تارة كلمة :
« المشاهدة » . وتارة أخرى كلمة : « الحدس » . وتارة ثالثة كلمة :
« الكشف » .

ومهما يكن فإن الكشف عند الصوفية منهج من مناهج الوصول إلى المعرفة
اليقينية تدرك فيه الأشياء إدراكاً مباشراً .

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك كله أن الكشف منهج يقيني من
مناهج المعرفة ، إنه إدراك ذوقي مباشر تنكشف فيه حقائق الأمور ، وهو
على حد تعبير الإمام الغزالي : « نور يقذفه الله تعالى في القلب » .

(#) الإيمان : الإيمان بالله سبحانه وتعالى إنما هو الإيمان بأنه الإله الحق
المستحق للعبادة دون كل ما سواه لكونه خالق العباد والمحسن إليهم
والقائم بأرزاقهم والعالم بسرهم وعلايتهم ، والقادر على إثابة مطيعهم =

وأراح الخلق منه ومن تلامذته من بعده فإن الحياة لا تلد إلا حياة
والتهم في عنقه إلى يوم القيامة .

= وعقاب عاصيهم . ولهذه العبادة خلق الله سبحانه وتعالى الثقلين وأمرهم
بها .

(عبد الباري محمد داود : الله في العقيدة الإسلامية . القاهرة : دار نهضة
الشرق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص : ٨٧) .
قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

« سورة الذاريات : الآية : ٥٦ » .

وقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لبيان هذا الحق والدعوة إليه والتحذير
مما يضاده .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ ﴾ « سورة النحل : الآية : ٣٦ » .

وحقيقة هذه العبادة هي أفراد الحق سبحانه وتعالى بجميع ما تعبد العباد به
من دعاء ، وخوف ، ورجاء ، وصلاة ، وصوم ، وذبح ، ونذر ، وغير ذلك
من أنواع العبادة على وجه الخضوع والرغبة والرغبة مع كمال الحب له
سبحانه والذل لعظمته . وغالب القرآن الكريم نزل في هذا الأصل العظيم .
قال تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ
الْخَالِصُ ﴾ « سورة الزمر : الآيتان : ٢ - ٣ » .

ومن الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، الإيمان بأنه خالق العالم ومدبر شؤونهم
والمتصرف فيهم بعلمه وقدرته كما شاء سبحانه وأنه مالك الدنيا والآخرة
 ورب العالمين جميعاً لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، وأنه أرسل الرسل =

.....

= وأنزل الكتب لإصلاح العباد ودعوتهم إلى مافيه نجاتهم وصلاحهم فى العاجل والآجل ، وأنه سبحانه وتعالى لا شريك له فى جميع ذلك .

ولقد أكد القرآن الكريم فى كثير من الآيات المحكمات على وجوب الإخلاص فى العبادة لله وحمده وأن ذلك هو أصل الدين وأساس الملة . كما دلت الآيات المحكمات على أن ذلك هو الحكمة فى خلق الجن والإنس وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، فالواجب على جميع المكلفين العناية بهذا الأمر والتفقه فيه والحذر مما وقع فيه الكثيرون من المتسبين إلى الإسلام من الغلو فى الأنبياء والصالحين .

والإنسان هو محور هذا الكون وعلى قمة مخلوقاته جميعها وموضع التكریم . ومحل العناية الإلهية فيه ، خلقه الله فى أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، وأفاض عليه من فضله ورعايته ، إفاضة لا تتوقف ورعاية لا تنتهى ، إذ هو خليفة الله فى الأرض ، والمسئول عن الوفاء بواجبات العبودية لله فيها ، استجابة لذلك العهد والميثاق الذى أخذه الله تعالى على الأرواح فى عالم الأشباح يوم خرجت من صلب آدم عليه السلام ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ١٧٢ » .

ومن هنا نقول : إن أمانة الإقرار بالربوبية لله وحده والاعتراف بالعبودية لسائر البشر إنما هو الإيمان بالحق سبحانه وتعالى جل شأنه .

والإنسان بحكم فطرته ومنطق الكون إنما هو مربوب لله سبحانه وتعالى لالغيره ، لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ، ولا حجر ، ولا بقر ، ولا شجر ، =

.....

= ولا شمس ، ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله سبحانه وتعالى إنما هي من تزوين الشيطان عدو الإنسان .

والأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده ، والأنبياء جميعاً أول العابدين لله . فعبادة الله وحده هي إذن مهمة الإنسان الأول في الوجود كما بينت ذلك كل الرسالات .

قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ « سورة الشورى : الآية : ١٣ » .

فقد دلت هذه الآية الكريمة على وحدة الهدف والعقيدة التي هي محور دعوة جميع الرسل من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم وأفضلهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بعثه الله رحمة للعالمين ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولينقذهم من أحوال الشرك وأدران الوثنية ، فكان بذلك نبياً للامة ينير لها الطريق .

(عبد الباري محمد داود : الله في العقيدة الإسلامية ، ص : ٩٥ - ١١٢) .

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه خمس خصال : التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والتسليم لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والصبر على بلاء الله ، فقد استكمل الإيمان .

(محمد أبو زهرة : ابن تيمية ، ص : ٣٤١) .

إن الأخلاق الإسلامية لا تكتمل إلا بالإيمان . فلا بد أن يتوجه الإنسان إلى مولاه .

.....

= ويقول ابن عربي : من صدق توجهه إلى الله أعطاه كل ما تمناه ، ومن خاف الله مولاه خاف منه كل ما سواه .

وقال أيضا : ما تعلمت العبيد أفضل من علم التوحيد ، ومن صدق مع الحق قطع علاقته مع الخلق .

ولقد سئل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال : إنه الإخلاص .

ويقول ابن قيم الجوزية : لا يكمل الإيمان بنبي من الأنبياء أصلاً مع جحود سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه من جحد نبوته ، فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحداً .

(ابن قيم الجوزية : هداية الخيارى فى أجوبة اليهود والنصارى ، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد حجازى السقا . القاهرة : المكتبة السلفية . الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص : ١٣) .

ومن وصايا الشيخ عبد السلام بن مشيس لتلميذه أبي الحسن الشاذلى : « يا أبا الحسن حدد بصر الإيمان تجدد الله فى كل شيء ، وعند كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتحت كل شيء ، وقريباً من كل شيء ، ومحيطاً بكل شيء ، بقرب هو وصفه ، ومحيط هو نعمته ، أى ابتعد عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحة والقرب والمسافات وعن الدور أى الاستدلال بال مخلوقات ، وأمعق الكل بوصفه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، فهو هو ، كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه ما كان .

= (ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، ص : ١٩٨)

إذا علمت ذلك فلنشرع في مقصود الكتاب في ذكر رسالة
جامعة لجميع موازين القاصرين فأمنحه لهم عند الخلق كما عند
الله تعالى بحسب ما يفتح الله على به حال الكتابة وأرجو من الله
الكريم أن كل من نظر فيها بالأدب من مشايخ هذا الزمان علم
يقينا أنه لم يشم رائحة الولاية فضلاً عن حصولها فيستريح من

وسأل رجل الإمام على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه عن معنى
الإيمان ؟

فأجاب : الإيمان على أربع دعائم : الصبر ، واليقين ، والعدل ، والجهد .
ويقول سهل رضى الله تعالى عنه : كمال الإيمان بالعلم ، وكمال العلم
بالخوف .

ومن أقوال السيدة نفيسة * : الدنيا كلها مرة . فإن كان بها حلاوة فهي
حلاوة الإيمان .

(محمد شاهين حمزة : السيدة نفيسة . القاهرة : شركة الشمرلى الفنية
المتحدة ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، ص : ١٧٤) .

لقد سأل الصحابي عمرو بن عتبة رضى الله تعالى عنه رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم قائلاً : أى الإيمان أفضل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم : الهجرة . فقال الصحابي : وما الهجرة ؟ فقال رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم : أن تهجر السوء .

وقال بعض الحكماء : شعائر الإيمان أربعة : التقوى ، والحياء ، والشكر ،
والصبر .

(ابن حجر العسقلاني : الاستعداد ليوم الميعاد ، ص ٤٥) .

الدعوى (*) الكاذبة لأنه يجد نفسه عارياً عن صفات الأولياء .

وأما من لم يرد الله هدايته فهو تحت مشيئة الله .

قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤١)
سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ
عَنْهُمْ ۖ (١)

وقد أفردت كل قولة من هذه الرسالة على حدثها بحسب ما
يمر على قلبي حال الكتابة من حضرات الأسماء فريما جاءت كل
قولة من حضرة اسم .

والعارف يميز بينها . وأقول : قال كذا إلى لسان

(*) الدعوى : مفردتها : الدعوى . ويرى أئمة الصوفية أن الدعوى إضافة
إلى النفس ما ليس لها ، وبهذا المعنى تكون الدعوى ادعاء من الإنسان
لشيء لا يفعله ولا يملكه كأن يدعى الإنسان بعض الطاعات ، وهي ليست
جزءاً من أخلاقه ، فيضيف شيئاً إلى نفسه ليس فيها ، فيحيد بهذه الدعوى
عن معرفة الحقائق .

(الطوسي : اللمع ، ص : ٤٢٨) ، و (حسن محمد الشرقاوي : ألفاظ
الصوفية ومعانيها ، ص : ١٦٣) .

وصاحب الدعوى يزعم أنه بادعائه وصل إلى الحقيقة ، وهو بدعواه هذا
أقرب إلى الضلال منه إلى الإيمان .

(١) سورة المائدة : الآيتان : ٤١ - ٤٢ .

ذلك الاسم وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم .

فأول ما فتح الله سبحانه وتعالى علي أن أقول :

قال الشيخ : (على الخواص) (*) رضى الله تعالى عنه : شرط من
يتصدر للمشيخة وتربية المريدين أن يعرف تلامذته من
يوم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ . (١)

وأن يعرف من يفتح له على يده ممن لا يفتح له .

هكذا درج عليه الأولياء أصحاب القدم كسيدي عبد القادر

(*) على الخواص : هو شيخ الإمام الشعراني . ذكره الشعراني
فى : « الطبقات الكبرى » و « الأجوبة المرضية عن أئمة
الفقهاء والصوفية » . وقال عنه : هو أستاذى وشيخى وقدوتى
العالم الربانى والعارف الصمدانى ، وشيخ المحققين ، الأستاذ
الشيخ على الخواص . وامتدحه فألف كتاباً خاصاً سماه : « درر
الخواص فى مناقب سيدي على الخواص » .

كما ذكره الشعرانى فى معظم مؤلفاته . وقال عنه أنه يعرف جملة من
العلوم المتعددة . وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب إلا أنه كان يتكلم عن معانى
القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً تحير فيه العلماء .

ولقد ذكره الشعرانى كثيراً فى الأجوبة المرضية بقوله : يقول سيدي علي
الخواص ، وسمعته يقول ، ويقول مراراً ، وهذا دليل علي ملازمة الإمام
الشعرانى لشيخه . توفى سنة ٩٥٣ هـ .

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٢ .

الجيلي^(١) وسيدى أحمد الرفاعى^(٢)، وسيدى أبو السعود^(٣)
شيخ سيدى داود الأعزب^(٤)، وسيدى أبى بن الشبل^(٥).

فأين هذا ممن لا يعرف اسم تلميذه إلا إن سألته عن اسمه
مرات ؟ وأين الرطب المعمول من الجنى ؟

ثم أنى أقول : شرط من يلحق الذكر ويعمل شيخاً مسلماً
أن^(٦) يكون ولياً . فهل أنت ولى ؟ هان قلت : لا . قلنا : لا يجوز لك
أن تتصدر للمشيخة . وإن قلت : أنا ولى سألتك عن علوم الأولياء
التي يتداولونها فيما بينهم مما لا يسطرفى كتاب ولا طرق سمعك
علم منها وهى كثيرة .

(١) **عبد القادر الجيللى** : أورده الشعرانى فى معظم مؤلفاته بلفظ
الجيلى . وهو الإمام عبد القادر الجيلانى صاحب : « الفتح الربانى » ،
و « فتوح الغيب » ، و « الغنية لطالبى طريق الحق » . وهو شيخ الطريقة
القادرية . توفى سنة ٥٦١ هـ .

(٢) **أحمد الرفاعى** : هو الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى . شيخ
الطريقة الرفاعية توفى سنة ٥٧٠ هـ .

(٣) **أبو السعود** : هو الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر . توفى سنة
٦٤٤ هـ . ودفن بسفح جبل المقطم .

(٤) **داود الأعزب** : تلميذ الشيخ أبو السعود بن أبى العشائر كما ذكر
الشعرانى فى هذه الرسالة .

(٥) **أبى بن الشبل** : ذكره الشعرانى فى هذه الرسالة وعده ضمن شيوخه
وأساتذته .

(٦) فى الأصل : سلكاً أن .

وقد ذكرت منها في كتابنا المسمى : « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحور علوم الأولياء » نحو عشرة آلاف علم . كل علم منها لا يدرك له قرار ولا يسطر في كتاب حتى يمكن (الوقوف) (١) على معرفتها لو سأل (٢) شيخ من مشايخ هذا الزمان على علم منها لم يدراسمه فضلاً عن الخوض فيه .

وقد أحببت أن أذكر لك طرفاً منها خوفاً أن تظن أنها اسم على مسمى إن لم ينته أحدٌ من مشايخك القاصرين يتكلم في علم منها .

فأقول : « مامن ولى حق له قدم الولاية إلا ويعلم العلوم اللدنية كشفاً وذوقاً » (٣) لانقلا وفهماً .

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(٢) في الأصل : غير واضحة .

(٣) الذوق : الذوق عند القوم أول مبادئ التجلى . وهو حال يفاجئ العبد في قلبه ، فإن كان التجلى في الصور فالذوق خيالي . وإن كان التجلى في الأسماء الإلهية والكونية فالذوق عقلي . فالذوق الخيالي أثره في النفس ، والذوق العقلي أثره في القلب .

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربي . القاهرة : دار نهضة مصر ، سنة ١٣٦٥ هـ / ١٩٤٦ م ، ص : ١٠٤) .

ويختلف المنهج الذوقي الذي يتبعه الصوفية عن المنهج الحدسى الذى يتبعه بعض الفلاسفة الرياضيين ، فالمنهج الحدسى سواء أكان حدساً عقلياً =

.....

= أو وجدانياً يقوم على النظر فى مسائل استدلالية أولاً ، ثم يتجلى الحل
للذهن فجأة عن طريق الإلهام ، وبهذا يمكن الوصول إلى ما وراء العالم
المحسوس الذى هو مجرد ستار يكمن وراء الحقائق المعقولة والروحانية .

أما المنهج الذوقى فإنه يقوم أولاً على اتباع المجاهدة والتربية الصوفية التى
عبر عنها الغزالى بالإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإذا ما استطاع المريد
إتمام ذلك كان الله هو المتولى لقلب عبده ، والمتكفل بتنويره بأنوار العلم ،
وإذا ما تولى الله القلب ، فاضت عليه الرحمة وأشرق فيه النور ، وانشرح
الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وبذلك ينقشع عن وجه القلب
حجاب العزة ، بلطف الرحمة ، ومن ثم تتلأأ فيه حقائق الأنوار الإلهية .

وعلى هذا النحو يرتبط الذوق بالتجلى والمشاهدة من حيث أن التجلى
الشهودى يتصل بطبيعة المعرفة كنوع من أنواع الكشف فيفنى فيه المتجلى
له ويورثه الحق تعالى العلم ، بل إن العلم اليقينى عند الصوفية لا يصح إلا
عن ذلك الطريق .

وهذا المنهج الذوقى هو منهج معروف لدى الصوفية ويقوم على الإلهام
الذى يقع فى القلب من غير حيلة وتعلم واجتهاد من العبد ، بل وبدون أن
يعرف العبد من أين حصل له ؟ وكيف حصل ؟

وبذلك يكون الصوفى قد جمع بين منهجين : أحدهما : المنهج الذوقى
القائم على الإلهام والنفث فى الروع .

والآخر : هو المنهج الاستدلالى القائم على النظر والبحث العقلى .

ونبه هنا إلى أن مرحلة الذوق الصوفى تأتى بعد انتهاء مرحلة النظر .

= (الطوسى : اللمع ، ص : ٢٢٨)

.....

= وهذا المنهج الذوقى الذى يقوم على المجاهدة والتربية الصوفية ، هو المنهج الذى وصفه الشيوخ للمجتمع الصوفى فيما بين بعضهم بعضاً تدريباً على إنكار الذات إنكاراً تاماً للوصول بالأعمال كلها إلى المحبوب سبحانه وتعالى .

لذلك كان المنهج الأجدر بالاتباع فى بلوغ السعادة هو قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود .

من هنا قيل : من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف .

وبجانب ذلك لم يهمل الصوفية المنهج النقلى . وهذا المنهج هو منهج السلف الصالح القائم على الأخذ من الكتاب والسنة .

وعلى ضوء ما تقدم يمكننا المقارنة بين النظر والذوق فنقول :

إن ينبوع الأخلاق والآداب هو العقل الذى جعله الله تعالى أصلاً للدين . وعماداً للعالم ، والعقل أساس التكليف والتدبير .

(حسن محمد الشرقاوى : الشريعة والحقيقة ، ص : ٥١) .

وقال حكيم : العقل حجة الله القاطعة البالغة . وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد عباده الكلمة ، وإلى من خصه به أرسل رسله . ثم العقل جوز إرسال الرسل . والنقل لا يأتى بما يناقض العقل .

وإنما يروى بما يزكى قضاءه ويصقل مرائى أحكامه أحسن صقل .

ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس .

وهذا ما نطق به الغزالى : يستحيل على الوحى الإلهى والشرع الحق أن يرد بما ينبو عنه العقل . بمعنى أن يكون برهان العقل يدل على استحالة . =

.....

= نعم ليس بمحال أن يرد بما يقصر العقل عن إدراكه ولا يستثقل الإحاطة
بكنهه . وليس كل ما لا يدركه العقل محالاً فى نفسه .

(محمد جلال الدين القاسمى : دلائل التوحيد . تقديم ومراجعة محمد
حجازى . القاهرة : الدار السعودية بمصر ، مطبعة المدنى ، الطبعة الأولى ،
سنة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، ص : ١٣٧) .

ويدلى ابن تيمية برأيه فيقول : العقل الصريح موافق الرسول صلى الله عليه
وآله وسلم دائماً لا يخالفه فإنه الميزان مع الكتاب . لكن قد تقصر العقول
عن معرفة تفصيل ما جاء به فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاووا
فيه .

ويعود فيقول : وإنما أردنا بيان قيمة العقل فى نظر الشرع ليعلم من يدعى
أن العقل لا يلتزم مع الدين أنه مفتر عليه لأن العقل أصل النقل . أى أصل
علمنا بصحته .

(المصدر السابق ، هامش ص : ١٣٩) .

لكن الذى لا ينبغي إغفاله أن نوضح هنا أن المعرفة الذوقية غير العلوم
الكسبية والعقلية ، إذهى نور يقذفه الله فى قلب عبده المؤمن المخلص
فيصبح مشرقاً بها ، بل يصبح علماً وعالمًا ومعلومًا جميعاً . فينال بقدر
علمه وعمله بعضاً من الأسرار الإلهية ، أو العلوم الربانية التى لا يمكن أن
يحظى بمعرفتها فى أزمنة متطاولة عن طريق النظر أو الفكر .. لأنها فوق
حدود العقل ، فلا يقدر العقل مهما كان سليماً على استيعابها ، أو الحكم
عليها ، فهى تتعدى حدوده ومقاييسه وأحكامه ومنطقه .

ويشهد لذلك ما رواه الغزالى أن هناك أموراً تخفى على العقل بصفة
عامة ، وأن ما يخفى عليه منها نوعان :

=

.....

= نوع قد تدركه بعض العقول ولكنه يبقى خفياً ومحجّباً بالأسرار بالنسبة إلى معظم البشر .

ونوع آخر لا يتسنى إدراكه لأي عقل إنساني مهما بلغت حدته وقوة نفاذه ، وهو ذلك العظيم المطلق الذي جاوز جميع حدود العقل ، حتى لم تتصور الإحاطة بكنهه .

(الغزالي : المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، مكتبة الجندى ، سنة ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، ص : ١٧) .

وهذا الطور الذى يفوق العقل ويسمو على مرتبته هو طور البصيرة الذى يتحقق كاملاً فى الأنبياء ، وقد يتحقق بصورة أدنى عند بعض الصوفية ، وهذا الطور هو الذى يعتمد فى المعرفة على القلب أسمى من طور العقل الذى تعتمد عليه المعرفة العقلية .

وهذا شئ يرى الغزالي أن البرهان العقلى يقرر إمكانه ، بل ضرورته .

فمن المعروف بداهة أن مراتب الإدراك أو درجاته متفاوتة فى المعرفة الإنسانية وهى تبدأ بالإحساس من لمس ، وبصر ، وشم ، وسمع ، وذوق ، ثم يرتقى الإنسان إلى مرتبة التمييز التى يدرك فيها المرء أموراً أرقى من عالم المحسوسات ، كالمبادئ المنطقية التى يمكن التمثيل لها بقولنا مثلاً أن الشئ لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً فى آن واحد ، وأن الكل أكبر من الجزء .

وبعد مرحلة التمييز يأتى العقل فيدرك الواجبات والمستحيلات .

وإذن ليس من المتناقض فى شئ أن يقرر العقل أن هناك طوراً =

.....

أسمى منه وهو البصيرة .

وصاحب الذوق لا ينكر العقل ، ولكنه يحدد للعقل مجاله وحدوده ونشاطه ، ثم يرتفع عن ذلك بطريق الرياضة والمجاهدة ، حتى يحظى بالعلوم الوهية التى مدارها القلب ، وليس العقل .

من هنا يجب أن نفهم أن مجال العقل هو عالم الشهادة وليس للعقل عمل فيما هو فوق مجاله . أى عالم الملكوت .

(الغزالى : مشكاة الأنوار ، تحقيق أبو العلا عفيفى . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، ص : ٦٦) .

لذلك فإن الغزالى يؤكد أن كل أمور الدين لا يوجبها العقل ولكنها تجب فى نظر الغزالى بالشرع .

والطريف أن الغزالى يستخدم العقل لكى يثبت بالبرهان العقلى نقص العقل وعجزه عن بلوغ ما فيه خيره وسعاده .

وهذا هو المنهج الذى استخدمه فى كتابه : « تهافت الفلاسفة » . الذى أثبت فيه أخطاءهم فيما تناولوه من مسائل فى النفس والعلم والخلق وغلطهم حيث أثبتوا حشر الأرواح دون الأجساد .

(الغزالى : تهافت الفلاسفة ، تحقيق سليمان دنيا . القاهرة : دار المعارف الطبعة السادسة ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص : ٢٨٧) .

من هنا جاء نقد الغزالى للفلاسفة فى كونهم استخدموا العقل فيما يقصر عن إدراكه لأنه فوق طوره . فالإنسان لا يستطيع أن يعرف الله وحكمته وما به خيره وصلاحه بمقايسته بعقله ، ويزن أفعاله بميزان مصلحته وأغراضه .

.....

= ولكتنا إذا ابتعدنا شيئاً عن دائرة المسائل المادية الضيقة ودخلنا فى مجال العقيدة ، أو التشريع ، أو أمور الآخرة ، فإننا سوف نرى العقل كثيراً ما تتعثر خطاه ، وذلك لأن المقياس العقلى للتمييز بين الحق والباطل فى عالم العقليات المجردة لم يوجد ، ولن يوجد .

وعلى هذا فإن كل من يقرأ التاريخ الفلسفى سوف يعرف أن السير فى مسائل العقائد والأخلاق على المنهج اليونانى ، المعتمد على العقل ، لا بد وأن يؤدى إلى الاختلاف والتعارض وعدم الوصول إلى نتيجة يقينية .

(عبد الحليم محمود : الحمد لله هذه حياتى . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص : ١٠٢) .

من أجل ذلك فلا يمكن أن نتخذ من العقل معياراً ثابتاً نحكم بواسطته على الأشياء ، ولهذا فقد جاء الدين هادياً للعقل فى بعض الأمور التى لا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدونها . ومن تلك الأمور :

١- مسائل ما وراء الطبيعة ، أى العقائد الخاصة بالله سبحانه وتعالى وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وبالיום الآخر ، والغيب الإلهى على وجه العموم .

٢- المبادئ الأخلاقية الأساسية ، أى الخير والفضيلة ، وما ينبغى أن يكون عليه السلوك الإنسانى ليكون الشخص صالحاً .

٣- التشريع فى قواعده العامة التى ينتظم بها المجتمع ، وكذلك بعض القواعد الخاصة التى تسعد بها الإنسانية .

ومن هنا كان الحكم بعجز العقل . إذ الأمر مجرد ذوق وحس ووجدان .

(عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ص : ١٨) .

.....

من هنا قال ابن عطاء الله : « العقل آلة العبودية ، لا الإشراف على الربوبية .

(كامل سعيان : سبحان الله . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص ٩٦) .

ويذكر صاحب : « المنازل » أن الذوق على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : ذوق التصديق : ويذوق فيه طعم الوعد . فلا يعقله ظن ، ولا يقطعه أمل ، ولا تعوقه أمنية .

ويريد هنا - كما يقول ابن قيم الجوزية في شرحه - أن العبد الصادق إذا ذاق طعم الوعد من الله على إيمانه وتصديقه وطاعته ثبت على حكم الوعد واستقام .

الدرجة الثانية : ذوق الإرادة طعم الأنس . فلا يعلق به شاغل ، ولا يفسده عارض ، ولا تكدره تفرقة .

الدرجة الثالثة : ذوق الانقطاع : طعم الاتصال ، وذوق الهمة : طعم الجمع ، وذوق المسامرة : طعم العيان . والفرق بين هذه الدرجة والتي قبلها أن تلك الدرجة مع الأحوال . وهذه الدرجة خروج وفناء عن الأحوال .

فإن المتمكن في حال فنائه عن الأسباب ، أعمالاً كانت أو أحوالاً ، هو الذي يجد طعم الاتصال حقيقة . فإنه على حسب التفاته إليها يكون انقطاعه .

وكلما تمكن في جمع همه على الحق سبحانه ، وجد لذة الجمع عليه ، وذاق القرب منه ، والأنس به .

فالانقطاع عند القوم : هو أنس القلب بغيره تعالى . والالتفات إلى ما سواه . =

فمن علوم الأولياء : علم الأوائل والأواخر ، وعلم الأسماء
الإلهية ، وعلم الأسماء المركبة ، وعلم عواقب الأمور ، وعلم الملك ،
وعلم الملكوت ، وعلم الزمان ، وعلم أرباب الطرد في المطرودين
وأسباب السعادة (*) في المقربين التي لا يشوبها شقاء .

= والاتصال : تجريد التعلق به وحده ، والانقطاع عما سواه بالكلية .

فقوله : « ذوق الانقطاع طعم الاتصال » . استعارة .

والإلا فالذائق هو صاحب الانقطاع ، لانفس الانقطاع . فإنه هو الذي ذاق
الانقطاع والاتصال .

وبالجملة : فالمراد أن المنقطع هو المحجوب ، والمتصل هو المشاهد بقلبه ،
المكاشف بسرّه . وأحسن من التعبير بالاتصال : التعبير بالقرب فإنها
العبارة السديدة التي ارتضاها الله ورسوله في هذا المقام . وأما
التعبير بالوصل والاتصال ، فعبارة غير سديدة ، ينشبت بها الزنديق
الملحد ، والصدّيق الموحّد ، فالموحد يريد بالاتصال : القرب ،
وبالانفصال والانقطاع : البعد ، والملحد يريد به الحلّول تارة ، والاتحاد
تارة أخرى .

ويتفق الباحث في هذا الصدد مع ابن قيم الجوزية فيما ذهب إليه بصدّد
الاتصال والانفصال الذي يعنى القرب والبعد .

فالمعنى الإسلامى إنما هو القرب والبعد .

(*) السعادة : ينبغى أن نوضح فى هذا المقام أن الحق سبحانه وتعالى رسم
لعباده طريق السعادة فى دنياهم وآخرهم . ولا شك أن الطريق الإلهى
الذى رسمه الله سبحانه وتعالى لعباده لا استحالة فيه ولا مشقة . وهذا =

.....

= الطريق سلكه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم . وكذلك السلف الصالح من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

والسعادة الحقيقية في نظر الإمام الغزالي إنما هي السعادة الأخروية ، وأن هذه السعادة ، بقاء بلا فناء ، ولذة بلا عناء ، وسرور بلا حزن ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل فيه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا بالله سبحانه وتعالى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت : الآية : ٦٤] .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، فأكرم الأنصار والمهاجرة » [رواه البخاري] .

وكذلك ربط الإمام الغزالي بين سعادة الإنسان ومعرفة لنفسه فيقول : « اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس . كمال قال سبحانه وتعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [سورة العنكبوت : الآية : ٥٣] .

وهكذا يصل العبد الصالح الصادق إلى السعادة الأخروية عن طريق معرفة الله تعالى ، فالأحرى بالإنسان أن يستقيم ويخضع لإرادته للعقل ، ويخضع العقل للعمل الصحيح الذي يحص بالنية وإخلاص الوجه لله سبحانه وتعالى . فإذا استقام العقل مع العلم مع النية استقامت الإرادة .

من هنا يستطيع الإنسان عن طريق العقل والقلب أن يصل إلى مفهوم السعادة التي هي ثمرة من ثمار العلم الصحيح .

.....

= وما لاشك فيه أن سعادة الإنسان لن تتحقق في الدنيا والآخرة إلا إذا اتفقت نظرته إلى الدنيا وما فيها من أسباب ووسائل مع غاية العلم الصحيح والفطرة السليمة .

ومن ثم ينبغي على الإنسان أن يستعمل كل ما في الحياة من وسائل وأسباب لتحقيق هذه الغاية العظيمة التي خلق من أجلها فيسخر كل شيء من أجل كلمة التوحيد حتى يستحق أن يكون خليفة الله في أرضه . وعلى ذلك ترتبط مسئولية الإنسان ارتباطاً شديداً بغاية العلم الصحيح . ومن ثم تتنظم الأخلاق ونعم الفضيلة بديلاً عن الرذيلة والنظام بدلاً عن الفوضى .

وهنا نستطيع أن نثبت بما لا يدعو مجالاً للشك أن الأمن النفسي والسكينة والطمأنينة القلبية لن تتحقق للإنسان في هذه الدنيا إلا بالإخلاص في العلم لله وحده لا شريك له ، وفي ذلك يكون سعادته في الدنيا والآخرة ، فبقدر سعة علمه ومعرفته لله عز وجل يكون سعة ملكه وتنعمه في الجنة .

ولقد قيل السعيد : من عرف حقاً ما عليه فسارع في الوفاء ، والشقي من جهل ما عليه وطالب غيره بحقوق ليست له ، فأحب نفسه وعاداه الله ورسوله والناس أجمعون .

فمن ساد بأخلاقه دام سؤدده ، ومن ساد بعلمه كملت سعادته ، ومن ساد بتقواه فاز في الدنيا والآخرة .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : من جوامع الكلم ، ص : ١٠) .

من هنا قيل : نيل السعادة بالعبادة . وكمال السعادة لك أن يأمرك ويعينك وينسب لك ، ثم يهب فضله العظيم من حسن الجزاء لك . =

ومنها علم ما يمحي كل وقت في لوح كل إنسان وما ثبت ،
ومنها علم ما يشترك فيه الحق والعالم وما يختص به كل واحد .
ومنها علم الحضرة (*) التي تقلب الحقائق ولا تقلب نفسها
وهي من جملة الحقائق .

= فمن علامات السعادة على العبد تيسير الطاعة عليه ، وموافقته للسنة في
أعماله ، وصحبته لأهل الصلاح ، وحسن خلقه مع الإخوان ، وبذل
معروفه للخلق ، واهتمامه للمسلمين ، ومراعاته لأوقاته .
(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٥٨) .

(#) الحضرة : تعد الحضرة من المستلزمات الأساسية التي يلتقي فيها الشيخ
بمريديه إلا أن الحضرات ليست على مستوى واحد ، فهناك حضرة
أسبوعية أو يومية للمريدين الذي يرغبون في العلم والدرس ، فتقرأ
وتناقش بعض كتب الفقه والتفسير ، وهناك حضرة أخرى للذكر
والسماع . كما أن في الحضرة يجاب عن أسئلة المريدين وما يدور في
أذهانهم من استفسارات .

(حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ١٤٣) .

فإذا وجد غريب بالحضرة اقتضت على القراءة والشروح والتفاسير .

وهناك حضرات أو مجالس للمريدين المتقدمين (الخاصة) . وفيها يعرض
موضوع أو مشكلة اجتماعية أو أخلاقية أو صوفية وتناقش . ويدلى الشيخ
برأيه ووجهة النظر التي يعتقدها .

وقد قيل : الحضور من الحضرة ، والحضرة هي حضور القلب
بتوارد البرهان ومجارة الأسماء الإلهية بما هي عليه من الحقائق .
وهو حضور القلب مع الحق في الاستفاضة من أسمائه . =

ومنها علم تطوير أعمال العبد إلى صور كلاب وخنازير

= (الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، هامش ، ص : ٩٠) .

وتعد الحضرات الصوفية من المراسم التي يتسم بها مجالس الصوفية حيث يحضر المريد رافعاً نعليه ويجلس بأدب ، بعد تحية شيخه ، وتقبيل يده ، ولا يسلم على المريدين الآخرين باليد ، ويقتصر على قوله : « السلام عليكم » ثم يجلس بالمكان الخالي مستمعاً منصتاً ، وبالحضرة يتوجب على المريد أن يغطي رأسه ولو بمنديل إذا لم يكن لديه « طاقية » ، ولا يستطيع الدخول إلى الحضرة متعللاً أو عارى الرأس ، كما أنه من الملاحظ أن المريد لا يلبس خاتماً ذهبياً حيث يعتقد الصوفية أن لبس الذهب من المكروهات .

ويحدثنا ابن عربي في : « الفتوحات » عن الحضرة الإلهية والحضرة الإنسانية : يرى أن للحضرة الإلهية حروفاً ثلاثة تختص بها وهي الألف والزاي واللام تدل على معنى الأزل ، وأن بسائط هذه الحروف واحدة في العدد .

وأما الحضرة الإنسانية فلها حروفٌ ثلاثة أيضاً كما أنهما يتفقان في العدد غير أن حروف الحضرة الإنسانية هي : النون والصاد والذال ، لذلك فهناك خلاف من حيث مواردها لأن مقام العبودية لا يشترك مع الربوبية في الحقائق ، حيث إن الله رب والعبد مخلوق ، فلا بد أن تكون الحقائق متباينة . لهذا باينهم الحق تعالى بقربه كما باينوه بحدوثهم .

كما يرى أن للحضرة أكثر من معنى ... فهناك العشق الإلهي حضرة ... ولأصحاب المعرفة حضرة ... وكلها حق وصدق ، ولكنها جميعاً حضرات جزئية ، كل ينظرها من زاويته . وأول حضرة في رأى ابن عربي هي حضرة الإيجاد ويسمونها الألف واللام ، ولفظها لا إله إلا الله . فهذه حضرة الخلق والخالق .

وغيرهما وهو علم واسع .. ومنها علم المواثيق والعهود . ومنها علم مراتب الأرواح الملكية فى عباداتهم . ومنها علم الغيوب التى لاتعلم . ومنها علم إيضاح المهمات ، وعلم الليل والنهار . ومنها علم الفصل بين القبضتين . ومنها علم الجهات والإحاطة . ومنها علم المعاملة بين الخلق على اختلاف أصنافهم بما يسرهم لا بما يسؤهم ، وهو علم عزيز دقيق .

ومنها علم الملائكة بالله ؟ الذى لا يعلمه بشر حتى يتجرد عن بشريته ويتجرد عن حكم طبيعته ولا يدرك إلا ذوقاً . ومنها علم آداب الدخول على الله .

ومنها علم صفات من يدعى أنه جليس الله . ومنها علم الأسباب التى تمنع من قبول العمل الخالص حتى تعلم العالم فى غير معمل . ومنها علم مقادير الحركات الزمانية . ومنها علم المكر الخفى وتعجيل الجزاء عليه .

ومنها علم الدار الآخرة وماهى ؟ وما نتيجتها هناك ؟
ومنها علم موازين الرجال : فمنهم رجل ، ونصف رجل ، وربع رجل ، وهكذا .

ومنها علم الأسباب فيعرف الولي جميع الحيوانات براً وبحراً وأسماءها وأعمارها (ومعرفة حركة كل منها) (*) فما بالك بمن لم

(*) زيادة أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

يعرف حمارته التي يركبها كل يوم ولا تعرفه هي . ومنها علم
ظهور الباطل في صورة الحق .

ومنها علم الستر والتجلى (*) . ومنها علم مراتب المنصرفين
يوم القيامة . وفي هذا القدر كفاية . ومن أراد الزيادة على ذلك
فعليه بكتابنا المتقدم ذكره والله يهدي من يشاء إلى الصراط
المستقيم .

(*) **التجلى** : هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

(ابن عربي : اصطلاحات الصوفية ، من رسائل ابن عربي ، تعليق عبد
الرحمن مسعود . القاهرة : عالم الفكر ، الطبعة الأولى ، سنة
١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص : ١٧) .

وتجلى الحق سبحانه وتعالى لعباده عن مشهد يرى فيه العبد جريان القدرة
في الأشياء ، فيشهد بعينه حركتها وسكونها ، ويشهد بقلبه أنه سبحانه
محركها ومسكنها . والعبد في هذا المشهد مسلوب الحول والإرادة ، ناف
الفعل عن نفسه مثبت إياه للباري عز وجل .

ولكل من التجليات الإلهية آية يشهد بها العبد أفعال الله سبحانه وتعالى
وصفاته بحسب ما يشهده في الأشياء التي يظهر فيها التجلى ، كمشاهدة
موسى عليه السلام مثلاً للنار البيضاء في الشجرة الخضراء تشتعل بها ولا
تتحرق ، ومشاهدة تدكدك الجبل مع عظمه ، ومشاهدة غرق فرعون
وجنوده مع جبروته .

ففي الأولى : تجليه تعالى بالمبدع ، وفي الثانية : تجليه تعالى بالقادر ، وفي
الثالثة : تجليه تعالى بالمنتقم ، فمن مثل هذه المشاهد يدرك العبد =

.....

= معنى تجلى الحق جلّ وعلا بأفعاله وصفاته لا بذاته ، لأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الجسميّة وعن التحيز في المكان ، وإنما أثار قدرته تظهير للعين في تحرك الموجودات وسكونها ، فيقال : تجلى الله سبحانه وتعالى للشيء بكذا ، كقول بعضهم :

وفي كل شيء له آية .. تدل على أنه الواحد

التجلى كما أوضحنا لا يغير شيئاً من الصفات الأزلية .

ويقول ابن عطاء الله في : « الحكم » : « وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به وإلاّ فجل ربنا أن يتصل به شيء أو يتصل بشيء » .

وأهل الشهود متفاوتون : فمنهم من يحصل له تجلى الأفعال ، وهو أول التجليات عندهم ، فيفنى فعله وفعل غيره ، في فعل الله تعالى ، فلا يرى فاعلاً غير الله تعالى ، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار ، وهذه أول مراتب الوصول .

ومنهم من يحصل له تجلى الصفات ، فيقف في مقام الهيبة والأنس بما يشاهده في قلبه من الجلال والجمال ، وهذه رتبة ثانية من رتب الوصول .

ومنهم من يرقى إلى مقام الفناء مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة « فيغيب في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب ، ونوع من تجلى الذات لخواص المقربين ، وهو أيضاً رتبة في الوصول ، تسمى عين اليقين ، وفوق هذا رتبة حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا ملح ، وهو سرّيان نور المشاهدة ، في كلية العبد ، حتى تحظى به روحه ، وقلبه ، ونفسه ، حتى قالبه ، وهو من أعلى رتب الوصول .

(ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح محمد مصطفى أبو العلا ، ج ٢ . ص : ٤٠ - ٤١) .

.....

= كما أن التجلى هو أعلى الطرق إلى العلم بالله ودونها علم النظر ..
والتجلى هو أشرف الطرق إلى تحصيل العلوم وهى علوم الأذواق . فإذا
تجلى الحق إما منة أو إجابة لسؤال فيه فيتجلى لظاهر النفس وقع الإدراك
بالحس فى الصورة فى برزخ التمثيل .

ويرى أهل الكشف أن الله يتجلى فى كل نفس ولا يكرر التجلى . ويرون
أيضاً شهوداً أن كل تجل يعطى خلقاً جديداً ، ويذهب بخلق ، فذهابه هو
عين الفناء عند التجلى والبقاء لما يعطيه التجلى الآخر .

(على عبد الجليل راضى : الروحية عند ابن عربى . القاهرة : دار نهضة
مصر ، سنة ١٩٤٦ م ، ص : ١٧٩) .

والتجلى على مقامات مختلفة . فمنها ما يتعلق بأنوار المعانى المجردة عن
المواد من المعارف والأسرار . ومنها ما يتعلق بأنوار الأنوار . ومنها ما يتعلق
بأنوار الأرواح وهم الملائكة . ومنها ما يتعلق بأنوار الرياح . ومنها ما يتعلق
بأنوار الطبيعة . ومنها ما يتعلق بأنوار الأسماء . ومنها ما يتعلق بأنوار
المولدات والأمهات والعلل والأسباب .

ونوضح فى هذا المقام أن للحق سبحانه وتعالى تجليات من كل حضرة من
الحضرات الأسماوية وأعلامها هو التجلى الإلهى . ويتجلى الحق سبحانه
وتعالى لكل فرد من أفراد الموجودات بما يليق به من سر التجليات .

(ابن عربى : الحكم الحاقية ، ص : ٦) .

والناس فى تجليات الأسماء على أنواع ، وسنذكر طرفاً منها إذ لا سبيل إلى
إحصاء جميع الأسماء ، ثم إن كل اسم يتجلى به الحق فإن الناس فيه
مختلفون وطرق وصولهم إليه مختلفة . فمنهم من تجلى الحق عليه من =

.....

= حيث اسمه القديم ، وكان طريقه إلى هذا التجلي أن كشف له الحق عن كونه موجودا في علمه قبل أن يخلق الخلق ، إذ كان موجودا في علمه بوجود علمه ، وعلمه موجود بوجوده سبحانه ، فهو قديم ، والعلم قديم ، والمعلوم من العلم لاحق بالعلم فهو قديم ، لأن العلم لا يكون علما إلا إذا كان له معلوم ، فالمعلوم هو الذي أعطى العالم اسم العالمية ، فلزم من هذا الاعتبار قدم الموجودات في العلم الإلهي ، فمرجع هذا العبد إلى الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه القديم ، فعندما تجلى له من ذاته القدم الإلهي اضمحل حدثه ، فبقى قديما بالله تعالى فانياً عن حدثه .

ومنهم من تجلى الله عليه من حيث الحق ، وكان طريقه إلى هذا التجلي بأن كشف له سبحانه وتعالى عن سر حقيقته المشار إليها بقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

« سورة الحجر : الآية : ٨٥ » .

فعندما تجلت له ذاته من حيث اسمه : « الحق » فنى عن الخلق وبقى مقدس الذات منزّه الصفات .

ومنهم من تجلى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الواحد » . وكان طريقه إلى هذا التجلي بأن كشف الحق له عن تمتد العالم وبروزه من ذاته سبحانه وتعالى كبروز الموج من البحر فشهد ظهوره سبحانه وتعالى في تعدد المخلوقات بحكم واحديته فعند ذلك اندك جبله وصعق كليمه فذهبت كثرته في وحدة الواحد سبحانه وتعالى ، وكانت المخلوقات كأن لم تكن ، وبقى الحق كأن لم يزل .

ومنهم من تجلى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « القدوس » وكان طريقه بأن كشف له عن سر : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ =

.....

= « سورة ص : الآية : ٧٢ » . فأعلمه أن روحه نفسه لاغيره ، وروح الله مقدسة منزّهة ، فعند ذلك تجلّى له الحق في اسمه : « القدوس » ففنى من هذا العبد نقائص الأكوان ، وبقي بالله تعالى منزّهاً عن وصف الحدثان .

ومنهم من تجلّى له سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الظاهر » فكشف له عن سرّ ظهور النور الإلهي في كثائف المحدثات ليكون طريقاً له إلى معرفة الله هو الظاهر ، فعند ذلك تجلّى له بأنه الظاهر ، فبطن العبد ببطونه فناء الخلق في ظهور وجود الحق .

ومنهم من تجلّى له الحق سبحانه وتعالى من حيث اسمه : « الباطن » وكان طريقه بأن كشف له عن قيام الأشياء بالله ليعلم أنه باطنها فعند ذلك تجلّى له ذاته من حيث اسمه الباطن طمس نوره بنور الحق ، وكان الحق له باطناً وكان هو للحق ظاهراً .

ومنهم من تجلّى له الحق من حيث اسمه : « الله » فالطريق إلى هذا التجلّى غير منحصر بل إلى تجلّى كل اسم من أسماء الله تعالى : فإذا تجلّى الحق لعبده من حيث اسمه الله ففنى العبد عن نفسه وكان الله عوضاً عنه له فيه ، فخلص هيكله من رق الحدثان وفك قيده من قيد الأكوان . هذا عن تجلّى الأسماء .

أما عن تجلّى الصفات ، فإذا تجلّت ذات الحق سبحانه وتعالى على عبده بصفة من صفاتها ، سبح العبد في فلك الصفة إلى أن يبلغ حده بطريق الإجمال لا بطريق التفصيل ، فإذا سبح العبد في فلك صفة واستكملها بحكم صفة أخرى ، فلا يزال كذلك إلى أن يستكمل الصفات جميعها .

(الجليلي ، عبد الكريم : الإنسان الكامل في معرفة الأواخر الأوائل . =

.....

= حاضر في أنيته ، ومنهم فاقد للوصول ، ومنهم واجد في الشهود ، ومنهم حائر في دهشته ، ومنهم داهش في حيرته ، ومنهم ذائب في فناء ، ومنهم آيب في بقاء ، ومنهم ساجد في عدم محض ، ومنهم عابد في وجوب فرض ، ومنهم مستهلك في وجود ، ومنهم مستغرق في شهود ، ومنهم محترق في نار الأحدية ، ومنهم مغترف في بحار الصمدية ، ومنهم فاقد للأنس واجد للقدس ، ومنهم واجد للأنس فاقد للقدس ، تدهش الناظر أحوالهم وتهدى الحائر أقوالهم .

وتجليات الحق على ثلاثة أقسام :

- ١ - قسم أظهرهم ليظهر فيه كرمه وإحسانه وهم أهل الطاعة والإحسان .
 - ٢ - وقسم أظهرهم ليظهر فيه عفوه وهم أهل العصيان من أهل الإيمان .
 - ٣ - وقسم أظهرهم ليظهر فيه نقمته وغضبه وهم أهل الكفر والطغيان .
- فهذا سر تجليه تعالى في الجملة .

(السيد المنوفي : التصوف الإسلامي الخالص ، ص : ١٦٤) .

ويتجلى الحق سبحانه وتعالى لأهل المحبة بصفة الجمال والمحبة ، فسكروا بخمر لذيق القربة ، شغلهم المعبود عن أن يكونوا من العباد ولا من الزهاد ، اشتغلوا بالظاهر والباطن وهو الله ، فحجبوا عن كل ظاهر وباطن ، وزهدوا في التنعيم والإنعام ، واشتغلوا بمشاهدة الملك العلام .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ١٤١) .

وكما أن صور التجلي لانهاية لها ، فكذلك العلم بالله ليس له نهاية ولا غاية يقف عندها العارف ، بل العارف في كل زمان يطلب الزيادة من العلم به .
قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ « سورة طه : الآية : ١١٤ » . =

وقال^(١) ، لا يجوز لشيخ أن يلحق أحداً من الخلق إلا أن يكون يعرف موارد حركاتهم ومصادرها ويعرف الأنفاس^(*) والنظرة ومآلها ويعرف بالشتم أهل الطريق الذين يصلحون من الذين لا يصلحون . ويعرف ما قسم لتلميذه من الأعمال حتى يأمره بها على وفق القسمة السابقة ومن لا يعرف ذلك لا يأمر الخلق بأن يفعلوا ما لم يقسم لهم ما لم يستطيعوا بشرطه وأن يشاهد تصارييف الأقدار في الخلق فيأمرهم بضلع ما أراد الله في كل وقت .

= وقد قيل : التجلى : هو تأديب وتهذيب وتذويب ، فالتأديب محل الاستتار ، وهو للعوام ، والتهذيب للخواص وهو التجلى . والتذويب للأولياء وهو المشاهدة .

(السيد المنوفي : التصوف الإسلامى الخالص ، مرجع سابق ، ص : ١٦٤) .

(١) فى الأصل : غير واضحة ومطموسة .

(#) الأنفاس : مفردهما النفس بفتح الفاء ، وهو ترويح القلب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال . فكان صاحب الوقت مبتدئاً ، وصاحب الأنفاس منتهياً ، وصاحب الأحوال بينهما . فالأحوال وسائط والأنفاس نهاية التلقى .

فالأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأحوال ، والأنفاس لأهل السرائر .

= (القشيري : الرسالة ، ص : ٧٢ - ٧٣) .

.....

= كما أن النَّفْس روح يسلطها الله على نار القلب ليطفىء شرورها .
(ابن عربي : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٤) .

وهنا ينبغي أن ننبه أن النَّفْس الرحمانى هو الوجود الإضافى الوجدانى بحقيقة المتكثر بصور المعانى التى هى الأعيان وأحوالها فى الحضرة الواحدية سمى بها تشبيهاً بِنَفْس الإنسان المختلف بصور الحروف مع كونه هواءً ساذجاً فى نفسه ونظر إلى الغاية التى هى ترويح الأسماء الداخلة تحت حيلة اسم الرحمن عن كونها ، وهو كُمُون الأشياء فيها وكونها بالقولة كترويح الإنسان بالنَّفْس .

وقد قيل : أفضل العبادات عدّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى .

وقيل أيضاً : خلق الله سبحانه وتعالى القلوب وجعلها معادن المعرفة ، وخلق الأسرار وراءها وجعلها محلاً للتوحيد ، فكل نَفْس حصل من غير دلالة المعرفة إشارة التوحيد على بساط الاضطراب فهو ميت وصاحبه مسئول عنه .

ومن مرويات الدقاق : لا يسلم له النَّفْس لأنه لا مسامحة تجرى معه ، والمحـب لا بدله من نَفْس إذ لو لا أن يكون له نَفْس لتلاشى لعدم طاقته .

(القشيري : الرسالة ، ص : ٧٣) .

ويورد صاحب : « اللمع » النَّفْس . أى نَفْس العبد .

(الطوسى : اللمع ، ص : ٤٢٤) .

وقال الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه : « أخذ على العبد حفظ أنفاسه على ممر أوقاته » .
=

.....

= ويقول القائل :

وما تَنَفَّسْتُ إِلَّا كُنْتُ مَعَ نَفْسِي • تَجْرِي بِكَ الرُّوحُ مِنِّي فِي مَجَارِيهَا
ويقول الشافعي :

يا وَاغْظِ النَّاسَ عَمَّا أَنْتَ فَاعِلُهُ • يَأْمَنُ يَعْدُ عَلَيْهِ الْعَمْرُ بِالنَّفْسِ
احْفَظْ لِشَيْبِكَ مِنْ عَيْبٍ يَدْنِسُهُ • إِنَّ الْبَيَاضَ قَلِيلُ الْحَمَلِ
كما قيل : لو صح لعبد في عمره نفس من غير رياء ولا شرك لأثرت
بركات ذلك لله إلى آخر الدهر .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٩)

وقد قيل : كل نفس له سجل ممتد من السماء إلى الأرض ، وكل الحقائق
تمد الإنسان لأجل أن يشكر ، وخير الشاكرين من عرف نفسه .
كما قيل : من أقبل على الله ألف عام ثم التفت نفْساً ؛ فإنه بقدر ما أقبل ،
ومن لم يتجاوز العلم ، لم يحظ بنفس من المعلوم .
وقيل أيضاً : نفْسٌ مع الحي حياة القلوب ، ونفْسٌ في حياة القلب خير من
حياة الفردوس .

ويختلف الباحث والمحقق هنا بصدد هذا النص في قوله : خير من حياة
الفردوس . فأى حياة أعظم من حياة الفردوس مهما كانت هذه الحياة من
وصف اتسم بالسعادة والعيشة الهنية فهي في النهاية حياة دنيوية وليست
أخروية فلا أعظم ولا أهنأ من حياة الفردوس في الجنة لأنها بوصف رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم لها كما أخبر عن الحق سبحانه وتعالى في
حديثه القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

=

هذا ما أجمع عليه الأولياء . فمن لم يصل إلى ذلك فليدخل
في غمار الناس ولا يتصدر لشيء من صفات الأولياء يهلك نفسه .
وقد كثر في هذا الزمان الخبيث التصدر لباب السلوك من
القاصرين لقلّة من يناقشهم لأن الأولياء كلهم استتروا لعظم
ما يشاهدون من البلاء .

ولو عرفوا أن هؤلاء المدعين ليس لهم قدم في الولاية
مقتوهم ولو كانوا من قومهم . لكنهم يعلمون أنهم ليسوا منهم فهم
يتخبطون في ظلام .

= ولا شك أن هذا في حياة الفردوس في الجنة .

ومن الضروري أن نوضح هنا أن للمؤمن ثلاثة أنفاس لا رابع لها .
الأول : نفس في تحصيل العلم ، والعلم قسمان : قسم يعمل به فوراً مثل
الصلاة والصيام عند وجوبه ، وعلم يؤجل حتى يتوفر المال قبل الانجاء ، أو
يأتي وقته وتستوفي شروطه مثل الحج والجهاد .

الثاني : والنفس الثاني في تحصيل ضرورياته القهرية ، من نوم ومأكل
وملبس وزواج وقضاء حاجة وغير ذلك .

الثالث : والنفس الثالث : في عمل لجلب معاشه من حرفة أو تجارة أو
زراعة .

فهذه أنفاس المؤمن الضرورية . وأما ما زاد على ذلك فيعد غفلة ، مثل
الجلوس في أماكن اللهو واللعب . ومثل ضياع الوقت فيما لا ينفع في
الدين أو الدنيا .

(أبو العزائم ، محمد ماضي : من جوامع الكلم ، ص : ٤٧) .

وقد أجمع (أهل) ^(١) الله تعالى أنه لا يجوز لولى أن يتصدر
أو يتظاهر فى الولاية فى وقت ^(*) من الأوقات حتى تجتمع
الأولياء أصحاب الدائرة والطريق ويبايعونه فى اليقظة ويدخلون
تحت طاعته كما وقع لسيدى عبد القادر الجيللى وغيره .

(١) لا توجد فى الأصل ، زيادة أضفناها لحفظ سياق المعنى .

(*) الوقت : الوقت هو لحظة من الزمن بين الماضى والمستقبل ويكون العبد
فيها فارغاً من الماضى والمستقبل بأن يتصل بقلبه وارد من الحق ويجمع فيه
سره بحيث لا يتذكر الماضى ولا المستقبل فى كشفه . وعلم العبد لا يستطيع
إدراك السابقة والعاقبة فينافى أن يكون فى الوقت سعيداً مع الحق ومن
اشتغل بقلبه فى أمر الغد أو خطر له أمر المستقبل يكون محجوباً عن الحق
ولا يدخل الوقت تحت اكتساب العبد ولا يحصل بالتكلف . والإنسان ليس
حرراً فى جلبه كما أنه ليس حرراً فى دفعه .

وقد قالوا : الوقت سيف قاطع . لأنه يقطع جذور المستقبل والماضى
ويمحو من القلب هم الأمس والغد .

(قسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ص : ٩٠٦) .

والوقت عبارة عن « حالتك » فى الزمن الذى لم يكن له علاقة بالماضى
ولا بالمستقبل .

وبعبارة أخرى : الوقت عبارة عن حالك فى زمن الحال ، لاتعلق له
بالماضى ولا بالمستقبل .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٨) .

ولذلك قيل : الصوفى ابن وقته . كما قيل : الوقت : ما حضرك =

.....

= فى الحال فإن كان من تصريف الحق فعليك الرضا والاستسلام حتى يكون بحكم الوقت ، ولا يخطر ببالك غيره . وإن كان ممن يتعلق بكسبك فالزم ما أهمك فيه لاتعلق لك بالماضى والمستقبل ؛ فإن تدارك الماضى تضيع للوقت الحاضر ، وكذا الفكر مما يستقبل فإن عسى أن لا تبلغه وقد فاتك الوقت . أما عن الوقت الدائم فهو الآن الدائم .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٦٨ - ٦٩) .

وقد قيل : الوقت : هو اسم لظرف الكون . حين وجد صادق لإيناس ضياء فضل مجذوب بصفاء رجاء أو عصمة بصدق خوف ، أو لهيب شوق بإشعال محبة ، أو سالك لطريق ، يسير بين تلون وتمكن ، حين تتلاشى فيه الرسوم كشف لا وجود محض .

والمقصود هنا بتلاشى الرسوم هو عدم الاحساس بصور الاكوان بما فيها صورة نفسه ، مع وجودها فى الواقع .

(ابن الخطيب : روضه التعريف بالحب الشريف ، ص : ٤٩١) .

ويرتبط الوقت عند الصوفية بالأدب ، فوقتاً يريدون به : أدب الشريعة ، ووقتاً يريدون به أدب الخدمة ، ووقتاً يريدون به أدب الحق .

فأدب الشريعة الوقوف عند مرسومها . وأدب الخدمة : الفناء عن رؤيتها ، مع المبالغة فيها . وأدب الحق : أن تعرف مالك وإلا رميت من أهل البساط .

وقد يقصد بالوقت الزمان . أو بعبارة أخرى يقصد بالوقت الزمان النفسى الذى يعيش فيه الصوفى إن سمح لى بهذا التعبير .

وقد يقال : صاحب الزمان : وصاحب الوقت ، وصاحب الحال ، =

.....

= هو المتحقق بجمعية البرزخية الأولى المطلع على حقائق الأشياء الخارج عن حكم الزمان وتصرفات ماضيه ومستقبله إلى الآن الدائم فهو ظرف لأحواله وصفاته وأفعاله ، فذلك يتصرف فى الزمان بالطى والنشر ! فهو المكان بالبسط والقبض لأنه المتحقق بالحقائق والطبائع ، والحقائق فى القليل والكثير ، والطويل والقصير ، والعظيم والصغير سواء ، إذ الوحدة والكثرة والمقادير كلها عوارض . وكما يتصرف فى الوهم فكذلك فى العقل . وافهم تصرفه فيها فى الشهود والكشف الصريح . فإن المتحقق بالحق المتصرف بالحقائق يفعل ما يفعل فى طور وراء أطوار الحس والوهم والعقل ، ويتسلط على العوارض بالتغيير والتبديل .
(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٤٨) .

ويقول الدقاق : الوقت ما أنت فيه ، إن كنت بالدينيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن . (القشيرى : الرسالة ، ص : ٥٢) .
ويريد الدقاق بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان .

وقد قال قوم : الوقت هو ما بين الزمانين ، يعنى الماضى والمستقبل . ويقولون : الصوفى ابن وقته . يريدون بذلك أنه مشغول بما هو أولى به فى الحال قائم بين بما هو مطالب به فى الحين . (المصدر السابق ، ص : ٥٣) .
كما قيل : الفقير لايهمه ماضى وقته وآتیه بل يهتم وقته الذى هو فيه .

كما قيل : الاشتغال بفوات وقت ماض تضييع وقت ثان .

وقد يريدون بالوقت ما يصادفهم من تصرف الحق لهم دون ما يختارون لأنفسهم ويقولون فلان بحكم الوقت . أى أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختيار له ويطلق الوقت على الزمان النفسى عند =

.....

= الصوفية ، مراعاة للأنفاس ، وهى عندهم أزمنة نفسية دقيقة يمر بها المرید ، وقد اشترطوا أن يكون السالك فى كل نفس من أنفاسه « وهى الأزمنة النفسية » مراعىاً لحق الله تعالى فيه .

وهنا يقول الواسطى : « أخذ على العبد حفظ أنفاسه على ممر أوقاته » .
ويختلف مفهوم الصوفية للوقت أو الزمان النفسى بمعنى توفيته اللحظة الحاضرة عن معناه اللغوى الذى يعنى المقدار من الدهر ، وأكثر ما يستعمل فى الماضى .

ولما كان التصوف عبارة عن أزمنة نفسية ، أو حالات وجدانية يعاينها السالك للطريق من خلال شعوره شعوراً داخلياً بذاته ومرور الأوقات أو الأحوال عليه ، من قبض ، وبسط ، وحزن ، وسرور ، وحب ، وخوف ، ورجاء ، وفناء ، وبقاء ، وما إلى ذلك ، وهذا بالإضافة إلى المقامات ، من توبة ، وزهد ، وصبر ، وشكر ، وتوكل ، وتفويض ، وتسليم .

وكذلك نجد الصوفية يعتمدون فى حياتهم على منهج الاستبطان النفسى ، أو التأمل الباطنى بمعنى أن يتأمل السالك نفسه بنفسه باطنياً فى إدراكه لمرور الوقت والشعور به وجدانياً ، وتوفية اللحظة الحاضرة حقها من العمل المثمر ، أثناء المجاهدة والمحاسبة والمراقبة ، والرياضات النفسية ، والترقى فى المقامات والأحوال .

ونخلص من ذلك إلى أن الصوفى يشعر بالزمان النفسى أو الشعورى ، حين ينعكس على ذاته ، منصرفاً عن العالم الخارجى ، فيشير إلى توالى أحواله النفسية على نحو لا يشعر الصوفى فيه بنفسه أو الزمان أو الأنية لأن حال الفناء ينتفى معه شعور الصوفى بالأنية ، وبالتالي ينتفى شعوره بالزمان .

فما بالك بمن لم يعرفه أحد من الأولياء ولم يعده منهم . ولم يبايعه أحد منهم . ولا قال له ولى واحد فى اليقظة : اعمل شيخاً بل استند إلى منام رآه أو أذن له فقيه من مشايخ هذا الزمان الذين لا قدم لهم فى الطريق . فما علم ذلك واحذر من تلبيس النفس عليك حين يستحسن حالك ويقول لك : ابرز للخلق فإن فى ذلك هلاكاً .

(قال تعالى) ^(١) : ﴿ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (أ) والسلام .
وقال : من عرف من أين جاء عرف إلى أين يصير . وهنا أسرار ^(*) لا تفضى .

(١) زيادة أضفناها يقتضيها السياق .

(أ) سورة فاطر : الآية : ١٤ .

(*) السر : السر جمعه أسرار . والسر ما خفى عن الخلق فلا يعلم به إلا الحق سبحانه وتعالى .

وقد قيل : السر لطيفة مودعة فى القلب كالأرواح ، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصنوعاً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى فى الأحوال ، وعليه يحمل قول من قال : « أسرارنا بكر لم يفتضها وهم واهم » .

ويقولون : « صدور الأحرار قبور الأسرار » .

كما قيل : لو عرف زرى سرى لطرحته .

من هنا قيل : صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار من علامات الإقبال على الله تعالى .

.....

= (أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٦٩) .

فالسّر الذي يسلم من رعونة البشر سر رباني .

ويقول إبراهيم بن أدهم : لا تكون كاملاً حتى يأمنك عدوك ، وكيف يكون
فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك ؟ !
وأنشد الكريزي :

اجعل لسرك من فؤادك منزلاً • لا يستطيع إلى اللسان دخولا
إن اللسان إذا استطاع إلى الذي • كتم الفؤاد من الشئون وصولا
ألقيت سرك في الصديق وغيره • من ذى العداوة فاشياً مبذولا
قد قيل : فالعقل من حذر صديقه .

ويضاف إلى ذلك ما قاله الأعمش : يضيق صدر أحدهم بسرّه ، حتى يحدث
به ، ثم يقول اكتمه على .

(ابن حبان البستي : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ص : ١٩١) .

وقال أبو حاتم : الظفر بالحزم ، والحزم بأصالة الرأي ، وأصالة الرأي
بتحصين الأسرار ، ومن كتم سرّه كانت الخيرة في يده ، ومن أنبأ الناس
بأسرارهم هان عليهم وأذاعوها ، ومن لم يكتّم السر استحق الندم ، ومن
استحق الندم صار ناقص العقل ، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل .

فتحصين السر للعقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه .

فلسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .

ولذلك قيل : لاتفعل شيئاً خفياً ، لأن الزمن يرى ويسمع ولا يكتّم السر .

= كما قيل : سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره .

= فالقلوب أوعية ، والشفاه أفعالها ، والألسن مفاتيحها ... فليحفظ كل إنسان مفتاح سره .

ومن حكم الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : العادات قاهرات ، فمن اعتاد شيئاً في سره وخلوته فضحه في جهره وعلايته .

من هنا كان لابد من كتمان الأسرار وعدم تبليغها لأحد . لذلك قيل : قلوب الأحرار قبور الأسرار .

ويقول الإمام علي رضي الله تعالى عنه : الكلام في وثاقتك مالم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه .

ولقد عبر عن هذا ابن الجوزي بقوله : رأيت أكثر الناس لا يتسماكون من إفشاء سرهم ، فإذا ظهر عاتبوا من أخبروا به .

فوا عجباً كيف ضاقوا بحبسه ذرعاً ثم لاموا من أفشاء .

ولعمري إن النفس يصعب عليها كتم الشيء ، وتري بإفشائه راحة ، خصوصاً إذا كان مرضاً أو همماً أو عشقاً .

(ابن الجوزي : صيد الخاطر ، ص : ٣٠٩ - ٣١٠) .

كما قيل : الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والإطلاق ، ويطلق لفظ السر على ما يكون مصنوعاً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه وتعالى .

(القشيري : الرسالة ، ص : ٤٤ - ٤٥) .

وقد قيل : إن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام سرّاً ، وللعلماء سرّاً ، وللملوك سرّاً ، فلو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أظهروا سرهم للعامة لفسدت النبوة ، ولو أن العلماء أظهروا سرهم للعامة لفسدت عليهم ، ولو أن الملوك أظهروا سرهم للعامة لفسد ملكهم . =

.....

= (الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٤٨) .

كما قيل : أصل العقل الصمت ، وفرع العقل العافية ، وباطن العقل
كتمان السر ، وظاهره الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكتم السر من شيم الأحرار ، وخلق الأبرار ، والمحافظة على الأسرار .

فكتمان السر خلق مركب من الوقار ، وأداء الأمانة ، فإن إخراج السر من
فضول الكلام . وليس بوقور من تكلم بالفضول .

(ابن عربي : تهذيب الأخلاق ، ص : ٢٧) .

وكتمان السر محمود من جميع الناس ، وخاصة ممن يصحب السلطان ،
فإن إخراج أسرارهم - مع أنه قبيح - يؤدي إلى ضرر عظيم ، يدخل عليه من
سلطانه . وإفشاء السر من الأخلاق الرديئة . وهذا الخلق مركب من الخرق
والخيانة ، فإنه ليس بوقور من لم يضبط لسانه ولم يتسع صدره لحفظ ما
يسر له والسر أحد الودائع ، وإفشائه نقيصة على صاحبه ، فالفاشي للسر
خائن .

وهذا الخلق قبيح جداً ، وخاصة ممن يصحب السلاطين ويداخلهم .

ويقول أحد العلماء : من أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبدائه وأفشى
من العلم المكنون ما لا يناسب إفشائه عوقب بسوء الظنون فيه أو بما هو فوق
ذلك من العقوبات .

(عبد الحليم محمود : عبدالله بن المبارك ، ص : ١٥٠ - ١٥١) .

وكان أحد العلماء يقول : من كتم سره ملك أمره ، ومن لم يكتم شيئاً
أظهر من الأحوال ما يدل عليه . فلا تظهر لقومك إلا ما تعرف منهم قبوله
منك .

.....

= وقال آخر : السر في المتكلم لافى كلامه ، فمتى انبسط المتكلم إلى السامع انشرح له كلامه وإن قل ، ومتى انقبض المتكلم لم تنبسط للسامع معاني كلامه وإن كثر . والكلام صفة المتكلم ، فمن وجد الموصوف وجد صفته وإلا فلا إذ الصفة متى انفصلت عن موصوفها زالت مرتبتها وغاب عنها .
وقيل لبعض الحكماء : من المخلص ؟ قال : الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته .

(السمر قندي : تنبيه الغافلين ، ص : ٥) .

ولاشك أن هذا القول يتشابه مع قول بشر بن الحارث الذي يقول فيه :
« اكنم حسناتك كما تكنم سيئاتك » .

وسئل الإمام مالك رضى الله تعالى عنه عن الحكمة ؟ فقال : ما زهد عبد واتقى إلا أنطقه الله بحكمه ، ثم قال : من أراد أن يفتح الله عين قلبه فليكن عمله في السر أكثر من عمله في العلانية لأن عمل السر منبع الإخلاص ، والإخلاص منبع الحكمة .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٣٢٠) .

وعن الحسن أنه قال : يا ابن آدم إن لك قولاً ، وعملاً ، وسراً ، وعلانية ، وعملك أولى بك من قولك ، وسرك أولى بك من علانيتك .

(ابن حنبل : الزهد ، ص : ٢٨٢) .

وقال عمرو بن العاص : ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه ، فلمته ؛ لأنى كنت أضيق صدرأ ، حين استودعته .

وعن الإمام على رضى الله تعالى عنه أنه قال : « من لم يكن عنده سنة الله ، وسنة رسول الله ، وسنة أوليائه فليس في يده شيء » .
=

.....

= قيل له : ماسنة الله ؟ قال : كتمان السر . وقيل : ما سنة رسول الله .
قال : المداراة بين الناس . وقيل : ما سنة أوليائه ؟ قال : احتمال الأذى
عن الناس . وكانوا من قبلنا يتواصون بثلاث خصال ويتكاتبون بها :
من عمل لآخرته كفاه الله أمر دينه ودنياه . ومن أحسن سريرته
أحسن الله علانيته ، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين
الناس .

(ابن حجر : الاستعداد ليوم الميعاد . بيروت : مؤسسة المعارف ، الطبعة
السادسة ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص : ١٢)

وقد قيل : من حفظ اللسان سلم فى الدنيا والآخرة .

كما قيل : إن الرجل لا يعطى لسانه وقلبه وروحه لأحد غير الله تعالى ، فهو
يعطى لسانه للسالكين لتقوى رغبته ، ولينجذبوا بالتلقين والسماع إلى
مقامات الوصل والاتصال . ويعطى قلبه للواصلين ليدر عليهم رحيق
اليقين من القلب للقلب . ويعطى للمتمكنين روحه لتسوح أرواحهم فى
ملكوت الله الأعلى فتشرف على قدس الله . أما لسانه وقلبه وروحه فله
وحده .

ويقول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

إذ المرء أفشى سره بلسانه • ولا م عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه • فصدر الذى يستودع السر

كما قال :

• احفظ لسانك أيها الإنسان • لا يلدغ نك إنه ثعبان

= • كم فى المقابر من قتيل لسانه • كانت تهاب لقاءه الأقران

فاعلم ذلك فإذا لم يعلم الشيخ ذلك فكيف يسلك ويتشبه
بالأولياء الذين يعرفون ذلك والأدب خير لك كثير والسلام .

وقال : لو سئل القاصرون من مشايخ هذا الزمان عن حقيقة
ما يدعون الخلق إليه لعرفوا . فكيف يدعوا إلى من لا يعرفوه ؟

= وقال أيضاً :

إذا أشئت أن تحيا سليماً من الردى • ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة • فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائباً • فدعها ، وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى • وفارق ولكن بالتي هي أحسن

(الشافعي ، أبو عبد الله محمد بن إدريس : ديوان الشافعي ، ص : ٦٥) .
وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري : من عرف ما يطلب هان عليه
ما يبذل ، ومن أطلق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن
أطلق لسانه قتل نفسه .

(أبو عبد الرحمن السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ١٣) .

ومما يحكى عن الفضل بن الربيع أنه صار إلى أبي عباد - في نكبته - يسأله
حاجة فارتج عليه فقال : يا أبا العباس بهذا اللسان خدمت خليفتين !
فقال : إنا تعودنا أن نسأل ولا نسأل .

(أبو منصور الثعالبي : درر الحكم ، ص : ١٣) .

لذلك نقول : كما فرض الله على الأنبياء إظهار الآيات والمعجزات ليؤمنوا
بها كذلك فرض على الأولياء كتمان الأسرار حتى لا يفتتن الخلق بها . -

فإن قالوا : دعونا الخلق إلى طريق القرب (*) من الله تعالى .

= ومن الحكم الرائعة : ألسنة مستنطقات ، تحت نطقها مستهلكات ، وأنفس مستعملات ، تحت استعمالها مستهلكات .

(*) القرب : القرب حال يشعر به المرید في كل خطوة يخطوها ، بحيث يدرك أن الله أقرب إليه في كل آن من حبل الوريد . ومن الواضح أن القرب ليس قرباً مكانياً ، وإنما هو قرب روحي خاص بالوجود الإلهي الذي لا يخلو منه مكان والذي يوجد في كل مكان .

(الكلاباذي : التعرف لمذهب أهل التصوف ، ص : ١٣٠) .

فعندما ينطق الصوفية كلمة قرب فلا بد وأن نبه هنا أنها لاتعني عندهم المكان ، أو الارتفاع في المكان .

(مصطفى محمود : السرا الأعظم ، ص : ٧٥) .

وإذا ذهبنا إلى الجنيد نجده يقول : « قريب لا بالتلاق ، بعيد بلا افتراق » .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ٢٢١) .

ولقد أضاف قائلاً : « ... ولا كيفية لقربه ومعيته ، وكذلك قربه ومعيته ليس كمعية أحد وقربه ، وأنه تعالى كان ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما هو عليه » .

(الغزالي : روضه الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٧٤) .

كما فسر الإمام الجنيد القرب ، بقوله : « إن الله تعالى يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قلوب عباده له ، فانظر ماذا يقرب من قلوب عباده »

= (محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد ، ص : ١٩٣) .

.....

= ويمضى قائلاً : إن القرب هنا قرب معنوي ، لأنه ليس كمثله شيء .

كما قال أبو الحسين النوري شارحاً لحالات القرب والبعد : « فأما القرب فتعالى الله الملك الحق عنه ، إنه متقدس عن الحدود ، والأقطار ، والنهاية ، والمقدار ، وما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق ، به جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل ، فقرب هو في نعمة محال ، وهو تداني الذوات ، وقرب هو واجب في نعمة ، وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز في وصفه يخص به من يشاء من عباده ، وهو قرب الفضل واللفظ .

ويقول الطوسي : عن القرب : « هو فناء رؤيا العبد في أفعاله لأفعاله » .

ولعل أهم ما ينبغي أنؤكد عليه في هذا المقام أن القرب ليس معناه الذوبان أو الانصهار في الذات بمعنى الاتحاد أو الامتزاج أو الوحدة .

فليس القرب أن يفنى الإنسان وجوده في وجود الله كما تقول فلسفة الإشراق . تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

ويحدثنا القشيري عن أول رتبة في القرب بأنها القرب من طاعته والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته .

(القشيري : الرسالة ، ص : ٤٤) .

كما أضاف قائلاً : « وقرب تجليات » . أي بمعنى كل على حسب مكانته ودرجته عند الله سبحانه وتعالى .

(محمود بن الشريف : الحب في القرآن ، ص : ٥٨) .

وقد قيل : القرب عبارة عن الوفاء بما سبق في الأزل من العهد الذي =

.....

= بين الحق والعبد في قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

« سورة الأعراف : الآية : ١٧٢ » .

وقد يخص مقام القرب بمقام : « قاب قوسين » .

وهذا اللون من القرب هو القرب الخاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رحلة المعراج التي كانت مناجاة ووحياً ورؤية .

إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى أفق لم يعد فيه مكان لجبريل : وارتقى إلى مستوى من النور لم يكن لجبريل عليه السلام فيه مجال ، فكان صلى الله عليه وآله وسلم في الحضرة الإلهية ، ودون واسطة ، فتأجى ربه عز وجل ، وأوحى إليه ما أوحى .

(عبد الباري محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين ، ص : ١٢٧) .

قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ « سورة النجم : الآية : ١١ » .

إن سيدنا محمداً في هذا الأفق كان وحده ، وكان جبريل عليه السلام في أفق أقل ، فكانت المناجاة مع الله . وكان الوحي من الله . وكانت الرؤية لله تعالى .

(عبد الحلیم محمود : الإسراء والمعراج ، ص : ٥ - ٦) .

ويقول ابن عطاء الله : قربة منه أن تكون شاهداً لقربه ، وإلا فمن أين أنت ووجود قربه ؟؟

ويعلق ابن عجيبة على هذا المعنى بقوله : « إذا حققت أن الأكوان ثابتة بإثباته ، محوّه بأحدية ذاته ، علمت علم اليقين ، أن الأكوان والمكان والزمان لا وجود لها ، وأن الحق كما كان وجوده وحده ، فلا أين ولا مكان ولا زمان ، نور أحديته محاً وجود الأكوان ، فانتفى بوجوده الزمان » =

.....

= والمكان ، ولم يبق إلا الواحد المنان » (ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٣٣٦) .

ومن ثم ينمحي الكون تماماً ، ويصبح مجرد مظهر أو مجلى
لذلك الوجود الإلهي الواحد الذي لا يشاركه فيه غيره من المكونات .

ويرى ابن عجيبة هنا : أن القرب هو قرب الوصول إلى الحق اليقين وهو
المعرفة الحقيقية التي يصل إليها الواصل إلى مقام المعرفة وهو متهى
مقامات السالكين . (المصدر السابق ، ص : ٣٦٧) .

ويقول ابن عجيبة أيضاً : « إنما يتفاوت القرب أيضاً بتفاوت الترقى فى
الطريق تبعاً لتصفية النفس ، فيكون أولاً مراقبة ، ثم شهوداً ووصولاً ، ثم
محوً واضمحلالاً ، أى فناء ، ثم بقاء وتنزلاً .

والسبيل إلى ذلك يكون بالمجاهدة والمكابدة ، وهو مقام أهل السلوك من
المحبين كما أطلق عليهم الشاذلى .

ولقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾
« سورة العلق : الآية : ١٩ » .

فالساجد إذا أذيق طعم السجود تقرب ، لأنه يسجد ويطوى بسجوده
بساط الكون ما كان وما يكون ، ويسجد على طرفى رداء العظمة .

(الرندى : غيث المواهب العلية ج ١ ، ص : ١٠١) .

وخاتمة القول : قرب العبد إنما يعنى : القرب بالإيمان والتصديق ،
ثم القرب بالإحسان والتحقيق . وقرب الحق سبحانه وتعالى ما يختص
به من العرفان ، وفى الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، ولا يكون
قرب العبد من الحق إلا يبعده عن الخلق .

قال لهم الله تعالى : فإن اعتقدتم التقرب منى فقد
حددتموني وأنا لا أحد .

وإن قالوا : دعوناهم إلى طريق سعادتهم لنقربهم منها قال
لهم الحق : سعادة الخلق لم تزل قائمة بهم وما برحت معهم في
حال طلبكم القرية إليهم فإن لم تعلموا ذلك فقد جهلتم .
والجاهل لا ينبغي له أن يتصدر لباب الدعوة (*) .

وإن علمتم ذلك فما صدقتم وأي فائدة لدعوتكم ؟ وإن قلتم
إنما طلبنا بالدعوة تقرب الخلق إلى معرفة ذواتهم . قال لكم
الحق : الشيء لا يحمل نفسه فطلب القرية ممن لا يعرف لا يصح
. وإن قلتم طلبنا بذلك القرية إلى معرفتك . قال لكم الحق : كيف
تعرفون من ليس كمثله شيء .

(*) الدعوة : يقول أحد الحكماء : « من أعان صاحب بدعة ، فقد أعان
على هدم الإسلام .

كما أضاف قائلاً : « لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عمل .

ومن نصائحه إذا رأيت مبتدعاً في طريق ، فخذ في طريق آخر .

(عبد الحليم محمود : الفضيل بن عياض ، ص : ١٣) .

ويدل كلامه على شدة تمسكه بالسنة ويغضه للبدعة قوله : أحب أن يكون
بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد . وعمل قليل في سنة ، خير
من عمل كثير من صاحب بدعة .. ومن جلس مع صاحب بدعة لم
يعط الحكمة .

فَاعْلَمْ واحذر أن تعمل شيخاً في هذا الزمان بالدعوى
فإن كل مدعٍ ممتحن في الدنيا والآخرة . وقد أوضحنا ذلك في
(كتاب) ^(١) « لوائح الأنوار » . فراجعه والله يتولى هداك .

وقال : من لازم من يعمل شيخاً في هذا الزمان على أحد من
الخلق استحسن حاله وازدراء إخوانه ومنازعة الله تعالى في
أوصاف الكمال لو رأى إخوانه أحسن حالاً منه أو مثله لما يمكنه أن
يطلب منهم أن يتلمذوا له فلا يد له من تحقيرهم وازدراءهم .
وكفى بذلك جهلاً وضلالاً !!

ولكن لما صارت ولاية الزمان ولاية بالقهر والغلبة ، كذلك فقراء
الزمان صاروا فقراء بالنظام والهيئة وكثر اتباع العمى وذلك كله
لمناسبة الزمان بعضه ببعض . فكل من جمّع له جماعة في زاويته
وجعل له سماطاً مما شحته من الخلق صار شيخاً عند العامة لأن
ليس الشيخ عندهم إلا من كان حوله جماعة ولو كان من أكابر
الأولياء فليس عندهم شيخ أو شيخ على الفتح لا يعباون به .

فلما لحظ القاصرون من العامة هذا الملحظ لبسوا على الخلق
العمى وادعوا الولاية الكبرى وقالوا لهم : لكم ما تأكلون وما
تشربون لعل ما هم مشايخ عند العامة إلا بهم ولا يقدر أن

(١) زيادة أضفناها يقتضيها سياق المعنى .

يصطادوا خبزاً ولا جبناً ولا عسلاً ولا عدساً ولا غير ذلك إلا بهم
فصارت المشيخة باباً^(١) من الشحاعة .

ولعمري لا يصلح أن يسمى شيخاً إلا الفلاحون وأهل الصنائع
لأنهم هم الذين يطعمون الشيخ تارة بكسبهم وتارة بنصيبهم .
فالشيخ معدود عند الله تعالى من جملة عيالهم .

واعلم أنه قدر جماعتك على قدر منازعتك الله في الكمال
واسترقاق الخلق لك . فمن رأى نفسه شيخاً على واحد من
الخلق^(٢) كأننا ما كان فقد شرع في دركات المنازعة والطرده . ومن
زأى اثنين نزل على دركتين وهكذا .

وقد أوضحنا حال مشايخ هذا العصر في رسالة : « الأنوار
القدسية في معرفة آداب العبودية »^(٣) .

فراجعها تعرف أن مشايخ عصرك قد خرقوا السياج
وليس أحد منهم أهل لأن يقتدى به .

(١) في الأصل : باب .

(٢) في الأصل : مطموسة .

(٣) أحد مؤلفات الإمام الشعراني موجود بدار الكتب والوثائق تحت الأرقام
التالية : ٢٨ تصوف عربي ، ٧٤٠ مجاميع عربي ، ٢٨٠٣٥ ب عربي .
وهذا المخطوط مطبوع بهامش الطبقات الكبرى للإمام الشعراني بجزئيه
الأول والثاني .

ومن شك في ذلك فليعرض أوصاف القرآن ونعوته لأهله
وخاصته تعلم ذلك يقيناً . فخير الناس من كان مقبلاً على
حرفته مؤدياً لغرضه واعتزل هؤلاء المدعين أجمعين فإنهم
لا يحبون إلا التلميذ الذي يطعمهم ويبرهم . فلذلك يقدمونه
على أقرانه لا سيما إن كان يصطاد لهم المريدين ويأتى بهم
إليهم فلذلك يمدحونه ويقولون لتلامذة العمى الذين حولهم
لأجل اللقمة ما عرف طريقنا غير فلان فيمدحون أنفسهم
ويبحثوا الحاضرين أن يسلكوا مسلك ذلك التلميذ .

وقال : سبب فتح باب المشيخة والتسليك للخلق في هذا
الزمان شهودهم كثرة البلاء النازل على الخلق في قلوبهم
ونفوسهم ليلاً ونهاراً وعلمهم بأن الأمر راجع إلى وراء . فلو أراد
أحد منهم أن يتمشيخ على تلميذ لم يقدر أن يدفع عنه
عارضاً من العوارض وربما رجع العارض على الشيخ عقوبة له
على سوء أدبه ^(١) . هكذا شهود من هو في حضرة الملوك أوقات
غضبهم . وقد اشتد الأمر ولا يزداد إلا شدة حتى تكتمل
الدورة وتقوم القيامة إذا علمت ذلك علمت أن ترك العارفين
فتح هذا الباب في هذا الزمان هو عين الأدب مع الله تعالى .

(١) في الأصل : غير واضحة .

فلا يفتح له الآن من أعمى الله بصره وبصيرته (*) من هؤلاء
المدعين للمراتب والمتنازعين عليها .

(*) البصيرة : البصيرة قوة للقلب منورة بنور القدس ، يرى بها حقائق
الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذي يرى به صور الأشياء
وظواهرها ، وهي القوة التي يسميها الحكماء : العاقلية النظرية ، وإذا
تنورت بنور القدس وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم القوة
القدسية .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٥٣) .

وقد قيل : إن البصيرة هي بمثابة القوة التي ينظر به القلب ، كما أن البصر
هو الآلة التي ينظر بها الهيكل الإنساني . وبذلك فإذا كان البصر يرى
المحسوسات الظلمانية الوهمية ، فإن البصيرة ترى المعاني اللطيفة
النورانية .

وتبعاً لتلك المعاني النورانية التي ترد على السالك يقوم ابن عجيبة بتقسيم
البصيرة إلى خمسة أقسام جاءت على الترتيب التالي :

أولاً : بصيرة فسد ناظرها ، وهي بصيرة الكفار التي عميت عن إدراك نور
الحق فأنكرت وجوده من أساسه ، وبذلك فقد أقامت في الجهل تماماً .

ثانياً : بصيرة صح ناظرها لكنها مسدودة ، وهي بصيرة أصابها المرض
فضعف ناظرها ، وهي تقصر بوجود نور الحق تعالى ، لكنها لاتقوى على
مشاهدته ، ولاتشهد قربه منها ، ولابعدده ، وهي لعامة المسلمين . =

.....

= **ثالثاً :** بصيرة صح ناظرها وقوى بعض الشيء فتحقق بمقام شعاع البصيرة ، وكاد أن يفتح عينه ولكنه لشدة الشعاع لم يطق ذلك ، إلا أنه قد أدرك شعاع النور قريباً ، ومن ثم توجه إليه ، وبذلك فهذا القسم خاص بعامة المتوجهين .

رابعاً : بصيرة قوى ناظرها ففتح عين بصيرته ، وأصبح فى مقام عين البصيرة ، ومن ثم فقد أدرك النور محيطاً به فغاب عن نفسه فى مشاهدته . وأصحاب تلك البصيرة هم خاصة المتوجهين ، وهم الذين انفتحت عين بصيرتهم وأدركت ماخفى على غيرهم وهم أصحاب عين اليقين .

خامساً : قسم صحت بصيرته واشتد نورها فاتصل بنور أصلها ، ومن ثم فلم تر إلا النور الأسمى ، وأنكرت أن يكون ثم شيء زائد على نور الأصل ، وتسمى هذه الحالة حق البصيرة ، والواصلون إلى تلك الدرجة يدركون الحق ، ويغيبون عن شهود الخلق ، ومن ثم يتحققون بمقام حق اليقين .

ومما سبق ينضح لنا أنه إذا كان أصحاب القسم الأول والثانى من تلك الأقسام بعيدين عن المعرفة ، ولم ينالوا أى قسط من حدودها ، فإنه يمكن أن نحصر هذه المعرفة بين الأقسام الثلاثة الأخيرة تبعاً لدرجة اليقين التى ينالها كل قسم منها على الوجه التالى :

أولاً : علم اليقين : وأصحاب هذا القسم من المعرفة هم أهل الدليل والبرهان الذين اعتمدوا على الأعمال فضنوا فيها ، ومن ثم ألقى الله على بصيرتهم بنور الإيمان ، أما مشاهدتهم فتقتصر على عالم الملك ، أى عالم الكون والمظاهر الفانية ، فتقتصر مشاهدتهم بذلك على المعانى الإلهية المتجلية فى الموجودات الوهمية .

.....

= (ابن عجيبة : إيقاظ الهمم ، ص : ٤٢٨) .

ثانياً : عين اليقين : وأصحاب هذا القسم من المعرفة هم أهل الكشف والبيان ، وهم الذين وصلوا إلى مشاهدة نور الحقيقة الإلهية ، أو مشاهدة عالم الملكوت ، وهو عالم التكوين الملحق بأصله ، أى العالم الروحانى ، أو العالم النورانى الفائض من بحر الجبروت . ولكن هذا السالك يشاهده كثيفاً نورانياً بدون ضمه إلى أصله فى اللطافة ، بمعنى أنهم يكونون فى فناء شهود المكونات .

ثالثاً : حق اليقين : والواصلون إلى هذا الحد من المعرفة هم أهل الشهود والعيان الذين يشرق على بصيرتهم نور الرسوخ والتمكين ، وذلك بعد تحققهم بمشاهدة نور الجبروت . أى نور المعرفة الأصلى اللطيف المضموم إلى أصله وهو الحق تعالى حيث يشاهده الواصل سارياً فى عالم التكوين ، ومن ثم فإنه يرى الأشياء كلها قائمة بالله ، فيتحقق بالمعرفة اليقينية به تعالى .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٤٢٨) .

وهكذا تتدرج حدود المعرفة إلى الكمال تبعاً لما يتمكن به السالك من التحقق به فى أنوار المشاهدة التى تشرق على بصيرته أو قلبه ، فينشأ أول الأمر القدرة الإلهية ظاهرة فى الكون أو عالم الملك ، ثم ينتقل إلى مشاهدة أنوار الحضرة الإلهية بلا أين . أى بلا خبر أو مكان أو حدود فى عالم روحانى سرمدى ، فيفنى بتلك المشاهدة فى ذلك العالم أول الأمر ، ثم يرده الحسق إلى عالم البقاء ، فيجمع بين مشاهدة العالمين ، عالم الملك ، وعالم الملكوت ، وبذلك يرسخ فى المعرفة ويجمع بين مشاهدة =

.....

= العالمين ، وبذلك يكون قد وصل إلى أقصى حدود المعرفة التى لا يمكن أن يصل إليها بشر باستثناء الأنبياء عليهم السلام .

هذه هى البصيرة التى هى بمثابة البوصلة الداخلية التى لا بد منها لمن يتجاوز طور الأخلاق السلبية المتمثلة فى الناموس إن سمح لى بهذا التعبير .
وقد قيل : البصيرة إنما هى تأديب وتعليم لمن له البصيرة فى دين الله .

كما قيل : إن البصيرة شيئان : شىء قسمته لك ، و شىء صرفته عنك ، فمن اشتغل بهما أو بواحدة منهما فقد قل فهمه وعظم جهله ، وذهل عقله ، واتسعت غفلته ، وقل من يتنبه لمن يوقظه ؛ فإن جاءك محبوب بالشرع أو بالطبع أو بهما ، أوجتته أنت فهو من القسم الأول ، فكن بى ولياً فيما قسمته لك أكن لك بالرحمة فيما صرفته عنك ، وفيما يساق من المكروه إليك ؟ فأشغلك بما هو أولى بك عما هو مصروف عنك ، وأذيقك حلاوة الرضا بقضائى حتى يكون المكروه أحب إليك من كل محبوب بالطبع هو لك ، وإن لم تكن بى ولا لى فيما قسمته لك وكلتك إلى نفسك فيما هو مصروف عنك وفيما يساق من المكروه إليك ، وإن الله ليعجب من عبد يجتهد فى صرف ما هو مصروف عنه وفى دفع ما لا بد له منه ، فاعمل لله باليقين ، واثبت إلا من حيث أثبتته النهى حيث أثبتته ، واهتم بالأمر حيث أمرك ، واثبت عن النهى حيث نهاك على البصيرة فى اليقين .

(ابن عياد الشافعى : المفakhir العلية فى المآثر الشاذلية ، ص : ١٠٦) .

وقد قيل : إذا أردت أن تنظر إلى الله ببصيرة الإيمان والإيقان دائماً فكن لنعم الله شاكراً ، وبقضائه راضياً .

كما قيل : البصيرة كالبصر أدنى شىء يقع فيه تعطل النظر وإن لم يتنه

وقد كلمت شخصاً من أكابرهم في قلعة (اعتقاده أن)^(١)
يشهد نفسه عاصياً مقصراً ممن يشهد نفسه من الأولياء المقربين
فتأمل وكن ذنباً لا تكن رأساً فإن الضريبة أول ما تقع في الرأس والله
يتولى هداك .

وقال : احذر من دعوائك طريق الفقر وأنت تجد في نفسك
كراهية لمن لا يعظملك ولا يناديك بالفاظ السيادة والمشیخة
والصلاح بل والإسلام . فإن المسلم الكامل في هذا الزمان أعز من
الكبريت الأحمر ولا يكون المسلم كاملاً حتى يسلم لسانه وسمعه
وبصره ويده وفرجه وقلبه مما حرم الله تعالى ظاهراً وباطناً^(*) .

= = الأمر به إلى العمى ، فالخطرة من الشر تشوش النظر وتكدر الفكر ،
والإرادة له تذهب الخير رأساً ، والعمل به يذهب بصاحبه عن سهم من
الإسلام فيما هو فيه ويأني بضده ، فإن استمر الشر تفلت منه الإسلام
سهماً سهماً .

وقد قيل : عمى البصيرة في ثلاثة أشياء : إرسال الجوارح في معاصي الله ،
والتصنع بطاعة الله ، والطمع في خلق الله ، فمن ادعى البصيرة مع واحدة
من هذه فقلبه هدفه لظنون النفس ووساوس الشيطان .

(١) زيادة أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

(*) **الظاهر والباطن** : لقد شغلت مسألة التوفيق بين الشريعة والحقيقة
الصوفية منذ نشأة التصوف ذاته ، فلم يكن الصوفية يفهمون من الدين
حرفيته الظاهرة فقط ، ولا من الشريعة مجرد الرسوم والأوضاع التي =

.....

= تعبر عن ظاهرة الأحكام فقط ، بل كانوا غالباً ما ينحون نحواً مختلفاً
شيئاً عن نحو الفقهاء مما أثار بعض الفقهاء عليهم « كابن الجوزي مثلاً »
. مع أن الالتزام بظاهر الشريعة والاقتداء الدقيق بسنة رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم كانا من دأب معظم الصوفية منذ القدم .

فالقشيري يبدأ رسالته التي ألفها سنة ٤٤٠ هـ مطالباً الرجوع بالتصوف إلى
سيرته الأولى ، وذلك لما رأى منهم من التواني والفتور في مسائل الشريعة
اعتماداً على ما سموه : « بالحقيقة » .

وهنا يقول : « إن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق في
زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم .
(القشيري : الرسالة ، ص : ٤) .

كما قيل : حصلت الفترة (أي الفتور والضعف) في هذه الطريقة بل
اندرست الطريقة بالحقيقة . مضى الشيوخ الذين كان بهم اعتداء ، وقل
الشباب الذين كان بسيرتهم وستهم اقتداء ، وزال الورع وطوى بساطه ،
واشتد الطمع وقوى رباطه . وارتحل من القلوب حرمة الشريعة .

ولم تذهب ضجة القشيري صرخة في واد ، ولم تكن دعوته إلى المحافظة
على الدين والالتزام أحكام الشريعة سدى ، فإن الغزالي الذي أتى من بعد
القشيري بنحو نصف قرن من الزمان قد أخذ على عاتقه مهمة التوفيق بين
التصوف وتعاليم الدين ، أو بين الحقيقة والشريعة .

وجد الإمام الغزالي الحقيقة التي كان ينشدها في الطريق الصوفي ، ولكن
لم تصرفه هذه الحقيقة عن الشريعة ، ولا حولته عن عقيدة أهل السلف .

(أبو العلاء عفيفي : التصوف ، الثورة الروحية في الإسلام . الإسكندرية ، =

.....

= دار المعارف ، فرع الإسكندرية ، سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م ، ص : ١٢٠)
فالحقيقة في نظر الإمام الغزالي لا بد أن تكون مؤيدة بما ورد في ظاهر
الشرع . أما كون الحقيقة في نظر الغزالي لا تتنافى مع الشريعة فيدل عليه
قوله في « الإحياء » : « من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة ، والباطن
يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب . وكل حقيقة غير مقيدة بالشرع
فغير حاصله » .

(الغزالي : إحياء علوم الدين . القاهرة : دار الشعب ، سنة
١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ج ١ ، ص : ١٧١ - ١٧٢) .

فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريح
الحق . فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما
أمر ، والحقيقة شهود لما قدر وأخفى وأظهر . فكأن الحقيقة في
نظر الإمام الغزالي تأيد عن طريق الشهود لما ورد في ظاهر الشرع .

فالشريعة تدعوك إلى القيام بأعمال العبادة ونحوها ، والحقيقة تشهدك على
معاني الألوهية .

كما هاجم الإمام الغزالي المبتدعة الذين يزعمون أن الحقيقة أفضل من
الشريعة ، ثم يغلّفون باطلهم بمصطلحات وشطحات وألفاظ خارجة عن
الإسلام مخرجة لهم منه .

فمن يقول : أنى متحقق ولست بمشرع ، أو من يزعم أنه سقطت عنه
التكاليف لوصوله إلى بحار الحقيقة . فقد ضل وأضل .

(جميل محمد أبو العلا : التصوف الإسلامي نشأته وأطواره . القاهرة :
مكتبة قاصد كريم ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ٨١) .

=

.....

= فالغزالي برسائله الجديدة قام بتصحيح الأوضاع في آفاق الشريعة والحقيقة على أساس منهجي سليم وكان صاحب الفضل في هذا .

ولاشك أن الغزالي أدى هذه الرسالة على أكمل وجه كفيلسوف صوفى ، وكرجل دين ، وكإمام ، وكحجة للإسلام قبل وبعد كل شيء .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص : ٦٠٨) .

كما رسم الغزالي حدود التصوف ومعاله سائراً به إلى الدعائم العملية فوصل به إلى القمة في هذا الشأن ، وهنا يشير إلى الدعامة الأولى وهي الكتاب والسنة ، وعليه فلا مكان في التصوف الحقيقي لمن يفصل بين الشريعة والحقيقة ، أو يسقط العمل بالشريعة .

لامكان لمن يسقط التكاليف بدعوى أنه وصل إلى الحقيقة ، وهو بدعواه هذا أقرب إلى الضلال منه إلى الإيمان .

فالشريعة عمل الجوارح ، والحقيقة معرفة البواطن . أي أن العبادة التي يقف أثرها عند ظاهر الإنسان غير مقبولة شرعاً .

فالغزالي كانت مهمته الأولى في فلسفته الصوفية العلمية ، استواء الظاهر والباطن ، أو صدق واتساق الظاهر مع الباطن ، أو تطبيق الباطن في الظاهر على أساس المنهج الإسلامى .

ولاشك أن الغزالي ردّ للمنهج مكانته ، كما ردّ للتصوف الحق اعتباره على أساس عقلى متأدب بأدب الشرع دون خضوع أعمى للتقليد .

فالغزالي كما ذكرنا كان حريصاً كل الحرص على إعطائنا السند =

.....

= الصحيح في دعوته لاتخاذ ميزان العقل كمرجع للتمييز بين المتوهم أو المعقول من المعارف الذوقية .

وقد حدد ابن خلدون مفهوم الغزالي في فلسفة الاستقامة ، أو الصدق ، أو الاتساق ، أو الاستواء بين السر والعلن ، والباطن والظاهر ، والنية والسلوك . فقال : « إن أعمال الباطن مبدأ لأعمال الظاهر ، وأعمال الظاهر آثار عنها ، فإن كان الأصل صالحاً كانت الآثار صالحة » .

وقد أبان ابن خلدون ما توسع في فلسفته الغزالي عن الاستواء بين السر والعلن حيث رأى أن تكون ظواهر الإنسان وبواطنه على اتفاق فيما يقوم به من أعمال .

ولقد كان الغزالي أول من حل مشكلة الظاهر والباطن بفلسفته في استواء السر والعلن ، وتحقيق الحقيقة في الشريعة .

وقد كان المحاسبي من الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة ، أو بين الظاهر والباطن كما عرف عنده ، وربما كان مغلباً لجانب الشريعة على الحقيقة ، أو أن الحقيقة عنده لا بد وأن تكون مستمدة من الشريعة موازية لها . توازي القرار العميق مع الظاهر أو السطح .

ومما ينبغي أن يفهم عن المحاسبي أنه كان المقدمة الهامة للإمام الغزالي قيمة التصوف السني .

ويذهب الطوسي في : « اللمع » فيقول : « إن علم الشريعة هو علم واحد واسم واحد يجمع معنيين : الرواية والدراية . فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال الظاهرة والباطنة . »

.....

= فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، وتهذيب الجوارح يدل على تهذيب
القلوب ، وآداب الظاهرة يدل على آداب الباطن .

ومما يروى عن الجنيد أنه دخل على أبي حفص النيسابوري ، فرأى أصحابه
واقفين أمامه عند رأسه كأصحاب الملك . فقال الجنيد : أدبت أصحابك
يأ أبا حفص أدب الملوك ؟!

فقال : لا يا أبا القاسم ولكن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

(أبو عبد الرحمن السلمي : أصول الملامية وغلطات الصوفية ، تحقيق عبد
الفتاح الفاوي محمود . القاهرة ، مطبعة الإرشاد ، سنة ،
١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، هامش ص : ١٣٩) .

فكما أن للأدب ظاهراً وباطناً ، فكذلك للعلم ظاهر وباطن ، فالظاهر
سماع بالأذن ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح ، والباطن تصديق
القلب ، وصحة اليقين ، وثبوت المعرفة ، فإذا صدق القلب استنار بنور
الهدى الذي هو من هبات الله عز وجل ، لأن الهدى لا يدرك بوقوع علم ،
ولا بحضور فهم .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى ﴾ «سورة البقرة : الآية : ١٢٠» .

من هنا كانت الأعمال بالنيات ، فإذا خلصت السريرة قويت البصيرة ،
وكان العلم نافعاً في الدنيا والآخرة ، وكما لا تصلح الصلاة والعبادة إلا
بطهارة الظاهر كذلك لا يصلح العلم إلا بطهارة الباطن .

ويقول الإمام علي رضي الله تعالى عنه : « إن للقرآن ظاهراً ، وباطناً ،
وحداً ، ومطلعاً .

وقد قيل : الظاهر للنحاة والقراء ، والباطن للمفسرين وأصحاب
المعاني ، والحد للفقهاء والعلماء ، والمطلع لأرباب الكشف والتحقيق . =

= (ابن عجيبة : الفتوحات الإلهية ، ص : ٣٣٢) .

ويذكر أحد العارفين أن العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ،
كما أن للإنسان ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن .

ومن الملاحظ على هذا النص السابق أنه جعل علم الشريعة ظاهراً ، وعلم
الطريقة باطناً ، وعلم الحقيقة باطن الباطن ، إلا أن القوم من الصوفية
حصرُوا العلم في الظاهر والباطن .

فالشريعة علم واحد يدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلا يجوز أن
يجرد القول في العلم بأنه ظاهر أو باطن ، لأن العلم متى كان في القلب
فهو باطن إلى أن يجري ويظهر على اللسان فهو ظاهر .

وفي هذا يقول سهل : « مامن طريق أفضل من العلم (يعني العلم
بالشرع) . فإن عدلت عن طريق العلم خطوة تهت في بحر الظلمات .

ويقول أبو سعيد الخراز : كل باطن يخالف ظاهر فهو باطل .

(أبو العلا عفيفي : التصوف ، الثورة الروحية ، ص : ١١٩) .

من هنا جاء التنبيه والتحذير على كل من يدعى العلم الباطن ويقتصر عليه .

ونسترشد هنا بمثال يسوقه المحاسبى يقول فيه : « وكثير ممن يدعى العلم
الباطن ويقتصر عليه : يذم العلم الظاهر الذي هو الشرائع والأحكام
والحلال والحرام ، ويطعن في أهله ويقول : هؤلاء محجوبون وأصحاب
قشور ! ، وهؤلاء كما قال الإمام الجنيد وغيره من العارفين : وصلوا ولكن
وصلوا إلى سقر . وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء لم يزل
يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام .

.....

= ومنهم من يظن أن هذا العلم لا يتلقى من مشكاة النبوة ، ولا من الكتاب والسنة ! وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات !! فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة ، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع ، الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب ! وأوجب ذلك لهم الإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالكلية أو التكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر ، فضلوا وأضلوا .

(المحاسبي : رسالة المسترشدين ، تحقيق عبد الفتاح غدة - بيروت : دار السلام ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص : ٨٣ - ٨٤) .

ولقد كشف الإمام الغزالي دعوى هؤلاء في كتاب : « فضائح الباطنية وفضائل المستظهيرية » ، وبين أنهم أكثر من سبعين فرقة منهم : القرامطة ، والتعلبية ، والمحمرة ، والسبعية ، والمزدكية ، والزيدية ، والإسماعلية ، وغيرهم ، وتدعى هذه الفرق جميعاً نفس هذا الادعاء وهو قولهم بأن لظواهر القرآن بواطناً . ويدعون أن الذين يهتمون بالظاهر العوام والأغبياء ، أما الذين يؤلون المعنى القرآني وينفذون إلى الباطن فهم الأذكياء ، ويشبهون القرآن في ظاهره بالقشر ، أما باطنه فهو اللب . وهؤلاء جميعاً قد خرجوا عن الشريعة الإسلامية .

ولاشك لدينا في أن الفصل بين الظاهر والباطن هو الخلاف الأساسي بين المنهج الإسلامي السليم وأي منهج آخر من مناهج الفلسفات الصوفية وغير الصوفية .

فالعقيدة الإسلامية من بين العقائد الموروثة ، هي العقيدة التي تظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما : « الظاهر » و « الباطن » .
= أعني « الشريعة » .

.....

= من هنا نوضح أن الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالاً يجعل منهما مظهرين
لشيء واحد ، أحدهما خارجي ، والآخر داخلي ، أو أحدهما ظاهر
والآخر باطن .

وعلى ضوء ما سبق يمكننا القول بأنه : « لا يكمل الصوفي في التحقق
بالصفات الإلهية حتى يجمع بين صفات الظاهر وصفات الباطن منها ،
فتمثل فيه الوحدة والكثرة والحقيقة والشريعة . فإنه لا يكفي أن يفنى عن
كل ماهو صفة للخلق ، من غير أن يبقى بالحياة الإلهية الأبدية كما هي
متجلية في آثار الله عز وجل . والبقاء بالله بعد الفناء عن النفس علامة
الإنسان الكامل الذي لا يسير إلى الله فحسب . أي يفنى عن الكثرة ويبقى
بالوحدة فحسب ، بل يسير إلى الله ، مع الله ، وبالله . أي يبقى على الدوام
في حالة الوحدة . فإذا ما رجع إلى عالم الظاهر الذي منه ابتداء ، رجع مع
الله وكان في نفسه مجلي الوحدة في الكثرة . وفي حركة النزول أو الرجوع
هذه يجعل الشريعة شعاره والحقيقة دثاره ، لأنه يرجع إلى الخلق فيظهر
الحق لهم ويقوم في الوقت نفسه بما يقتضيه الشرع .

(رينولد نيكلسون : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، ترجمة أبو العلا
عفيفي القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ،
ص : ٨٢) .

ومن شأن مراعاة ظاهر الشريعة أن يجعل العبد متحققاً بعبوديته ، وبذلك
يسلم من الشطح أو تعدى آداب العبودية .

وهذا ما نبه عليه داود بن باخلاق قوله : « إذا أكرم الله عبداً طوى عنه شهود
خصوصيته وأقامه في تحقيق عبوديته ، فهو أبداً يسير في ذل وانكسار ،
لابساً ثوب سكينته ووقار ، سالماً من الغلط عند تجلي شمس الخصوصية =

= وغيبة ليل البشرية ، محفوظاً من الفتن عند سطوات الأنوار ، وإذا كان العبد بشهود خصوصيته غائباً عن مراعاة عبوديته خيف عليه من الشطح والانبساط ، وتعدي حدود الأدب ، والعدول عن سواء الصراط » .

وكذلك أقامت المدرسة الشاذلية التصوف على الفقه كما أمر بذلك الشاذلي ، وتابعه رواد الطريقة ، والذي يؤكد صحة ذلك قول ابن عطاء الله السكندري : « يلزم الخشية من الله تعالى والوقوف على حدود الله ، وهو علم المعرفة بالله تعالى ، ولكن من استرسل بإطلاق التوحيد ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف به في بحر الزندقة ، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً ، وبالشريعة مقيداً ، وكذلك المحقق فلا يكون منطلقاً مع الحقيقة ، ولا واقفاً مع ظاهر إسناد الشريعة . وكان بين ذلك قواماً .

(ابن عطاء الله السكندري : تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس القاهرة : المطبعة اليمنية ، سنة ١٣٢٢ هـ / ، ص : ٣٦) .

فالوقوف مع ظاهر الإسناد شرك ، والانطلاق مع الحقيقة من غير تقيد بالشريعة تعطيل ، ومقام الهداية فيما بين ذلك .

فالشريعة إذن ما ورد به التكليف ، والحقيقة ماورد به التعريف : فالشريعة مؤيدة بالحقيقة ، والحقيقة مقيدة بالشريعة ، فكل شريعة حقيقة من وجه ، وكل شريعة حقيقة من جه آخر باطنى كما يقرر القشيري في رسالته .

فمن ادعى كمال الطريقة بغير أدب الشريعة فلا برهان له ، ومن ادعى وجود الحقيقة بغير كمال آداب الطريقة فلا برهان له .

فأدب الشريعة مبنياً على شهود الخلق في شهود الحق ، وأدب الحقيقة =

= مبنياً على فناء الخلق في شهود الحق ، وتباين الأمران تعين الأمر الظاهر ،
وتحتم إبطان الباطن خشية المعارضة والتعطيل ، وهذا هو سبب عدم بناء
الحكم في الظاهر على الحكم الباطنة ، إذا لو ترتب عليها حكم لتعذر على
غالب الناس الجمع بينهما ، وأمضى بنا الحرج والتشديد إلى نطاق بعيد .
فعلم الشريعة إذن ظاهر وباطن ، الأعمال الظاهرة في عمل الجوارح ،
كالعبادات ، والأحكام ، أما الأعمال الباطنة فهي أعمال القلوب وهي
الأحوال والمقامات .

ومن هنا كان لازماً الحرص على طلب علم الشريعة قبل الحقيقة ، وذلك
لأن طلب التفقه في الشريعة فرض على كل مسلم .

وأما طالب الحقيقة بعد أداء الشريعة فإنه ينبغي له أن يجاهد متواصلاً .
وهنا يصبح ملكاً لله وليس ملكاً للخلق ، فإنه لا فرق بين الشريعة
والحقيقة ، لكن لا بد للمسالك أن يتخطى درجات الظاهر إلى الحقيقة .

لذلك يجب تحصيل العلم كما يحصله العلماء وفهم ما قالوه وما جربوه ،
ثم الاجتهاد بالرياضات والمجاهدات والمعاناة لتكشف لهم من المعارف
ما لم ينكشف عن طريق العلم العقلي أو الكسبي مستخدمين طريق
الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن جميعاً .

وقد ورد في السنة ما يغني العبد عن الأدعية المخترعة فلا ينبغي لأحد
مزاحمة الشارع في التشريع فيكون مبتدعاً . والحق أن الذي يدعى أنه
يمكن التعرف على الحقائق دون العلم الظاهري ، أي دون الاعتماد على
العلوم العقلية والكسبية فإنه - في واقع الأمر - قد ظلم نفسه وضيع عمره .
وعلى ضوء ما تقدم فإن تسمية علماء الشريعة بأنهم علماء الظاهر فيه =

.....

= إجحاف بالشريعة وعلمائها إن أريد بذلك أن الشريعة وعلماءها تقف عند إصلاح ظاهر الإنسان فقط وتقتصر عن إصلاح باطنه .

وأنا لانتفق مع هذا الرأي لأن الشريعة لم تشرع لإصلاح الظاهر فحسب ، بل هي كفيلة بإصلاح ظاهر الإنسان وباطنه .

فالإسلام ظاهر وباطن ، فلا غنى عن الظاهر بالباطن ، كما أنه لا غنى عن الباطن بالظاهر . والصوفية يربطون بين الظاهر والباطن ، أى بين الشريعة والحقيقة .

والسؤال الآن : مامشكلة الظاهر والباطن بين كل من الصوفية والفقهاء ؟
والجواب : لقد أثارت مشكلة باطن الشريعة خصومة بين الصوفية والفقهاء ، حيث يرى الصوفية أن الفقهاء قدوقفوا على الرسوم الظاهرة بينهم قد تدبروا أحكام الشرع واستنبطوا بذوقهم معانى باطنة تتعلق بفضائل الأعمال التى بنيت عليها مقامات رفيعة فى الدين .

(أحمد محمود صبحى : الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى .
القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص : ٢٨٧) .

المشكلة بين الصوفية والفقهاء إذن هي :

هل التعاليم الشرعية مجرد عبادات ظاهرة أم لها مغزى أعمق ؟

هل يمكن أن تكون الصلاة مجرد أفعال وأقوال مفتوحة بالتكبير مختمة بالتسليم ، أم هي مناجاة قلبية وصلة روحية بين العبد والرب ؟

وماذا عن مبطلات الصلاة : هل هي حركات تتعلق بالجوارح وقت أدائها فحسب ؟ أم أن المنكر يحبطها ومافى الجوف من طعام يبطلها ؟

أما الصوفية فقد استنبطوا من ظاهر الأوامر التعبدية معانى خلقية =

.....

= وجعلوها - كعادتهم فى اعتبار الباطن أصل الظاهر - غاية لما افترض على المسلم من فرائض .

فالمشكلة بين الصوفية والفقهاء فى الفهم إذ يفهم الصوفية من حياة النبى وأحاديثه ، ومن القرآن الكريم ما لا يفهمه الفقهاء والعامة من المسلمين وهم يسمون ذلك بالمستنبطات الصحيحة فى فهم القرآن والحديث .
(الطوسى : اللمع ، ص : ١٤٧) .

فالصوفية يرون أن لهم منهجاً فى فهم القرآن ، والحديث ، وحياة النبى صلى الله عليه وآله وسلم يمكنهم من إيجاد علم ومعرفة جديدة غير علم الفقه ، والكلام ، وسائر العلوم الإسلامية الأخرى ، وهو علم « الإشارة » الذى يكشف للصوفية المعانى المذكورة ، واللطائف ، والأسرار المخزونة ، وغرائب العلوم وطرائف الحكم فى معانى القرآن الكريم ، ومعانى أخبار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، من حيث أحوالهم وأوقاتهم ، وصفاء أذكأرهم .

قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

« سورة محمد : الآية ٢٤ » .

وأقفال القلوب ما يقع على القلوب من صدأ لكثرة الذنوب ، واتباع الهوى ، ومحبة الدنيا ، وطول الغفلة ، وشدة الحرص ، وحب الراحة ، وحب الثناء ، والمحمدة ، وغير ذلك من الغفلات والزلات ، والمخالفات .

لذلك نوضح أن علوم الصوفية اشتركت مع علوم غيرهم فى المرتبة الأولى من مراتب العلم ، وهى مرتبة علم اليقين الذى يعطى الدليل بتصور الأمور على ما هى عليه ، وامتازت عليها بمرحلتين أخريين : =

وأين للمدعين هذه الرتبة ولا جارحة لهم إلا وعصت الله مراراً . فتأمل ذلك . فإذا كان هذا في رتبة الإسلام فكيف تسلم له رتبة الولاية فضلاً عن رتبة الإسلام ؟ وكيف يليق بمن لم يحصل له رتبة الإسلام أن يكون داعياً إلى الله تعالى لا ينازعه في الكمال والاسم فإن الولي اسم من أسماء الله تعالى .

ولعمري إبليس أكثر تواضعاً (*) من هؤلاء المدعين وأعرف

= إحداهما : مرتبة عين اليقين : وهو ماتعطيه المشاهدة والكشف .

والأخرى : مرتبة حق اليقين : وهو فناء العبد في الله والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً .

وقد قيل : علم اليقين : ظاهر الشريعة ، وعين اليقين : ظاهر الإخلاص فيها ، وحق اليقين : المشاهدة فيها .

(محمد مصطفى حلمي : الحياة الروحية في الإسلام . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص : ١٢٠) .

(#) التواضع : التواضع خلق من أخلاق المسلم الحق الذي يؤمن إيماناً كاملاً بالمنهج الإسلامي . ويتخذ دستوراً له في حياته . فالتواضع هو الفهم الحقيقي للكتاب والسنة .

من هنا نستطيع القول : إن التواضع إنما يكون للدين . ومعنى التواضع للدين هو أن يتواضع المرء لعظمة الحق سبحانه وتعالى . فيكون التواضع لله عز وجل .

ومن هنا يرى الباحث أنه لا يكون تواضع إنسان لإنسان فمن فعل ذلك =

بطريق الله تعالى منهم فإني اجتمعت به وقال لي : كيف تزعمون
أنكم أولياء الله وتحبون أن يكون لكم من الكمال مثل ماله وتحبون
أن تعظمكم الخلق ؟

= فقد خرج عن دائرة التواضع ووقع في دائرة الذل البشري .
فالتواضع على ضوء ما تقدم هو التواضع للأمر الإلهي والنهي . أي أن
يأتمر المرء بما أمر الله سبحانه وتعالى به وينتهي عما نهى الله عنه تعالى .
وفي عبارة أخرى :

فالتواضع هو الانقياد الكامل والإذعان والتسليم للأمر والنهي .
وكذلك التواضع هو اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم .
قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو
اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

« سورة الأحزاب : الآية ٢١ » .

من هنا كان التواضع هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله
وسلم والاستسلام له ، والإذعان . ويتم ذلك بثلاثة أشياء .
الأول : أن لا يعارض شيئاً مما جاء به .

الثاني : أن لا يتهم دليلاً من أدلة الدين .

الثالث : أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين القاهرة : دار التراث العربي ، الطبعة
الأولى ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، ج ٢ ، ص : ٢٤٨ - ٢٤٩) .

وإذا مانفذ المرء هذه الأمور الثلاثة صار من المتبعين لرسول الله صلى الله =

والله إني لأكره أن تعظمنى الخلق فى أمر من الأمور أو
ينسبوا إلىّ فعلاً أو قولاً وأحُب أن ينسب إلىّ جميع النقائص
والعيوب التى فى الوجود وأن يحقرونى إلى الطرف الأقصى
ليتميز الحق بالكمال المطلق وأتميز أنا بالنقص المطلق لأن
تنقيصهم رد إلى أساسى وتعظيمهم لى خروج عنه إلى صفات
سيدى . انتهى كلام إبليس .

= عليه وآله وسلم والمنفذين لستته والعاملين بها علماً وعملاً وسلوكاً
وتطبيقاً .

وكذلك يكون من المنفذين للنصوص القرآنية ولا يعارض دليلاً من أدلة
الدين ولا يخالفه فى كل سلوك .

وقيل : التواضع : هو أن لا ترى لنفسك قيمة ، فمن رأى لنفسه قيمة فليس
له فى التواضع نصيب .

هذا هو التواضع الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وطبقه
على نفسه عندما كان يمنع أصحابه من الوقوف له . وكان يقول أنا أجلس
كما يجلس العبد ، وأكل كما يأكل العبد ، أنا ابن امرأة من قريش كانت
تأكل القديد .

ولقد كان منهج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى سلوك الطريق الحق
متمسكين بالتواضع فى كل قول وعمل لينالوا رضوان الله سبحانه
وتعالى .

ولقد قيل التواضع : يتولد من العلم بالله سبحانه وتعالى ، ومعرفة
أسمائه وصفاته ونعوت جلاله وتعظيمه ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته =

.....

= بنفسه وتفاصيلها ، وعيوب عملها وآفاتهما ، فيتولد بين ذلك كله خلق هو التواضع .

والتواضع على ضوء ما تقدم إنما يعنى انكسار القلب لله عز وجل وخفض جناح الذل والرحمة لعباده فلا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبه ويكرمه ويقربه .

(ابن قيم الجوزية: الروح ، القاهرة : مكتبة المنبى ، بدون تاريخ ، ص : ٢٣١)
وفى الصحيح عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » .

وما أجمل ما نطق به بعض الحكماء - وكان من الصالحين - لرجل آخر يفخر : أيفتخر من أوله نقطة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما وعاء عذرة .

(ابن عربى : محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، القاهرة : دار الكتاب الجديد ، بدون تاريخ ، ج ١ ، ص : ١٨) .

ومما أورده ابن المبارك : رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك فى نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل ، وأن ترفع نفسك عن من فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل .

هذا النص الذى سجله ابن المبارك يوضح حقيقة التواضع فى معالجة النفس فىكون المرء مخالفاً لنفسه عند من هو دونه وعند من هو فوقه .

وكذلك من الأمور التى ينبغى أن نتنبه لها هى أن الحب والخوف وذكر الموت يورث لامحالة التواضع .

.....

= والتواضع فى أسمى مظاهره كما صورناه من قبل هو أن تخضع للحق ،
وتنقاده ، وتقبل الحق من كل من تسمعه منه . ولا شك أن هذا تفسير
جميل للتواضع يتناسق فى انسجام مع خلق الصدق حسبما نرى .

وعلى غرار ما تقدم نستطيع أن نقول : إن التواضع يرتبط بالصدق ، فمن
كان متواضعاً كان صادقاً ، ومن كان صادقاً كان متواضعاً .

ومن هنا فالتواضع يثمر صدقاً فيصبح خلقاً من أخلاقه .

وينبغى أن تعلم أن من يتواضع تكلفاً فهو ثقیل على نفسه وهو عاطل
عن خلق التواضع بل الخلق عبارة عن هيئة للنفس يصدر عنها الفعل
بسهولة من غير روية وتكلف . لكن التكلف هو طريق تحصيل الخلق فإنه
لا يزال يتكلف أولاً حتى يصير ذلك طبعاً وعادة . فلا تنظر إلى الفعل بل
إلى الهيئة الراسخة التى تصدر منها الأفعال ييسر من غير تكلف .

(الغزالي : الأربعين فى أصول الدين ، ص : ١٩١) .

وتتمثل حقيقة التواضع من النظر لنقص النفس وعيوبها .

وقد قيل : لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه
فعند ذلك تذوب النفس وعند ذوبانها صفاؤها عن غشى الكبر والعجب .

(ابن عطاء الله : الحكم ، بشرح عبد الله الشرقاوى ، ص : ١١٨ - ١١٩) .

ويقول ابن عطاء الله متحدثاً عن حقيقة التواضع : تواضع وانكسر . وحط
أشرف ما عندك - وهو رأسك - فى أخفض ما يكون - وهى الأرض -
لتحوز مقام القرب . كما ورد فى الحديث : « أقرب ما يكون العبد من ربه
وهو ساجد » . لأن قرب العبد بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف
= بشريته .

هتأمل أدبه فأين أنت منه وأنت تكاد تضيق عليك الدنيا بما
رحبت إذا لم يعظّمك الناس ولا يعتقدوا . فاعلم ذلك ولا تغش
نفسك فإن الإنسان على نفسه بصيرة والله يتولى هداك .

وقال : كن مع إخوانك كما هم في جميع أحوالهم
ولا تميز عنهم بشيء إلا أن تكون مغلوباً فيه فإن مزحوا فامزح (*)

= فالتواضع هو كل خلق محمود يكون عند أمر الله امتثالاً ، وعند نهيه
اجتناباً ، فإن النفس لطلب الراحة تتلكأ في أمره فيبدو منها نوع إباء وشراد
هرباً من العبودية وتثبت عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد
نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبودية .

كما يكون التواضع لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه فكلما
شمخت نفسه ذكر عظمة الرب سبحانه وتعالى وتفرد به بذلك وغضبه
الشديد على من نازعه على ذلك فتواضعت إليه نفسه وانكسر لعظمة الله
قلبه واطمأن لهيبته وأخبت لسلطانه .

فهذا غاية التواضع وهو يستلزم الأول من غير عكس . والتواضع حقيقة
من رزق الأمرين والله المستعان .

(ابن قيم الجوزية : الروح ، ص : ٢٣٢) .

(*) المزاح : يقول صاحب : « أدب الدنيا والدين » : اعلم أن للمزاح إزاحة
عن الحقوق ومخرجاً إلى القطيعة والمعقوق يصم المزاح ويؤذى المزاح ،
فوصمة المزاح أن يذهب عنه الهيبة والبهاء ويجرى عليه الغوغاء والسفهاء
وأما أذية المزاح فلأنه معقوق بقول كربه وفعل ممضن إن أمسك عنه أحزن
قلبه وإن قابل عليه جانب أدبه . فحق العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن
وصمة مساويه .

وان تكلموا تكلم ، وان سكتوا فاسكت ، وهذا من أخلاقه صلى الله عليه وآله وسلم .

= (أبو الحسن البصري : أدب الدنيا والدين ، ص : ٣١٣)

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى » .

وقال : عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : « اتقوا المزاح فإنه حمقى ثورث الضغينة » .

وقال بعض الحكماء : إنما المزاح سباب إلا أن صاحبه يضحك .

وقيل : سمي المزاح مزاحاً لأنه يزيح عن الحق .

وقال إبراهيم النخعي : المزاح من سخف أو بطر .

وقال بعض الحكماء : من كثر مزاحه زالت هيئته ومن كثر خلاقه طابت غيبته .

وقال بعض البلغاء : من قل عقله كثر هزله .

واعلم أنه قلما يعرى من المزاح من كان سهلاً . فالعاقل يتوخى بمزاحه إحدى حالتين لاثالث لهما :

أحدهما : يناس المصاحبين والتودد إلى المخالطين . وهذا يكون بما أنس من جميل القول وبسط من مستحسن الفعل .

والحالة الثانية : أن ينفى بالمزاح ما طرأ عليه من سأم وأحدث به من هم . فقد قيل : لا بد للمصدود أن ينفث .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح على هذا الوجه . روى عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً » .

= فمن مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ما روى أن عجوزاً من الأنصار أتته فقالت يا رسول الله ادع لى بالمغفرة . فقال : أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز فصرخت فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : « أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ (٣٦) عَرُبًا أُتْرَابًا ﴾ سورة الواقعة : الآيات : ٣٥-٣٧ . »

وأنته أخرى فى حاجة لزوجها فقال لها : ومن زوجك ؟ فقالت : فلان .

فقال لها : الذى فى عينيه بياض . فقالت : لا . فقال : بلى . فانصرفت عجلي إلى زوجها وجعلت تتأمل عينيه . فقال لها : ما شأنك ؟ فقالت : أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن فى عينك بياضاً . فقال : أما ترين بياض عيني أكثر من سوادهما .

وقد قال بعض الحكماء : إذا مازحت عدوك ظهرت عيوبك .

وقد قيل : إذا أردت أن توفق للهيبة فاترك المزاح والضحك فإنهما يسقطان الهيبة .

وكان الفضيل بن عياض رضى الله تعالى عنه معنياً بأهل الحديث ، ناصحاً لهم ، موجهاً لسلوكهم . لقد رأى مرة قوماً من أصحاب الحديث ، يمزحون ويضحكون بصورة تتنافى مع وضع الأئمة . فناداهم : مهلاً ياورثة الأنبياء ، مهلاً . ثلاثاً . إنكم أئمة يقتدى بكم .

(عبد الحليم محمود : الفضيل بن عياض ، ص : ٥٤)

لذلك يقال : الأخلاق الرديئة التى تعد نقائص ومعايب التبذل ، وهو إطراح الحشمة ، وترك التحفظ عن الهزل واللهو ، ومخالطة السفهاء ، وحضور مجالس السخف والهزل والفواحش ، والتفوه بالحننا ، وذكر الأعراض والمزح ، والجلوس فى الأسواق ، وعلى قوارع الطرق ، =

.....

= والتكسب بالمعاش الرديء ، والتواضع للسفلة . وهذا الخلق قبيح بجميع الناس .

وكان يزيد بن ميسرة رضى الله تعالى عنه يقول : كنا نضحك ونلعب ونمزح فلما بلغنا المحل الذى يقتدى بنافيه فما بقى إلا الإمساك عن ذلك .
(الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٣٩) .

ويجوز المزاح ، أو المداعبة بالكلام من أجل السرور ، والمؤانسة ، واستمالة القلوب ، فى حدود الحق والصدق ، وتجنب إيذاء الغير .
وهو الذى كان يفعله النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

روى الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قالوا : يارسول الله إنك تداعبنا . قال : إني وإن داعبتكم فلا أقول إلا حقاً .
وفى الحديث : « لاتمار أخاك ولا تمازحه ، ولا تعده موعداً فتخلفه » .

(رواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما)

وأوصى سعيد بن العاص ابنه فقال : « يابنى لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيا فيجتري عليك » .

واعلم أنه لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفيهاً . والله تعالى وعد فى اللطم بالتجاوز والعفو فقال : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّطَمَ ﴾ « سورة النجم : الآية ٣٢ » .

والمزاح على ضربين : مزاح محمود ، ومزاح مذموم .

فأما المحمود من المزاح : فهو الذى لا يشوبه ماكره الله عزوجل ، ولا يكون بإثم ولا قطيعة رحم .

.....

= وأما المزاح المذموم : فهو الذى يثير العداوة ، ويذهب البهاء ، ويقطع الصداقة ، ويجرى الدنى عليه ، ويحق الشريف به .

وقد قيل : إياكم والمزاح ، فإنه يفسد المودة ، ويغل الصدر .

إن اليقين الذى لاشك فيه أن المزاح فى غير طاعة الله مسلبة للبهاء ، مقطعة للصداقة ، يورث الضغن ، وينبت الغل .

(ابن حبان البستي : روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، ص : ٧٧) .

ومن الحق أن نقول : إن المزاحسمى مزاحاً لأنه زاح عن الحق ، وكم من افتراق بين أخوين ، وهجران بين متآلفين ، كان أول ذلك المزاح .

من هنا قيل : لاتمازح إلا من يحبك .

ولقد قيل : لاتمازح الغلمان فتهون عليهم ، أو يجترئوا عليك .

وكان ابن بكار يقول : ما رأيت ابن عون يمازح أحداً قط لشغله بنفسه وبما هو صائر إليه .

(الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٥٥) .

كما يروى عن إبراهيم بن أدهم - كما يقول أبو عبد الرحمن الأعرج - كان يحدثنا ويصاحكنا ، وإذا رأى غيرنا قال : هذا جاسوس .

وأما اليسير من المزاح ، فلا ينهى عنه إذا كان صدقاً . فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولا يقول إلا حقاً . فقد اتفق فى مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة أشياء أحدها : كونه صدقاً . والثانى : كونه مع النساء والصبيان ، ومن يحتاج إلى تأديبه من ضعفاء الرجال . والثالث : كونه نادراً ، فلا يتبغى أن يحتاج به من يريد الدوام عليه ، فإن حكم النادر ليس كحكم الدائم .

فاعلم ذلك والزم الأدب وأخفى نظام شيخك عن الخلق،
واحذر من ملازمتك لحال من الأحوال لا تتعداه في ملبسك أو
ماكلك أو نومك أو عزلتك (*) أو خلطتك أو غير ذلك من الأمور
التي فشت هي فقراء هذا الزمن الخبيث ، فصار (١) دأبهم
العبوسة وإطراق الرأس ووضعها في الطوق والاحتجاب عن
الخلق في أوقات ضبطوها لأنفسهم لا يكلمون أحدا فيها
وكل من جاء لحاجة يقول له النقيب (**) سيدى الشيخ

(*) العزلة : العزلة من اعتزل أى تنحى جانبا . ولقد وردت بهذا المعنى في
قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

« سورة مريم : الآية : ٤٨ » .

والعزلة من أمارات الوصلة ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن
أبناء جنسه . ومن حق العبد إذا أثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق
سلامة الناس من شره .

(حسن محمد الشرقاوى : ألفاظ الصوفية ومعانيها ، ص : ٢٣٤) .

(١) فى الأصل غير واضحة .

(**) النقيب : جمعها نقباء . وهم الذين تحققوا بالاسم الباطن ، فأشرفوا
على بواطن الناس ، واستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن
وجوه الأسرار .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١٠٧) .

= وأعمال النقيب خدمة النقيب والإخوان ، وقضاء لوازمهم وقت المذاكرة والأذكار والرواتب ، وإعداد ما يلزم لذلك ، وينوب عن النقيب عند غيابه .

ويلزم أن يكون النقيب حسن الأخلاق ، هيناً ليناً ، جميل المجالسة ، بشوش الوجه ، حسن الإجابة ، حتى يألفه الإخوان ، ويكون متحملاً جفوتهم وشديد عباراتهم ، يحسن إلى مسيئهم ، ويلين عند قسوتهم ، ويقدمهم على نفسه - خصوصاً عند الاجتماع لطعام أو فاكهة - فإن النقيب هو الباب للمستجدين ، وبقدر جمال أخلاقه يكون تهذيب نفوسهم وتزكيتها ، إلا أنه لا يغفل عن تنبيههم بلطف ورقة على ترك ما يشين وعمل ما يزين .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : مذكرة المرشدين والمسترشدين ، ص : ٣٨ - ٣٩) .

والنقيب يلزم أن يكون محباً لإخوانه جميعاً كمحبته لنفسه ، وأن يكون زاهداً فإذا قدم له أحد إخوانه هدية أو تحفة مما يأكله الواحد أو ينتفع به الواحد انتفع به ، وإلاّ قدمه لمصلحة الإخوان بأن يضعه فى الزاوية أو فى بيت النقيب أو البدل - إذا كان محلاً جامعاً للإخوان - أو قسمه بين إخوانه إن كان ممن يستعمل فى الحال ، ملاحظاً فى ذلك مراقبة الله فى الغيب والشهود ، وحباً لإدخال السرور على إخوانه ، ولتطمئن قلوب الإخوان العاكفين على طاعة الله ، الذين تركوا الأسباب توكلاً على مسبب الأسباب . وللنقيب رواتب من الصلوات الليلية والنهارية والأذكار اللسانية والقلبية وقراءة القرآن أكثر من رواتب الإخوان .

(المصدر السابق ، ص : ٣٩) .

لا يخرج^(١) هذا الوقت أولم يقدر أحد أن يكلمه . ولت
شعري أهو^(٢) فقير أم أمير . فإن قال : فقير . قلنا له : قد أجمع
الله تعالى أنه لا يجوز لفقير أن يحتجب بل كلما طلب وجد . وإن
قال : أنا أمير . قلنا له : ما رأينا أميراً قط ادعى الولاية وطاق
البلاد يأكل خبز أهلها وينكر عليهم .

وقد أوضحنا هؤلاء الطائفة في كتاب « الميزان »^(٣) وهو
كتاب لا يستغنى فقير عنه .

وكان رحمه الله يقول : من رأى أحواله مستقيمة رأى أحوال
إخوانه معوجة . ومن رأى أحواله معوجة رأى أحوال غيره
مستقيمة^(٤) .

(١) في الأصل : يخرج .

(٢) في الأصل : هو .

(٣) هذا المؤلف ضمن مؤلفات الإمام الشعراني . وهو مخطوط ضمن
مخطوطات الإمام الشعراني في دار الكتب والوثائق المصرية أكثر من
عشرة مخطوطات تحت عنوان : « الميزان الشعرية المدخلة لجميع أقوال
الأئمة المجتهدين .

(٤) الاستقامة : تدل على الاعتدال . والاستقامة من القيام بالشيء دون
اعوجاج أو التواء . وترتبط الاستقامة بالقسط والعدل . لذلك كانت
الاستقامة توفيقاً إلى الخير والسعادة والتي بها يستقيم حال النفس وتنصف
بالأمن والسكينة .

.....

= كما أن الاستقامة طريق الطاعة لله عزوجل في اتباع الأوامر واجتناب
النواهي الشرعية .

وهكذا تصبح الاستقامة على الطاعات واجتناب المخالفات شرطاً أساسياً
في الطريق إلى الله عزوجل .

(ابن عباد الشافعي : المفاخر العلية في المآثر الشاذلية ، ص : ٢١٧) .

فالاستقامة أن تعمل على ما يرضى الله سبحانه وتعالى بملازمة فعل
الواجبات وترك المنهيات .

(النووي : شرح الأربعين النووية . القاهرة : مطبعة الشمرلي ، سنة
١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ، ص : ٥٤) .

وقال العلماء : الاستقامة لزوم طاعة الله سبحانه وتعالى .

كما قالوا : وهي من جوامع الكلم ، وهي نظام الأمور .

إن النفس الإنسانية تحتاج إلى الاستقامة أكثر مما تحتاج إلى الغذاء ،
وكلاهما ضروري للحياة . وإذا كان الغذاء هو ضمان حياة الجسم فإن
الاستقامة ضمان لحياة النفس .

من هنا قيل : إن استقامة النفس معناها : اعتدالها وتوازنها .

وأساس استقامتها هو التوازن بين قوى النفس الأربعة وهي : العلم ،
والعدل ، والشهوة ، والغضب .

= ومن هنا كانت الاستقامة حال النفس السوية المعتدلة المتوازنة .

.....

= ويمكن تشبيه النفس البشرية في تجربتها الحياتية بالجرة ، فإذا أخلصت واستقامت وامتلات جرتها بالهواء النقي فإنها تحيا حياة آمنة مطمئنة ، أما إذا نافقت واعوجت ثقلت وامتلات جرتها بالهواء الفاسد فتحيا حياة الخوف والفرع ، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن نوضح أن التخيبط والإعوجاج في التفكير والسلوك أمر خارج عن الاستقامة وذلك لبعده عن التعقل والأناة والصبر والصدق ، أما الاعتدال والاستقامة والقوامه فإنها من سمات الشخص المتوازن مع نفسه وعقله جميعاً . فجهازه النفسى منسجم مع بعضه البعض ، وتصرفاته متناسقة ، وسلوكه منضبطاً ، ولذلك فإنه يقرن بالحكمة ، والحكمة دليل الفهم الرشيد والاقتصاد فى الأمور كلها .

لذلك كان طريق الاستقامة هو الطريق الأمثل للإنسان ، فيه يعتدل أمره ، وعن طريقه تتوازن حياته ، وبالسير فيه يعرف حقوقه وواجباته ، وتؤكد له الغاية فى حياته على وجه الأرض .

(حسن الشرقاوى : الطب النفسى النبوى . الإسكندرية : دار المطبوعات الجديدة : سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص : ١٢١) .

وقد قيل فى معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ « سورة الأحقاف : الآية : ١٣ » .

أى استقاموا على المشاهدة . لأن من عرف الله تعالى لا يهاب غيره ، ومن أحب شيئاً لا يطالع سواه .

(الشعرانى : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ١٢٩) .

ولقد سئل الشيخ عبد القادر الجيلانى عن الاستقامة ؟ فقال : هو أن يصل العبد إلى درجة من النضج والكمال لا يهدأ له بال ولا يقرله قرار إلا بعد =

.....

= أن يذكر الله ، فإذا ذكر الله ، حصلت له طمأنينة ، ودخلت في قلبه بشاشة ،
وانبسط كل الانبساط ، فإذا وصل إلى تلك الدرجة أصبح وجوده كله
دعوة وتبليغاً .

(أبو الحسن علي الحسيني الندوي : ربانية لارهبانية ، ص : ٤٩) .

وبذلك تصبح الاستقامة الطريق السوي للمؤمن الذي يتخذ القرآن الكريم
إمامه ، سيدنا ومحمداً صلى الله عليه وآله وسلم قائده ، ويعلم أن الله من
ورائه يقدر الحسنات ويحصى السيئات ؛ وقيم الميزان العادل .

(محمد رجب البيومي : علماء في وجه الطغيان . القاهرة : الدار
القومية ، بدون تاريخ ، ص : ٧) .

إن النفس الإنسانية تحتاج دوماً إلى الرد السريع الحاسم على خواطرها
ووساوسها من خلال التمسك بأوامر الله والقنوت إليه تعالى ، وذلك
بمخالفة الأهواء ، والبعد عن الغواية والشهوات ، والانتصار للحق الذي
هو في الاستقامة والقوامة والعدل .

لذلك فإن العاقل من قام بتسليط الأضداد على نفسه عندما تجنح للاغترار
أو العجب ، أو الرضا عن ذاتها ، أو الرغبة في التسلط ، أو التجبر
والتكبر .

ولما كانت الاستقامة مجاهدة للنفس ، فإن الاستقامة النفسية هي أن يجاهد
المرء نفسه على مخالفة هواه ليتعد عن الضلالة وحتى لا يقع في الإثم .

وفي هذا المعنى يقول محمد بن المنكدر : كابدت نفسي أربعين سنة حتى
استقامت على آثار السلف .

= (الشعراني : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٣٢) .

.....

= فبالمجاهدة تنال الكمالات النفسية ، ويتحقق هذا إذا ماتأمل المرء نفسه أنه لم يخلق عبثاً ، وأن أعماله محصاة عليه ، وأن أنفاسه معدودة عليه ، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه .

ويقول ابن عباس رضى الله تعالى عنه : « جهاد النفس هو استفراغ الطاقة في الطاعة والأخفاف في الله لومة لأثم » .

(ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد . القاهرة : مكتبة المنار الإسلامية ، سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ج ٣ ، ص : ٨) .

ومن أقوال المحاسبى في هذا الصدد : « من اجتهد في باطنه ورثه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ » سورة العنكبوت : الآية : ٦٩ .

وعلى ضوء ما تقدم فالاستقامة تقوم على التطلع للوصول إلى حد الكمال هذا الحد الذى لن يستطيع الإنسان الوصول إليه إلا بالتخلص تماماً من آفات النفس وعلائق البدن . واجتياز الطريق حتى الوصول إلى آخر مقام فيتحقق صاحبها بالمعرفة اليقينية علماً وذوقاً وشهوداً ، ولكي يتحقق له ذلك فإنه ينبغي عليه أن يعمل على القيام بحق الاستقامة على قدر طاقته واستطاعته .

لذلك نبيه أن الاستقامة لاتتم إلا باستقامة القلب . كما أن القلب لا يستقيم إلا بشيئين هما :

١ - أن تكون محبة الله تعالى تتقدم جميع ماعنده من المحاب ، فإن تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه . =

.....

= ٢- الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى . وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهى ، فإن الله تعالى ذم من لا يعظمه ولا يعظم أمره ونهيه .

(ابن قيم الجوزية : الوابل الصيب من الكلم الطيب . القاهرة : مؤسسة قرطبة ، بدون تاريخ ، ص : ٣) .

قال تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ « سورة نوح : الآية : ١٣ » .
قالوا فى تفسيرها : مالكم لاتخافون من الله تعالى .

وما أحسن ماقاله شيخ الإسلام ابن تيمية فى تعظيم الأمر والنهى : هو أن لا يعارضا بترخيص جاف ، ولا يعارضا بتشديد غال ، ولا يحملا علة توهن الانقياد .

ومعنى كلامه : أن أول مراتب تعظيم الحق عزوجل تعظيم أمره ونهيه ، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عزوجل برسالته التى أرسل بهارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى كافة الناس . ومقتضاها : الانقياد لأمره ونهيه . وإنما ذلك يكون بتعظيم أمر الله عزوجل واتباعه . وتعظيم نهيه واجتنابه ، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهى . ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر .

ولما كانت الاستقامة لاتتم إلا باستقامة القلب فينبغى أن يفهم أن الحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب ، فقال عز من قائل : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ١٧٩ » .

من هنا قيل : فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتدوا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر =

= انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين .

كما قيل : متى استقام باطن الإنسان استقامت له الأمور .

هكذا تصبح الاستقامة طريقاً للنجاة . ولهذا جاء الدين هادياً في بعض الأمور التي لا يمكن أن تستقيم حياة الإنسان بدونها .

فمن تمسك بالاستقامة اهتدى إلى الطريق المستقيم . فالاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده . فإذا كانت الاستقامة على النهج الشرعي في اتباع الأوامر واجتناب النواهي فإن المرء يصبح في مأمن من الوقوع في البدع وبراءن الضلال إذا ما تسليح بالعقيدة الإسلامية منهجاً وسلوكاً .

وبذلك ترتبط الاستقامة بالمحافظة على العبادات إذا ما أداها الإنسان الورع حق أدائها وصل إلى حد التقوى لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٣ » .

هكذا يتضح أن التقوى لاتتم إلا بالورع والاستقامة . فمن كان تقياً كان مستقيماً ، ومن كان مستقيماً كان تقياً .

كما أن الاستقامة لها أهميتها وهي أنها تعد شرطاً أساسياً لبلوغ التقوى التي هي لباس كريم لا ينال شرف التزبي به إلا أهل الإيمان الحق ولا يخلعه الله تعالى إلا على أولئك الصالحين من عباده المكرمين الذين يخشون ربهم بالغيب ، ويأتون ما أمر الله تعالى به ، ويجتنبون ما نهى الله سبحانه وتعالى عنه .

.....

= (عبد الكريم الخطيب : الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى
النهاية ، ص : ١٦٤) .

لذلك نقول : من عبد الله بالخوف والرجاء استقام على المحجة البيضاء
وهنا يكون صاحب هذه الاستقامة أن قامت استقامته على الطاعة من غير
روغان إلى معصية كما تروغ الثعالب وأن لا يحدث نفسه بعود إلى ذنب
متى قدر عليه ، وأن يترك الذنب لأجل الله تعالى خالصاً لوجهه كما ارتكبه
لأجل هواه مجمعاً عليه بقلبه وشهوته ، فمتى أتى الله بقلب سليم من
الهوى وعمل خالص مستقيم على السنة فقد ختم بحسن الخاتمة . وهذه
هي التوبة النصوح . وهذا العبد هو العبد النائب المتطهر الحبيب .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ
تَابَ مَعَكَ ﴾ « سورة هود : الآية ١١٢ » .

فهذا أمر للرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالاستقامة في التوبة ، وأن هذا
الأمر له ولأتباعه ولأئمة .

وتستهدف الاستقامة الصواب والصدق والحق ، وتبتعد عن الإسراف
والغلو ونبد التقصير والشح .

قال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾
« سورة الإسراء : الآية : ٣٥ » .

كما ترتبط الاستقامة بالعدل والاعتدال ، والمقصود به الاستقامة والموازنة
أن يكون الشيء معتدلاً ، ومقصوداً إلى هدفه متضمناً الأمن والاستقامة .
= فالعدل إذن استقامة على الإطلاق .

.....

= وإذا كانت الوسطية في الإسلام هي الطريق الأقوم حيث لا تفريط ولا إفراط فإن أهل الوسط هم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة فلا يرى أحدهم أن يتكلم تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره في الآخرة .
وحين يهتف المسلم من قلبه داعياً مع الداعين : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ « سورة الفاتحة : الآية : ٦ » .

فذلك يعنى الرجاء من المولى سبحانه وتعالى أن يهديه والمؤمنين إلى الصراط القويم الذى لا انحراف فيه ذات اليمين ، ولا ذات الشمال ، وهو السبيل الوسط فى التدين الذى لا تشدد فيه ولا انطلاق ، ولا تفريط ولا إفراط ، بل هو الاعتدال الذى يكون المرء فيه واقفاً عندما شرع الله دون أن يتندع أو يتبع هواه .

من هنا كانت الاستقامة هي سلوك السبيل المعتدل ، المتوسط بين الإفراط والتفريط . أى النهى عن الإفراط ، وكذلك النهى عن التفريط .

هذا هو الأمر بالاستقامة الذى ينبغى أن يتبعه المرء فى سلوكه لفهم الدين الذى هو الصراط المستقيم ، ومنهجه القويم الذى ارتضاه لتنظيم شئون الحياة على المستويين الفردى والاجتماعى .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينهج منهج الاستقامة ، ويدعو إليه . وما أروع حكمته صلى الله عليه وآله وسلم حين كان يخفف على الناس ، ويبين لهم سماحة الإسلام ويسره ، ثم حين كان يقف بالناس عندما شرع الله سبحانه وتعالى فلا يوافق من يريد أن ينقص شيئاً من شعائر الإسلام وفرائضه . وهو بهذا يبين لنا أن المسلم فى علاقته بالله ، =

.....

= وفى علاقته بالناس ليس له أن يشرع فوق ما شرع الله ، مهما يكن الدافع إلى ذلك ، ثم مهما تكن الغاية من وراء ذلك .

هذا هو النظام الإبداعي الذى نسميه الصراط المستقيم الذى يرفض اليمين كما يرفض اليسار معاً ، ويقيم سلوكاً تركيبياً فذاً هو صراط الحق .

والعقل السليم يهدف إلى الاستقامة ، والاستقامة هنا إنما تعنى الوسط العدل الذى هو العمل الصالح ، والقصد والقسط والاقتصاد والاعتدال .

ولقد كان طريق الاستقامة هو الطريق الذى سلكه السلف الصالح من الصحابة رضوان الله عليهم .

فالاستقامة قول وعمل ، وعلى ذلك لا يستقيم قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة ومتابعة صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله وسلم .

لذلك ننبه أن سلوك الطريق إلى الله تعالى لا يمكن أن يكون من غير الطريق الذى انتهجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

والطريق المستقيم واحد وإن تعددت أنواع السير عليه . والمقصود أن الطريق إلى الله واحد ، فإنه الحق المبين ، والحق واحد مرجعه إلى واحد . وأما الباطل والضلال فلا ينحصر ، بل كل ماسوى الحق باطل ، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل . فالباطل متعدد وطرقه متعددة .

وقد قيل : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها : التقويم ، ثم الاستقامة ، ثم الاستقامة فالتقويم ، فالتقويم من حيث تأديب النفوس ، والإقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار .

وبذلك يكون الطريق هو المنتهاج الذى يسلك فيه المؤمن إلى الله تعالى . =

فمن تتلمذ لكل الخلق وجعل نفسه تابعا لامتبوعا . ومن رأى
أحواله مستقيمة تمشيخ على الخلق وجعل نفسه متبوعا لاتابعا
فما علم ذلك واجعل عوجك مشهودا لك على الدوام تعش سالما

= وأن يستسلم العبد لله رب العالمين ولا يستسلم لغيره .

(ابن نيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ص : ٣٥) .

واعلم أن مدار الأمر كله في الوصول بالقرب إلى الله تعالى هو الاستقامة
والعمل على منهاج الشريعة مع الاقتداء والمتابعة للنبي صلى الله عليه وآله
وسلم وأصحابه والسلف الصالح من أمته .

(السيد دحلان : تقريب الأصول ، ص : ١٣٦) .

من هنا جاءت عناية الإسلام بالصراط المستقيم وبالدعوة إليه ولقد منّ
الحق سبحانه وتعالى على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بأن
هداهم إلى الصراط المستقيم . ولذلك كان السير على الصراط
هو الغاية القصوى من الحياة الدنيا . والصراط المستقيم هو الذي رسمه الله
تعالى في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم .
فكان منهجاً ووسيلة ، وأوضح الحق سبحانه وتعالى مبادئه وقواعده
وغاياته وأهدافه .

(عبد الحلیم محمود : دلائل النبوة ومعجزات الرسول . القاهرة : دار
الإنسان ، سنة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، ص : ١٤٢) .

ويفتقر الإنسان دائماً إلى الصراط المستقيم ، ولهذا أمر الإنسان بسؤال
الهدى إلى الصراط المستقيم وأمرنا الله تعالى بقوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ﴾ « سورة الفاتحة : الآية : ٥ » . لأن صلاح العبد في عبادة الله
= واستعانته .

ويحصل لك المدد والخير. وهذا ^(١) طريقنا على الدوام إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أعلى درجات الاستقامة شهود العبد العوج في نفسه . وأعلى درجات الاعوجاج شهود الاستقامة في نفسه . فتأمل ذلك فإنه نفيس والله يتولى هداك .

وقال رضى الله تعالى عنه ^(٢) : المؤمن هو الذى صار الغيب (*)

= (عبد الفتاح فؤاد : ابن تيمية وموقفه من الفكر الفلسفى ، ص : ٢٥٨) .

نخلص من ذلك إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام صراطه المستقيم لتكميل البشر فى أمورهم الروحية والجسدية ، ليكون وسيلة للسعادة (١) فى الأصل : هذا .

(٢) لا توجد فى الأصل . أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(*) الغيب : الغيب كل ما ستره الحق عنك منك لامنه .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٢٥) .

ولقد أسماه الكاشانى فى اصطلاحاته : عالم الأمر ، أو عالم الملكوت ، أو عالم الغيب .

وبعبارة أخرى : هو عالم الأرواح والروحانيات لأنها وجدت بأمر الحق لباوسطة مادة ومدة .

(الكاشانى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ١١٨) .

كما أورد الكاشانى فى اصطلاحاته : الغيب المكنون ، والغيب المصون : هو سر الذات ولكنهاها الذى لا يعرفه إلا هو . ولهذا كان مصوناً عن =

عنده كالشهادة في عدم الشك وسرى الأمان منه في العالم كله
فأمنوه على أنفسهم وأموالهم على القطع من غير تخلل تهمة فلا
تخالط نفسك وتدخلها في المؤمنين إلا إذا صرت كما ذكرنا . فاعلم
ذلك واحذر من تزلزل اعتقادك في الله تعالى واتهامه في وصول
رزقك في شدة الغلاء ونحو ذلك . والله يتولى هداك .

وقال : من علامة رؤيتك نفسك على إخوانك عدم زيارتك
لهم ومحبتك أن يزورك ويمشون إليك . وهذا شأن أصحاب
الدعوى من فقراء هذا الزمان فتراهم لا يزورون أحداً من إخوانهم
خوفاً أن تقول تلامذتهم لولا شيخنا دون هذه المرتبة في المشيخة
مازاروه فأحوالهم كلها لهوى نفس وتراهم لا يطلعون بلداً إلا إن كان
أهلها يطعمونهم ويبرونهم ويعتقدونهم . فترك كل من عمل شيخاً
زيارة إخوانه وأقرانه وتقاطعوا وتدابروا . فأين الفقروا المشيخة ؟
فاعلم ذلك .

وقال : احذر من دعوتك التوبة (*) لأنها عزيزة الوجود .

= الأغيار مكنوناً عن العقول والأبصار .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية : ١٨٢) .

وأورد أيضاً : غيب الهوية وغيب المطلق : هو ذات الحق باعتبار اللانتمين .

(*) التوبة : تعنى التوبة في اللغة : « الرجوع » بوجه عام ، فيقال : تاب
وأتاب بمعنى : « رجع » .

.....

= (ابن منظور : لسان العرب ، مادة تاب ، القاهرة : دار المعارف ، بدون تاريخ ، ص : ٤١) .

كما تنص اللغة على أن معنى تاب العبد إلى الله من ذنبه توبة وتوباً ومتاباً ندم على معصيته ورجع عنها واستغفر ربه . هذا عن معنى توبة العبد إلى الله . وتاب الله على عبده . أى قبل توبته ، والله سبحانه وتعالى تواب على عباده .

ويذكر الأصفهاني أن التوبة هي ترك الذنوب على أكمل الوجوه ، وهذا أبلغ وجوه الاعتذار ، فإن الاعتذار إنما يكون على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن يقول المعتذر لم أفعل . **والوجه الثاني :** أن يقول : فعلت كذا لأجل كذا . **والوجه الثالث :** أو فعلت ثم أسأت . وقد أقلعت . وهذا الأخير هو التوبة .

(عبد الباري محمد داود : التوبة في الإسلام . دراسة منهجية أخلاقية ، دمنهور : الدار المصرية للكتب ، سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، ص : ١١)

هكذا يتبين لنا من خلال الوجوه الثلاثة السابقة التي ذكرها الأصفهاني مراحل مرور العبد في الذنب حتى يصل إلى بداية التوبة التي تعنى عنده ترك الذنب .

وكلمة « التائب » تقال للعبد الذي توجه إلى الله بالتوبة . والتائب أيضاً هو الله سبحانه وتعالى الذي تاب على عبده .

هذا عن كلمة : « التائب » فيما يتصل بالعبد الذي توجه إلى الحق سبحانه وتعالى بالتوبة ، فهو تائب إلى الله تاركا الذنب ، راجعاً إليه ، وكذلك ينصرف هذا الاسم : « التائب » على الله سبحانه وتعالى عندما يتوب =

.....

= على عبده فيقبل منه توبته . فيحق لنا القول : إن الحق سبحانه وتعالى تاب على عبده .

وكلمة : « التواب » يقال للعبء الكثير التوبة ، وذلك بتركه كل وقت الذنوب على الترتيب ، حتى يصير تاركاً لجميعه . والله سبحانه وتعالى من صفاته أنه : « التواب » لكثرة قبوله توبة عباده حالاً بعد حال .

وقد وردت مادة : « التوبة » متصلة بالله سبحانه وتعالى نحو ستين مرة في القرآن الكريم منها وصفه تعالى بالتواب في إحدى عشر آية ، تبع في عشرة منها وصفه بالرحمة بعد وصفه بالتوبة مثل قوله تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ « سورة الحجرات : الآية : ١٢ » .

وجاء وصفه بالحكمة بعد وصفه بالتوبة في آية واحدة هي قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

« سورة النور : الآية : ١٠ » .

أما عن التعريف الاصطلاحي للتوبة فهو الرجوع من الأوصاف المذمومة إلى الأوصاف المحمودة . أي الرجوع من المخالفة إلى الموافقة ، ومن الطبع إلى الشرع ، ومن الظاهر إلى الباطن ، ومن الخلق إلى الحق .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٢٥٩) .

كما أن التوبة هي اللبنة الأولى إلى الله في طريق إسلام الوجه إليه ، وهي أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله عز وجل . وأول ما يبدأ به المريد السالك إلى الله الذي يريد إسلام الوجه إليه إنما هو التوبة ، وتبدأ التوبة بالاستغفار ، وحقيقته أن لا يكون لك مع غير الله قرار . وهي بهذا الوضع أمان للمستغفرين من عذاب الله تعالى .

.....

= (عبد الحلیم محمود : أبو الحسن الشاذلی ، ص : ١٢١) .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾
« سورة النور : الآية : ٣٣ » .

ولقد أمر الله تعالى في القرآن الكريم بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها ،
وأوجبها حينما يكون هناك ذنب .

(عبد الحلیم محمود : بشر بن الحارث الحافی ، القاهرة : دار الشعب ،
يلدون تاريخ ، ص : ٨٢) .

من هنا كانت التوبة باباً واسعاً من أبواب الرحمة فرضه الله لعباده ، بل هي
واجبة على كل عبد في كل حال ، لأنه يظهر دائماً ما فرط فيه من ترك
مأمور ، أو اعتدى فيه من فعل محظور فعليه أن يتوب دائماً .

(ابن تيمية : أحكام عصاة المؤمنين ، ص : ٩) .

وعلى ذلك فهي شعور بالخطيئة ، وندم بالقلب ، واستغفار باللسان ،
وترك بالجوارح ، وعزم أكيد على الإقلاع عنها وعدم التفكير فيها .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية في الإسلام ، ص : ٦٨) .

وبذلك تكون التوبة فرضاً على جميع المذنبين والعاصين ، صغر الذنب أو
كبر ، وليس لأحد عذر في ترك التوبة بعد ارتكاب المعصية ، لأن المعاصي
كلها قد توعد الله عليها أهلها ، ولا يسقط عنهم الوعيد إلا بالتوبة . وهذا ما
يبين أن التوبة فرض .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٤٧) .

ويقال : من رجع عن المخالفات خوفاً من الله فهو تائب ، ومن رجع حياءً =

.....

= من الله فهو منيب ، ومن رجع تعظيماً لجلال الله فهو أواب .

(عبد الكريم الخطيب : الله والإنسان ، قضية الألوهية بين الفلسفة والدين ، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م ، ص : ٤٤٣) .

وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، وبهذا الاعتبار قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « التوبة ندم » .

(رواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وصحح إسناده من حديث ابن مسعود . وكذلك رواه ابن حبان ، والحاكم من حديث أنس ، وقالوا صحيح على شرط الشيخين) .

التوبة لها مبدأ ونهاية . فمبدأها : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذي نصبه الله سبحانه وتعالى لعباده ، موصلاً إلى رضوانه . وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٣ » .

ونهايتها : الرجوع إلى الله في المعاد . وسلوك صراطه الذي نصبه موصلاً إلى جنته . فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة ، رجع إليه في المعاد بالشواب .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ١ ، ص : ٢٣٦) .

فالتوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان . وجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها .

ومعني التوبة ينسع ويتسع حتى يكون فيه معنى الرجوع المستمر عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً ، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً . ويدخل في مسماها =

.....

= الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وتتناول جميع المقامات . ولذلك كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر ونهايته .

وعلى ذلك فحقيقة التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب ، والإقلاع عن المعصية ، والصفاء بالقلب .

(عبد الباري محمد داود : دراسة إسلامية عند المتكلمين والفلاسفة والصوفية ، ص : ١٥١) .

ولقد قيل التوبة النصوح هي التوبة الصادقة الحاسمة التي تتضمن الرجوع عن المعاصي لأنها مجلبة لغضب الله وعقابه والحرمان من ثوابه ، ويصحبها ندم على ما فرط من ذنب واستحضار خشية الله ، وعلم بمغبة المعصية ، وألم بوجع في القلب ، وحزن يطيل البكاء ، وكرهية للذنب أو للذنوب ، وعزيمة صادقة على ألا يعاود التائب ذنبه ، وطاعة لله خالصة ، فهي إذن تتميز بأنها موصولة بالماضي بالندم على ما سلف ، ومتصلة بالحاضر بالإقلاع عن الذنب ، ومرتبطة بالمستقبل بالعزم على اجتناب المعاصي .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾

« سورة التحريم : الآية : ٨ » .

وهنا ينبغي أن نوضح أن التوبة النصوح إنما تعنى التوبة الخالصة . ووجوبها على الفور أمر لا شك فيه .

قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ

يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ « سورة النساء : الآية : ١٧ » .

هكذا يتضح لنا أن التوبة النصوح هي تلك التوبة الصادقة الخالصة الخالية من الآثام والمعاصي .

.....

= (عبد الحليم محمود : القرآن والنبى ، القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص : ٢٢٨) .

كما أن التوبة النصوح حد فاصل ، وفيصل حاسم بين عهدين ، عهد سيطرة الشيطان ، سيطرة كلية أو جزئية ، سيطرة دائمة أو مؤقتة ، وعهد الانطواء تحت لواء عباد الرحمن الذين يقول الله فى حقهم مخاطباً الشيطان : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾

« سورة الإسراء : الآية : ٦٥ » .

والواقع أن الطريق إلى الحق الذى أرسل الله به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إنما يبدأ بالتوبة النصوح .

(عبد الحليم محمود : فاذكرونى أذكركم ، ص : ٢٥) .

والخوف والرجاء مقامان شريفان من مقامات أهل اليقين وهما كائنان فى صلب التوبة النصوح ، لأن خوفه حملة على التوبة ، ولولا خوفه ماتاب ، ولولا رجاءه ماخاف .

من هنا يتضح أن للتوبة ارتباطاً شديداً بالخوف والرجاء اللذين هما يقعان فى صلب التوبة .

فالخوف والرجاء يتلازمان فى قلب المؤمن ، ويعتدل الخوف والرجاء للتائب المستقيم فى التوبة .

وعندما سئل الحسن البصرى عن التوبة النصوح قال : التوبة النصوح ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، أى ترك المعاصى ، وإضمار ألا يعود إليها .

فكيف بما ورأىها من المقامات ؟

وإذا لم تصح لك التوبة فكيف تصلح أن ترشد غيرك وأنت

تتقلب ليلاً ونهاراً في هوى نفسك وحظوظها ؟

فاعلم ذلك وسد باب المشيخة على نفسك فإن إثم أتباعك

في عنقك لأن من هو في نفسه لا يهتدي أن يسلك نفسه إلا ممن

هو حظ لنفوسهم فلا يخرج تلميذه إلا على صفته فإن كان يحب

المشيخة ونظامها وإرخاء العذبة وإطراق الرأس بين يديه فتلميذه

يطلع يحب ذلك . ويقولوا : من أراد أن ينظر لمقام شيخ لم يجتمع

به فليتنظر إلى تلميذه فإنه يدل عليه .

ولذلك ترى كل واحد يحب أن ينفرد بالصيت والاعتقاد من

الخلق ، ولا ينظر^(١) الناس إلى شيخ سواه . وإذا مات شيخ من

هؤلاء تصير جماعته يتنازعون في المشيخة بعده ويكرهون

بعضهم بالطبع كأنهم على دين خلاف دينهم . بل رأينا أصحاب

الملل من اليهود والنصارى يتحابون ويحبون لبعضهم الخير فلا

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فلذا الشيخ من هؤلاء إذا بلغه عن شخص من أقرانه أنه

حصل له قبول تام واجتمعت القلوب على محبته وعظموه

ينقبض ويصير على وجهه كآبة لا تخفى فهوؤلاء كلهم محاطون

(١) في الأصل : وأن لينظروا .

في حظوظ نفوسهم . وما رأينا أحدا منهم يدعو الله تعالى أن
يخمد ذكره ويستره في الدنيا والآخرة فلا يحسدون إلا على ما
يجيء لهم في الدنيا ونبدوا الآخرة وراء ظهورهم فالله يلطف بنا
وبهم .

وقال : احذر من قولك لتلامذك إذا عملت شيئا إذا عرض
لكم الشيطان فاصرفوا فإنه يهرب فإنك لست من رجاله كما
سأبينه لك وهو أنه لعنه الله ما اجتمع بولي قط وناظره إلا وغلبه
وعلمه ما لم يكن يعلم . فلا يجتمع بولي قط إلا صاحب قدم . فهل
أنت ولي ؟

فإن قلت : نعم . فيقال لك : هل ذلك بشهادة الله أم^(١)
بشهادة نفسك ؟

إن قلت بشهادة الله تعالى نقول لك الوحي^(*) قد انقطع .
فما أنت على يقين^(**) من ذلك ولا ظن . وإن قلت بشهادة

(١) في الأصل : أو .

(*) الوحي : مرتبة الوحي تختص بالأنبياء .

() محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ، ص : ١٢٣ .

(**) اليقين : اليقين في اللغة : « يعني العلم الذي ليس معه شك » .
ويقال : يقن الأمر : ثبت ووضح فهو يقين ، وأيقن وتيقن واستيقن : علم
وتحقق . من هنا كان اليقين : إزاحة الشك وتحقيق الأمر ، أو العلم الحاصل
عن نظر واستدلال ، وحق اليقين : واضح اليقين وخالصه .

**نفسك فأنت مسخرة للشيطان يلعب بك أقل الردة . فما بقى إلا
الأصل وهو أنك غير ولى .**

= (محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية . القاهرة :
دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص : ٤٢٨)
وهو عند العارفين : « روية العيان بقوة الإيمان لا بالحجة والبرهان » .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الإسلام ، ص : ٥٨) .

وقيل : اليقين : مشاهدة الإيمان بالغيب . كما قيل : هو المشاهدة .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٤٣ ، ٩٣)

وعن جبير بن نفير عن أبى مسلم الخولانى أنه سمعه يقول إن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ما أوحى الله إلى أن أجمع المال وأكون
من التاجرين ، ولكن أوحى إلى أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين
واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

(رواه جبير عن أبى مسلم مرسلاً) .

وقد قيل : اليقين : « نور استودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من
خزائن الغيوب » .

أو بعبارة أخرى : النور المستودع فى القلوب هو نور اليقين .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم فى شرح الحكم ، ص : ٢٧٨) .

واليقين هو روح الأعمال وعمودها ، وذروة سنامها . ولقد خصه ابن القيم
بالذكر تنبيهاً على مادونه .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص : ٤٦) .

= كما أن اليقين قرين التوكل . ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين .

= وقال الجنيد : اليقين : هو استقرار العلم الذى لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير ويمكننا أن نقول : إن الاعتقاد والعلم إذا استويا على القلب ولم يكن لهما معارض أثمر في القلب المعرفة فسميت هذه المعرفة يقيناً ، لأن حقيقة اليقين صفاء العلم المكتسب حتى يصير كالعلم الضرورى ويصير القلب مشاهداً لجميع ما أخبر عنه الشرع من أمور الدنيا والآخرة .

(الغزالي : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، ص : ٤٦) .

وعندما يتمكن السالك في المشاهدة ويستقر فيها وتصير ملكة له ويتحقق في الفناء ويبقى في الله ، يبلغ مقام اليقين .

فاليقين بناء على ما تقدم هو أصل جميع الأحوال ومنتهاتها . أجل يزول كل ريب وشك عن قلب العارف في حال اليقين وتحل البشري محله . ويرى كبار الصوفية أن اليقين هو آخر الأحوال وباطنها جميعها .

(قاسم غني : تاريخ التصوف في الإسلام ، ص : ٥٨٠) .

وأول مقام اليقين - كما قال بعض الصوفية - الثقة بما في يد الله تعالى والإيأس مما في أيدي الناس . وهو ما قاله الجنيد رحمه الله حين سئل عن اليقين ، فقال : اليقين هو ارتفاع الشك .

وقال أبو يعقوب : إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله فقد تكامل فيه اليقين . واليقين - كما يرى مؤسس المدرسة الشاذلية - اسم تدرك به الحقائق بلا ريب ولا حجاب . وبهذا فإنه يعتبر المعرفة الاستدلالية بمثابة كشف العلوم معه - أي مع الله - بالحجاب ، فإن رفع هذا الحجاب أصبحت المعرفة يقينية ، وتلك هي معرفة المجذوب الذي يرفع عنه الحجاب ، ويعدّه أبو الحسن صاحب الحقائق ، أي الذي انكشفت له الحقيقة بلا ريب ولا حجاب .

.....

= ويشبه هذا اليقين عند الشاذلية المعرفة التي يحصل عليها الولي الواصل بالترقي إلي معرفة الله بالمشاهدة .

ومما ينبغي أن يفهم أنه لا يمكن تصور نهاية لليقين . وكلما ازداد العارف كمالاً ازداد يقيناً علي يقين آخر .

وهنا يقول التستري : « أول مقام للمعرفة هو أن يمنح العبد يقيناً في رأسه وتطمئن جوارحه جميعاً إلي هذا اليقين . أي أن الخواطر السيئة هي من ضعف اليقين » .

هذا النص يربط فيه التستري بين المعرفة واليقين حيث جعل أول مقام لمعرفة العبد هو أن يمنح يقيناً . فكأن اليقين هنا هو أول قدم للعبد عندما يدخل إلي باب المعرفة ، كما أضاف أن هذا اليقين لا يتم إلا إذا صحبه الاطمئنان الذي تطمئن إليه الجوارح .

ويقول التستري أيضاً : إن الحق تبارك وتعالى لم يعط القرب للأفراد بالخيرات وأعطى القرب باليقين .

ولاشك أن هذا القول إن دل فإنما يدل علي علو همة التستري الصوفية ومعرفته الذوقية عندما أوضح أن المرء لا يمكن في قرب من الله إلا إذا أعطي اليقين . فاليقين حسبما يري أنه أعلي من الخيرات التي يتقرب بها الإنسان من الله .

وقد قيل : أقل اليقين هو أنه حينما يصل إلي القلب يملؤه نوراً ويظهره من كل شك حتي يتولد في القلب الشكر والخوف من الله ، واليقين هو عرفان عظمه الله . كما هو دليل علي عظمة الله وقدره . والعظمة هي معرفة عظمة الله » .

وبناء علي ما تقدم فاليقين عندما يصل إلي القلب فيمتلئ بالنور ويتطهر =

.....

= من كل شك وريب فإذا امتلأ القلب بالنور نصب له الحق سبحانه وتعالى طريق الهداية وطهره من كل الشكوك والظنون والأوهام فينبعث في القلب الخوف من الله تعالى عرفاناً بعظمته وذلك لكون اليقين دليلاً وبرهاناً علي معرفة عظمة الحق جلّ وعلا .

وإذا كان اليقين هو الطريق الموصل إلي معرفة عظمة الحق تعالى فإن العظمة هي معرفة عظمة الله .

وقد قيل : « اليقين نور يقذفه الله في قلب العبد كي يشاهد به كل أمور الآخرة وتحترق بقوة ذلك النور جميع الحجب التي بينه وبين الآخرة حتي يطالع بذلك النور أمور الآخرة كلها كأنه يشاهدها عياناً » .

هذا هو اليقين الحق الذي جاء في نصوص الكتاب وكان المصباح المنير الذي يضيء للمرء كيفية السير من دنياه إلي أخراه .

ويحدثنا عمرو بن عثمان المكي : « أول المشاهدة هي القربة والمعرفة بعلم اليقين وحقائقه ، وبداية المشاهدة زوائد اليقين ، وبداية اليقين نهاية الحقيقة » .

هذا النص يوضح أول المشاهدة أنها المعرفة بعلم اليقين ، ويفرق بين أول المشاهدة وبداية المشاهدة ، أو إن شئت فقل : الدخول في المشاهدة . فعند البداية أو الدخول في المشاهدة يتسلح المرء بزوائد اليقين . أما عن بداية اليقين فهو نهاية الحقيقة .

من هنا يتضح أن اليقين مقام من المقامات العالية التي وردت في نصوص الكتاب والسنة ، وهو أيضاً من المقامات العالية عند أصحاب الذوق من الصوفية . فما أجمل التعبير : « إن بداية اليقين هو نهاية الحقيقة » .

= ومن هنا أيضاً كان اليقين هو العلم الثابت الذي لا يتغير ولا يتحول =

.....

= ولا يتبدل لأن اليقين هو الاعتقاد الراسخ والدليل القاطع والبرهان الساطع .

ويقول أبو عثمان الخيري : « اليقين هو أن يكون القصد والتفكير في عمل الغد في الشخص ذليلاً » .

وعلي ضوء ذلك يكون اليقين هو الإسلام والتسليم المطلق لله تعالى في كل أمر من أمور الدنيا والدين .

ومما روي عن أحد الصوفية أنه سأل محمد بن الفضل : بماذا تتحقق سلامة الصدور ؟ فأجاب : « بالوقوف في حق اليقين ، وهي حياة يمنحون بعدها علم اليقين حتي يطالعوا بعلم اليقين عين اليقين وتحصل السعادة هاهنا ، ومالم يكن علم اليقين في البداية لا يتحقق علم اليقين ، فالذي لم ير الكعبة لا يحصل له علم اليقين بوجود الكعبة أبداً ، فبين أن علم اليقين يمكن تحقيقه بعد عين اليقين ، والعلم الذي يكون أكثر من عين اليقين إنما يحصل بالهمة والاجتهاد .

ومن هنا يقع تارة الصواب وتارة الخطأ . وإذا ما ظهر علم اليقين أمكنت مطالعة حقائق وأسرار عين اليقين بعلم اليقين .

وقد قيل : « اليقين هو حقيقة الأسرار بحكم الغيب » .

ولاشك أن هذا النص يبين أن اليقين هو التسليم لله تعالى .

كما قيل : بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ « ظهر لك منه

التوحيد وبقوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ظهر لك منه المعرفة ، وبقوله : ﴿ لَمْ

يَلِدْ ﴾ : ظهر لك منه الإيمان . وبقوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ظهر لك منه

الإسلام . وبقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ : ظهر لك منه اليقين . =

.....

= (عبد الرحمن الصفوري : نزهة المجالس ومنتخب النفائس ، ج ١ ، ص : ٦٢) .

من هنا قال سهل : التقوي واليقين مثل كفتي الميزان والتوكل لسانه به تعرف الزيادة والنقصان .

والملاحظ هنا أن سهلاً متأثر بالقرآن الكريم في ربط التقوي باليقين .

قال تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ فعندما يتقى المرء الحق سبحانه وتعالى حق تقاته يصل إلى درجة اليقين .

ومن هنا جاءت تسوية سهل بين التقوى واليقين وجعل التوكل اللسان بينهما .

ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تعلموا اليقين » .

ومعناه : جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين ، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوى يقينهم .
(رواه ابن أبي الدنيا) .

من هنا يفرق الدقاق بين العبادة ، والعبودية ، والعبودة ، حيث يرى أنها مراحل يسلكها العبد في الطريق إلى ربه مدلاً بقوله تعالى :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ « سورة الحجر : الآية : ٩٩ » .

فالعبودية من العبادة ، أولها عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة .

ويفسر القشيري ذلك بقوله : فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة للخواص الخواص .

ويوضح السراج الطوسي أن اليقين على ثلاثة وجوه : علم اليقين : وهو =

.....

= ما أعطاه الدليل بتصور الأمور على ما هي عليه . وعين اليقين : ما أعطته
المشاهدة والكشف . وحق اليقين : عبارة عن فناء العبد في الحق والبقاء به
علماً وشهوداً وحالاً لا علماً فقط . فعلم كل عاقل الموت علم اليقين ، فإذا
عابن الملائكة فهو في عين اليقين ، وإذا ذاق الموت فهو في حق اليقين .
وقيل : علم اليقين : ظاهر الشريعة ، وعين اليقين : الإخلاص فيها ، وحق
اليقين : المشاهدة فيها .

وأهل اليقين على ثلاثة أحوال : فالأول : الأصاغر ، وهم المريدون
والعموم وفي رواية أخرى : العوام ، وهو كما قال بعضهم :
الأول : مقام اليقين الثقة بما في يد الله تعالى والإيأس مما في أيدي
الناس .

والثاني : الأوساط : وهم الخصوص ويقىينهم هو التمكن من اليقين .
وفي تلك الحال يأنس السالك ويتحقق ويستمر في اليقين .

والثالث : الأكابر : وهم خصوص الخصوص ويقىينهم هو المرحلة التي
قطع فيها السالك كل صلة تربطه بغير الله ولا يكون له مراد سوى الله
فلا ينظر ولا يشعر بشيء سواه .

كما يقول جلال الدين الرومي :

أريد عيناً ثابتة للأسباب

نستأصل الأسباب من عروقها وجذورها

ويقول الهجویری : « إن كل ما يحصل اليوم بعلم صحيح يتحقق غداً
= بالرؤية » .

.....

= **وعلم اليقين** : هو علم معاملات الدنيا بموجب الأحكام والأوامر .

وعين اليقين : هو حال النزاع وإبان الخروج من الدنيا .

وحق اليقين : هو العلم بكشف الرؤية في الجنة .

فعلم اليقين : هو درجة العلماء بحكم استقامتهم على أحكام الأمور .

وعين اليقين : هو مقام العارفين بحكم استعدادهم للموت .

وحق اليقين : هو موضع فناء المحبين بحكم إعراضهم عن كافة الموجودات فيكون إذن علم اليقين بالمجاهدة ، وعين اليقين بالمؤانسة ، وحق اليقين بالمشاهدة . فالأول عام ، والثاني خاص ، والثالث خاص الخاص .

فعلم اليقين : هو معرفة الله بك ، إذ أنت عين الدليل عليه ، وهو إثبات ذات غير مكيفة ولا معلومة الماهية ، محكوم عليها بالألوهية ، سلطاناً وحبّة لاريب فيه .

(رسالة ابن عربي إلى فخر الدين الرازي ، هامش ص : ٨٨) .

وانظر : (ابن عربي : التنزلات الليلية في الأحكام الإلهية ، ص : ٧٣) .

وأصحاب هذا العلم : هم الذين اعتمدوا على الأعمال ففنوا فيها ، ومن ثم ألقى الله على بصيرتهم بنور الإيمان ، أما مشاهدتهم فتقتصر على عالم الملك ، أي عالم الكون أو المظاهر الفانية فتقتصر مشاهدتهم بذلك على المعاني الإلهية المتجلية في الموجودات الوهمية .

وعين اليقين : مشاهدة هذه الموجودات بعينها لابعينك ، فناء كلياً لا يعقل معها نسبة ألوهية ، إثباتاً أو نفيّاً . وأصحاب عين اليقين : هم أهل =

= الكشف والبيان ، وهم الذين وصلوا إلى مشاهدة نور الحقيقة الإلهية ، أو مشاهدة عالم الملكوت ، أي العالم الروحاني ، أو العالم النوراني الفائض من بحر الجبروت . ولكن هذا السالك يشاهد كثيلاً نورانياً بدون ضمه إلى أصله في اللطافة ، بمعنى أنهم يكونون في فناء عن شهود المكونات .

وحق اليقين : نسبة الألوهية لهذه الذات ، بعد المشاهدة لاقبلها ، وهو الفرق بين العالم والحق ليس إلا ، وحقيقة اليقين : ظهور الانفعالات عند العبد عن غيبته فيه به ، غياباً كلياً ، وفناء محققاً .

وأصحاب حق اليقين : هم أهل الشهود والعيان الذين يشرق على بصيرتهم نور إلى الرسوخ والتمكين . وذلك بعد تحققهم بمشاهدة نور الجبروت . أي نور المعرفة الأصلي اللطيف المضموم إلى أصله وهو الحق تعالى حيث يشاهد الواصل سارياً في عالم التكوين ، ومن ثم فإنه يرى الأشياء كلها قائمة بالله فيتحقق بالمعرفة اليقينية به تعالى .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ٤٢٨) .

وقد قيل : علم اليقين : هو قبول ما ظهر من الحق ، وقبول من غاب للحق ، والوقوف على كل مقام بالحق .

وعين اليقين : هو المغنى بالاستدلال عن الاستدلال . وعن الخبر بالعيان ، وخرق الشهود حجاب العلم .

وحق اليقين : هو إسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ، ثم الفناء في حق اليقين .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ١ ، ص : ٢٩٩ - ٣٠٠) .

وللناس في هذه الأسماء مقالات معروفة منها أن يقال : علم اليقين =

.....

= ماعلمه بالسمع والخبر والقياس والنظر . وعين اليقين : ما شاهده وعينه بالبصر . وحق اليقين : ما باشره ووجده وذاقه وعرفه بالاعتبار .

(ابن نيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، الرسالة السابعة ، ج ٢ ، ص : ١٤٦) .

ولقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علماً يقينياً لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً ، ويرقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله على سؤاله وأعطاه غاية مأموله .

ويقال : من علامة اليقين تسليم القضاء بحسن الصبر والرضا وهو مقام العارفين . فعلم اليقين : هو ما كان بالنظر والاستدلال .

وعين اليقين : هو ما كان من طريق الكشف والنوال .

وحق اليقين : هو ما كان بتحقيق الانفصال عن لون الصلصال بورود الوصال .

وفى هذا الصدد يحدثنا النصر آبادي : علم اليقين يدل على الأفعال ، فإذا فعلها وأخلص فيها وظهرت له بينات ذلك ، صار علم اليقين عين اليقين .

(الشعراني : الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية ، تحقيق عبد الباري محمد داود . القاهرة : مكتبة أم القرى ، سنة ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، ص : ٣٢٨) .

فإذا ترقى من عين اليقين وتحقق العبد به أصبح يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات مشاهدة عيان ، ويحكم على الغيب فيخبر عنه بالصدق كما أخبر الصديق حين قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : =

.....

= ماذا أبقيت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله .

ولعلنا نستطيع أن نستخلص من ذلك أن الصديق قد أفنى الكل - أى قد انسلخ كلية من كل ماسوى الله ، وانقطع حقيقة إلى الله منتظراً إفناء نفسه في رضاه .

ويعلق أحد الحكماء على إجابة أبي بكر قائلاً : « فالله جل جلاله ميراثه ، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم نديم رؤيته » .

(محمد كمال جعفر : التصوف طريقاً وتجربة ومذهباً ، ص : ٢٢٥) .

وقد قيل : لليقين اسم ، ورسم ، وعلم ، وعين ، وحق . فالاسم والرسم للعوام ، وعلم اليقين للأولياء ، وعين اليقين لخواص الأولياء ، وحق اليقين : للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وحقيقة حق اليقين اختص بها نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(السيد المنوفي : التصوف الإسلامى الخالص ، ص : ١٦٨) .

كما قيل : علم اليقين : تصوّر الأمر على ما هو عليه ، وعين اليقين : شهوده كما هو ، وحق اليقين : الفناء فى الحق والبقاء به علماً وشهوداً وحالاً لا علماً فقط .

وقد قيل : علم اليقين : لأهل الدليل والبرهان ، وعين اليقين : لأهل الكشف والبيان ، وحق اليقين لأهل الشهود والعيان .

مثال ذلك : كمن سمع بمكة مثلاً ولم يرها ، فهذا عنده علم اليقين فإذا استشرف عليه ورآها ولم يدخلها فهو فى عين اليقين ، فإذا دخلها وتمكن فهو فى حق اليقين .

وكذلك طالب الحق فما زال من وراء الحجاب فانياً فى الأعمال ، فهو =

.....

= فى علم اليقين ، فإذا استشرف على الفناء فى الذات ولم يتمكن من الفناء فهو فى عين اليقين ، فإذا رسخ وتمكن فهو فى حق اليقين .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل عالم الملك ، وعين البصيرة لأهل عالم الملكوت ، وحق البصيرة لأهل عالم الجبروت .

أو تقول : شعاع البصيرة لأهل الفناء فى الأعمال ، وعين البصيرة لأهل الفناء فى الذات ، وحق البصيرة لأهل الفناء فى الفناء . فشعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك . وعين البصيرة يشهدك عدمك . وحق البصيرة يشهدك وجود الحق وحده لا وجودك .

وقد قيل : علم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف .

(خالد محمد خالد : الموعد الله ، ص : ٨٥) .

وعلم اليقين : هو العلم بحقائق الإيمان ، وعين اليقين : درجته التقوى والخشية . أى مباشرة الإيمان بعين القلب . وأما حق اليقين : فهو درجة الشهود والعرفان بالبصيرة ، كلها تدور كما قدمنا فى قطب رحي الإيمان .

ويقسم الشاذلى طريق الوصول إلى المعرفة اليقينية إلى ثلاثة أقسام تبعاً لما تنهجه من سبيل ، فهناك أولاً طريق العقل ويجعله للعلماء ، ثم طريق الكرامه ويجعله للأولياء ، وأخيراً طريق السر وهو خاص بالأنبياء .

كما يقسم ابن عربى المعرفة إلى ضربين : **الضرب الأول** : معرفة العوام ، وهى المعرفة التى تحصل بالاستدلال ، وتسمى علم اليقين . أى المعرفة المستندة إلى العقل والمنطق ، وهى التى تقابل عند الشاذلى =

وإن كنت غير ولى فلا يعرفك لأنك أقل وأخسّ عنده أن
يجتمع بك . وإذا كان لا يعرفك كيف يهرب من ذكر اسمك فالزم
قدرك ولا تفتح على نفسك باب المشيخة على أحد فتكون سبباً
لضلالهم .

= المعرفة الكسبية التى يستنتجها الباحث عن طريق العقل .

الضرب الثانى : معرفة الخواص ، ولها قسمان هما : حق اليقين ،
وعين اليقين .

فحق اليقين : هو المعرفة التى تحصل لخواص الأولياء بواسطة الشهود ، أى
شهود الحقيقة نفسها التى أعطاها إياها علم اليقين ، وتتم بعد تنقية القلب
من جميع الأكدار النفسانية والتعلقات البدنية ، وفيها تظهر للروح معرفة
الله تعالى بعين المشاهدة .

ويشبه هذ اليقين عند الشاذلية المعرفة التى يحصل عليها الواصل بالترقى
إلى معرفة الله بالمشاهدة . أما عين اليقين : فهو التحقق بالحقيقة نفسها ،
وذلك بالانفصال عن لون الصلصال بورود وفد الوصال . أى بعد الفناء
تماماً عن صفات البشرية . وهذا هو عين اليقين الأوحد المقارن
للجزئيات وفيها يرى الواصل « الوجود الأوحد » ، أو « وجود الحق فى
الاشياء » .

ويقترّب هذا النوع من المعرفة ، معرفة المجذوب فى الطريق الشاذلى حيث
يفنى عن نفسه تماماً ، وعن الفناء ذاته ، ولا يرى فى الوجود سوى وجه
الحق ، فإذا ردّ إلى البقاء فإنه ينظر إلى الموجودات بنور الله الذى أشرق
عليه . وبذلك يتحقق بالمعرفة عين اليقين .

من كل ما تقدم نستطيع القول : للصوفية سلمهم المعرفى الذى يبدأ =

وقد أوضحنا ذلك في (كتاب) ^(١) : « لواقع الأنوار » ^(٢) .
فراجعته تعرف قدر مرتبة إبليس وما أعطاه الله من القوة ولولا ذلك
ما حذرنا الله منه . واعلم أن أشد الناس نقباً في ذلك المتسلقين
على الولاية الذين يطلبون أن يصيروا أولياء بالجوع والخلوة
فيشتغلوا بإبليس فيشتخصوه بين أعينهم ويظنوا أنه لا يضارهم
لرؤيتهم أنهم أهل الله وهم أقل عنده من أن يقصدهم لأنهم كضوه

= بالعقل وينتهي بالذوق بعد تحققهم بعلم اليقين واصلين بتجربتهم
الروحانية الذوقية إلى عين اليقين فيكشف لهم من الله بعض مغيباته ،
فيشهدهم شيئاً من تجلياته ، ويتلقون من لدنه علماً ، فيزدادون تحقّقاً
ويقيناً ، وترسخاً ، وعرفاناً .

وهنا نجد أن علوم الصوفية قد اشتركت مع علوم غيرهم في المرتبة الأولى
من مراتب العلم ؛ وهي مرتبة علم اليقين الذي يعطيه الدليل بتصور الأمور
على ما هي عليه ، وامتازت عليهم بمرتين :

إحداهما : مرتبة عين اليقين : وهو ما تعطيه المشاهدة والكشف

والأخرى : مرتبة حق اليقين : وهو فناء العبد في الحق . والبقاء به علماً
وشهوداً وحالاً لا علماً فقط .

(١) زيادة أضفناها لحفظ المعنى والسياق .

(٢) أحد مؤلفات الإمام عبد الوهاب الشعراني ويوجد بدار الكتب المصرية
= بالبيانات التالية :

المؤنه إذ مجاهداتهم كلها لحظ النفس^(١) ولا يتوبون^(٢) إلى الله بشيء دخلته النفس وإذا خرج عن كونه قرية فلا يحتاج إلى وسوسة . فاعلم ذلك واستغفر الله في جميع أحوالك .

وقال : كل فقير لا يخرج عن تقليد الأئمة ويستغنى عن علمهم بما اعطاه الله من النور الفارق يضرق به بين الحق والباطل^(*) . فلا يصلح أن يعمل شيخاً .

رقم الحفظ	المؤلف	العنوان
25061 ح — مري	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
1923 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
1924 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
1970 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
2066 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
2096 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
2097 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار
2098 تاريخ طلعت عربي	عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي	لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار

(١) في الأصل : نفس .

(٢) في الأصل غير واضحة .

(*) الحق والباطل : الحق اسم عام ، يطلق على كل صورة فكرية أو قولية ، مطابقة لما عليه حال الشيء ، الذي تحكيه هذه الصورة وجوداً =

.....

= وعمداً . ولو ذهبنا نستقصى لفظة « الحق » في القرآن الكريم لوجدناها أكثر من مئتي مرة .

والباطل اسم عام ، وهو نقيض الحق ، يطلق على كل صورة فكرية أو قولية ، غير مطابقة لما عليه حال الشيء ، الذي تحكيه هذه الصورة وجوداً وعمداً والباطل : معناه الزائل . وقد وردت لفظة « الباطل » و « المبطلون » في القرآن الكريم ، أكثر من ثلاثين مرة .

ولنضرب مثلاً على مانحن بصدده : فالصورة الفكرية أو القولية ، التي تحكى أن الله تعالى موجود ، وهو خالق كل شيء ، حق . أما الصورة الفكرية أو القولية الأخرى التي تحكى أن الله تعالى غير موجود ، أو أن الله تعالى له شريك في خلقه وأمره . فلا شك أن هذه صورة باطلة .
والدليل على ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ « سورة الحج : الآية : ٦٢ » .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتِ تُصْرِفُونَ ﴾ « سورة يونس : الآية : ٣٢ » .

فالله سبحانه وتعالى وجوده حق ، وهو الذي تحقق له الألوهية ، ويستوجب العبادة ، وسواه مما أشرك معه باطل وضلال . والله تعالى الحق ، وذو الحق ، ودينه الحق ، وعبادته حق ، ووعدته حق .

والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى الحق لقوله عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ

.....

يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ سورة يونس : الآية : ٣٥ .

وفى الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وحبينا فيه . وأرنا
الباطل باطلاً ، وارزقنا اجتنابه ، وكرهنا فيه .

لذلك كان من الضروري الالتزام بمبدأ الحق ، لأنه هو الذى جاء به
الإسلام . فالإسلام دين الحق .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ سورة التوبة : الآية : ٣٣ .

كما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يدعو
الناس إلى الحق الذى جاءهم به .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ
اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِوَكِيلٍ ﴾ سورة يونس : الآية : ١٠٨ .

وكذلك يوضح القرآن الكريم أن من صفات المؤمنين أنهم يتواصون بالحق
لقوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

فالحق هو سلاح المؤمن الذى يتسلح به للدفاع عن عقيدته ضد كل باطل
وهو المصباح المنير الذى ينير الطريق للذين سلكوا طريق الهدى والطاعة لله
سبحانه وتعالى . وكل من تمسك بالحق هدى إلى الصراط المستقيم . أما
من انحرف عن طريق الحق وابتعد عنه فإنه بلا شك وقع فى الضلالة
والباطل .

واحذر أن تعمل شيخاً وأنت مقلد لكلام الفقهاء (*) أو لرسالة شيخ من مشايخ الصوفية . فإن في ذلك هلاكاً . فمن لم يكن كتابه قلبه لا يصلح لهذا الباب .

= وما ينبغي أن يفهم أن أكثر الناس خطايا أو ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل .

وقد قال أحد العلماء : إن أردت أن تكون مرتبطاً بالحق فتبرأ من نفسك واخرج عن حولك وقوتك .

ولقد جاء في رسالة : « الفرقان بين الحق والباطل » : أن الله سبحانه وتعالى بين ذلك بكتابه ، فمن كان أعظم اتباعاً لكتابه الذي أنزله ، ونبه الذي أرسله كان أعظم فرقاناً ، ومن كان أبعد عن اتباع الكتاب والرسول كان أبعد عن الفرقان واشتبه عليه الحق بالباطل كالذين اشتبه عليهم عبادة الرحمن بعبادة الشيطان والنبى الصادق بالمتنبى الكاذب وآيات البيان بشبهات الكذابين .

(ابن تيمية : مجموعة الرسائل والمسائل ، الرسالة الأولى ، ج ١ ، ص : ٢) .

وكان بشر بن الحارث يقول : « أسد الأعمال ثلاثة ، الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة عند من يخاف ويرجى » !
وقد قيل : إذا ظهر الحق لم يبق معه غيره .

(عبد الحليم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٦٤) .

(*) **الضقهاء** : هم العلماء الذين درسوا العلوم الشرعية . وهم أصحاب منهج شرعى . ولقد قيل : الناس كثير ، والعلماء فى الناس قليل ، والعلماء كثير ، والفقهاء فى الناس قليل ، والفقهاء كثير ، والحكماء فى =

.....

= في الفقهاء قليل . ولقد قال بعض السلف : إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يُنس الناس من رحمة الله ، ولا يجزئهم على معاصي الله .
(ابن تيمية : أحكام عصاة المؤمنين ، جمع وتقديم مروان كجك . القاهرة الدار السعودية بمصر ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص : ٢٣) .

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب ، فقال : « لهم قلوب لا يفقهون بها » . فلما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهتموا ، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة ، وأكثر انقياداً لمعالم الدين ، وأوفر حظاً من نور اليقين .
(كامل سعيان : سبحانه الله . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، ص : ١٣) .

ولقد قيل : أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة . فالعلم يكشف عن المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل .
فالبداية فقهية ، والنهاية صوفية . ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث ولم يحط علماً بما أحاطوا ، فإنه يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العالمين .

(عبد القادر محمود : الفلسفة الصوفية ، ص : ٦٦ - ٦٧) .

ويقول الإمام الشاطبي انتصاراً للتصوف : « وأما الكلام في دقائق التصوف فليس بيدعة بإطلاقه ، ولا هو بما صح بالدليل بإطلاق ، بل الأمر ينقسم ، ولفظ التصوف لا بد من شرحه أولاً حتى يقع الحكم على أمر مفهوم لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين ، فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون . وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان : =

وقال : كل فقير لا يميز الحرام من الحلال بالنظر فليس
بفقير فورعه أقبح من ترك ورعه ولا يزداد بورعه إلا مقتاً وطرداً
على أن الورع لا يصح عندنا لأنه لا قدرة للعبد عندنا أن يمتنع من
أكل الحرام إذا قسم له أكله .

ومن لم يقسم له لا يحتاج إلى ورع (*) . فعلم أنه لا يلزم من

= أحدهما : التخلق بكل خلق سنى ، والتحرر من كل خلق دنى . والآخر
أنه « الفناء » والبقاء بربه عن نفسه ، وهما فى التحقيق بمعنى واحد ، إلا
أن أحدهما يصلح التعبير به عن البداية والآخر لا يلزمه الحال .
والثانى : يلزمه الحال . وقد يعبر عنهما بلفظ الآخر .
(*) الورع : اختلف الناس فى الورع على ثلاثة أقوال ساقها المحاسبى فى
« المكاسب » :

١ - ترك ما حاك فى الصدر من جميع الحكايات .

٢ - الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام .

٣ - ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس .

(المحاسبى : القصد والرجوع إلى الله ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا
القاهرة : دار التراث العربى ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ،
ص : ٦١) .

وقد قيل : الورع : هو الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس مع كل
طرفة . (الطوسى : اللمع ، ص : ٥٠) .

كما قيل : الورع مرتبة فوق الزهد وهو أن تدع ما فيه شك من المباح
مهما كانت الحاجة إليه .

معرفة الحرام اجتنابه ولا من معرفة الحلال أكله . ولا يخرج عن هذا أحد من الأولياء . ولكن الله حمى بعض أوليائه من تناول ما للشرع على أكله اعتراض فظن القاصرون أن ذلك بجهدهم فجهدوا أن يكونوا مثلهم فتشبهوا بما ليس لهم . وكل ما قسم لك واستغفر الله . والله يتولى هداك .

= (ابن الخطيب : ملحق روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٣٧) .
فإذا صدقت التوبة ، استلزمت لامحالة الورع ، والورع هو أن يتسرك الإنسان كل ما فيه شبهة . وتوجيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متناسقاً في ذلك مع القرآن الكريم ، كثير مستفاض فيما يتعلق بالورع ، من ذلك ما أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يوقع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .
(هذا الحديث متفق عليه) .

وعن عطية بن عروة السعدي الصحابي رضى الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ؛ حذراً مما به بأس » .

= (رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح) .

.....

= ومن ذلك ما رواه الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه قال : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .
(رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وقال النووى : معناه : اترك ماتشك فيه وخذ ما لا تشك فيه) .

وفى خبر مسند عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا ، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما نفعكم ذلك إلا بورع صادق » .

(رواه أبو ذر رضى الله تعالى عنه مع الاختلاف فى اللفظ ، وأوله : يا أبا ذر كن ورعاً تكن أعبد الناس) .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم متناسقاً مع القرآن الكريم ، ما رواه ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال : تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ « سورة البقرة : الآية : ١٦٨ » .

فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله : « ادع لى حتى أكون مستجاب الدعوة . فقال : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به . وأن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ « سورة المؤمنون : الآية : ٥١ » .

.....

= ولقد كان بشر مثلاً واضحاً في الورع ، فإن من النادر حقاً أن نجد من يماثل
بشراً في تحريره الحلال ! .

ومما يروى : جاءت أخت بشر إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى
عنه فقالت : إنا نغزل علي سطوحنا ، فتمر المشاعل ، فيقع الشعاع علينا ،
فهل لنا أن نغزل في شعاعها ؟ فقال : من أنت ؟ قالت : أنا أخت بشر .
فبكى الإمام أحمد حتى أبكى من حوله ، وقال : « من بيتكم خرج الورع ،
لا تغزلى في شعاعها ! » .

وكان الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه شديد الإعجاب والتقدير
لمكانة بشر في الورع ، وفي ذلك ما يرويه ابن عساكر : سئل أحمد بن
حنبل عن مسألة في الورع ، فقال : أنا أستغفر الله ، لا يحل لى أن أتكلم في
الورع ، أنا أكل من غلة بغداد ، لو كان بشر بن الحارث حياً لصلح أن
يجيب عنه ، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ، ولا من طعام السواد ورعاً .
(عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث ، ص : ٩٥) .

وكان بشر يقول : الصبر هو الصمت ، والصمت من الصبر ، ولا يكون
المتكلم أورع من الصامت ، إلا رجل عالم يتكلم في موضعه ويسكت في
موضعه .

فالورع هو المجانبة لكل ما كرهه الله عز وجل من مقال ، أو فعل بقلب
أو جارحة ، والمجانبة لتضييع ما عرض الله عز وجل عليه في قلب أو جارحة .
(المحاسبى : الرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله ، تحقيق محمد عثمان
الخشت . القاهرة : مكتبة القرآن ، الطبعة الأولى ، سنة
١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م ، ص : ٦٧) .

=

.....

= وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يكون العبد في السماء ولا في الأرض مؤمناً حتى يكون وصولاً ، ولا يكون وصولاً حتى يكون مسلماً ، ولا يكون مسلماً حتى يسلم الناس من لسانه ويده ، ولا يكون مسلماً حتى يكون عالماً ، ولا يكون عالماً حتى يكون بالعلم عاملاً ، ولا يكون بالعلم عاملاً حتى يكون زاهداً ، ولا يكون زاهداً حتى يكون ورعاً ، ولا يكون ورعاً حتى يكون متواضعاً ، ولا يكون متواضعاً حتى يكون عارفاً بنفسه ، ولا يكون عارفاً بنفسه حتى يكون عاقلاً في الكلام » .

وكان بشر يقول : « أسد الأعمال ثلاثة : الجود في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف ويرجى ! »

(عبد الحليم محمود : بشر بن الحارث ، ص : ٦٦) .

فالورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه .

وأصل الورع أن يتعاهد المرء قلبه لكي لا يفكر فيما لا يعنيه فكلما ذهب قلبه إلى ما لا يعنيه عاجله حتى يرده إلى ما يعنيه .

(السمرقندي : تنبيه الغافلين ، ص : ٢٠٧) .

ومن المرويات : دخل الحسن البصري مكة ، فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له : ماملاك الدين ؟ فقال : الورع ، فقال له : ما آفة الدين ؟ فقال : الطمع . فتعجب الحسن منه .

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « يا أبا هريرة كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقل من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » . =

.....

= وعن الحسن عن عمران بن الحصين رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله تعالى : « عبدي أد ما افترضت عليك تكن من أعبد الناس ، وانه عما نهيتك عنه تكن من أروع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن من أغنى الناس » .

ويقول عبد الله بن المبارك : لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتق شيئاً واحداً لم يكن من المتقين ، ولو تورع عن مائة شيء ولم يتورع عن شيء واحد لم يكن ورعاً .

ومن أقوال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع فى الحرام » .

ولما سئل لقمان : أى عملك أوثق فى نفسك ؟ قال : ترك ما لا يعنينى . ولا شك أن هذا رباط وثيق بين الحكمة والورع عند لقمان .

ويربط الكرخى بين الصمت والورع فيقول : احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الدم .

(الجيلاى : الغنى لطالبى طريق الحق ، ج ١ ، ص : ١٣١) .

ويرى السقطى ضرورة الزهد للورع ، إذ يقول : « لا يقوى على ترك الشهوات إلا من ترك الشهوات » .

ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت الطوسى يقرر أن الورع يقتضى الزهد .

وقال الحسن البصرى : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال ذرة من الصوم والصلاة .

وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع ماحاك فى نفسك فاتركه . =

.....

= وهذا مقاله ابن سيرين : مافى دينى شىء أيسر من الورع . كل ما أشتبه عليه تركته .

(أبو سعيد الخراز : الطريق إلى الله « كتاب الصدق » تحقيق عبد الحليم محمود . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص : ٤٢) .

من هنا قيل : من توقى صغائر الشبهات ، سلم من كبائر الصفات .

كما قيل : الورع : هو الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

وقال أحد السلف الصالح : لأن أكون ذنباً فى الحق ، أحب إلىّ من أن أكون رأساً فى الباطل .

لذلك قال ابن المبارك : لأن أرد درهماً من شبهة أحب إلىّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف .

كما قال سفيان بن عيينه : لا يصيب عبد حقيقة الإيمان حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال وحتى يدع الإثم وماتشابهه منه .

وهذا ما نطق به ميمون بن مهران : « لا يسلم الحلال لأحد ، حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال » .

كلمات تتفجر ذكاءً ونوراً.. ونضعنا أمام الورع وجهاً لوجه .

كما قال أبو عبد الرحمن العمري الزاهد : إذا كان العبد ورعاً ترك ما يريبه إلى ما لا يريبه .

ويدلى حسان بن أبى سنان بقوله : ماشىء أهون من الورع ، إذا رابك شىء فدعه .

وقد قيل : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات . =

.....

= ويحدثنا العطار في : « تذكرة الأولياء » : أساس العبادة الورع ، وأساس الورع التقوى ، وأساس التقوى محاسبة النفس ، وأساس المحاسبة الخوف والرجاء يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد ، وفهم الوعد والوعيد يرجع إلى تذكر الجزاء ، وتذكر الجزاء يرجع إلى الفكر والاعتبار .

(المحاسبى : الرعاية لحقوق الله ، تقديم عبد الحليم محمود . القاهرة : دار المعارف ، سنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص : ٤٧) .

ويتشايك هذا مع ماسجله السلمى فى « طبقاته » نقلاً عن الوراق أنه قال : « لا يصل العبد إلى شىء من التقوى وعليه بقية من الزهد والورع .

وقد فرق قوم من العلماء بين الزهد والورع فجعلوا الزهد ترك المحرمات والورع ترك المباحات .

(ابن عبد الله الباهلى الأشبلى : الذخائر والأعلاق فى آداب النفوس ومكارم الأخلاق ، ص : ٦٨) .

ومن كلام بعض الصالحين : لكل عمل كمال ، وكمال الدين الورع .

ولقد أجاب أحد البلغاء عندما سئل عن السخاء فقال : أن تكون بمالك متبرعاً وعن مال غيرك متورعاً .

(أبو الحسن البصرى : أدب الدنيا والدين ، ص : ١٨٣) .

وقال صاحب المنازل : الورع هو آخر مقام الزهد للعمامة ، وأول مقام الزهد للمريد .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص : ١٧) .

وبذلك فالورع مرتبة فوق الزهد . وهو أن تدع مافيه شك من المباح مهما كانت الحاجة إليه .

.....

= من هنا قيل : كيف يكون زاهداً من لا ورع له ؟ تورع عما ليس لك ، ثم ازهد فيما لك حسبما يرى يحيى بن معاذ .

(السلمى : طبقات الصوفية ، ص : ٢٦) .

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم » .

وأجاب أحد العلماء عندما سئل عن عقدة الورع فقال : الشريعة تأمره وتنهاه فيتبع ولا يخالف .

ولقد صدق الشافعى إذ يقول :

المراء إن كان عاقلاً ورعاً • أشغله عن عيوب غيره ورعه

كما العليل السقيم أشغله • عن وجع الناس كلهم وجعه

(الشافعى ، أبو عبد الله محمد بن إدريس : ديوان الشافعى ، جمعه وعلق عليه محمد عفيفى الزغبى . بيروت : دار العلوم الحديثة ، الطبعة الرابعة ، سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ، ص : ٥٦) .

فالإنسان بعد أن يخلى القلب بما ران عليه من الذنوب والآثام فى مقام التوبة يكون على حذر من الذنوب حتى يترك بعض الحلال الذى يكون فيه شبهة مخافة أن يقع فى الحرام .

من هنا قيل : الورع : محاسبة النفس فى كل طرفة والخروج من كل شبهة وبعبارة أخرى كما قال إبراهيم بن أدهم : « الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعينك » .

أو كما قيل عن الورع أن تطالب نفسك بما يطالب به الشريك الشحيح شريكه فينافسه فى التقير والقطمير .

.....

= (القشيري : شرح أسماء الله الحسنى ، ص : ١٣٦) .

وليس الورع فيما بين الإنسان وبين نفسه فحسب ، ولكن ورعه كذلك في
التبري من مظالم الخلق حتى لا يكون لأحد قبله مظلمة ولا دعوى ولا طلب
(الطوسي : اللمع ، ص : ٥٠) .

ومما يحكى عن الإمام الجنيد رضى الله تعالى عنه أنه قال : « الورع في
الكلام أشد منه في الاكتساب » . وهو يدل على تدقيق في تحرى الشبه .
ولا يبتبه إلى ذلك إلا القليل .

وقد وضع بجودة تعبيره هذه الحقيقة على هيئة كلمة موجزة ، إذ يقول :
« أعلم الناس بالآفات أكثرهم آفة » .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ٥٤) .

ولهذا بضع قاعدة هامة من قواعد الورع ، تقوم على أساس التقصى في
تطهير الباطن ، ويقول ما بلغ أحد درج الحقيقة إلا وجب عليه التقيد
بحقوق العبودية وحقيقتها ، وصار مطالباً بأداب كثيرة لم يطالب الله بها
غيره .

فالورع على ضوء ماتقدم . هو أن تتورع عن كل ماسوى الله تعالى .
كما قيل : أن تتورع عن أن يشك قلبك في الله طرفة عين . فكل ما خطر
ببالك فالله بخلاف ذلك .

(عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ، ص : ١٣١) .

ولما سأل المحاسبى أبا جعفر عن الورع ؟ كان جوابه فيه ثلاثة أقاويل :

= **القول الأول** : ترك ما حاك في الصدر من جميع الحكايات .

.....

= **القول الثاني :** الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام .

القول الثالث : ما رواه عطية السعدي ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا تكون حقيقة من المتقين حتى تدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس » .

ويؤخذ من حديث المحاسبي في الكلام على الورع نقلاً عن أبي جعفر أنه عالم ورع زاهد ، حيث دار حديث طويل مثمر بينه وبين المحاسبي في كتابه : « القصد والرجوع إلى الله » . فكان المحاسبي يسأل وأبو جعفر يجيب من أول الكتاب إلى آخره إجابات تنم على علمه الغزير ، وورعه العظيم ، وزهده الذي قل أن يوجد له مثيل .

ولقد سئل الجيلاني عن أي شيء يقرب العبد إلى الله عز وجل ؟ فقال : لذلك ابتداء وانتهاء ، فابتداء الورع ، وانتهاء الرضا والتسليم والتوكل . فالعلاقة بين الرضا والورع ألا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أورضى ، وأن يكون اهتمامه بما يرضى الله تعالى .

وعن أبي بكر الوراق أنه قال : « من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد والفقه تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسق ، ومن تفقه في الأمور كلها تخلص .

(القزويني : مختصر شعب الإيمان ، ص : ٣٤) .

وللورع علامات أحصاها السمرقندي في عشرة أشياء :

أولها : حفظ اللسان عن الغيبة لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾

« سورة الحجرات : الآية : ١٢ » . =

.....

= والثانى : الاجتناب عن سوء الظن لقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ

الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ « سورة الحجرات : الآية : ١٢ » .

ولقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إياكم والظن فإنه أكذب الحديث » .

والثالث : الاجتناب عن السخرية لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾

« سورة الحجرات : الآية : ١١ » .

والرابع : غض البصر عن المحارم لقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ « سورة النور : الآية : ٣٠ » .

والخامس : صدق اللسان لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ١٥٢ » .

والسادس : أن يعرف نعمة الله لكيلا يعجب بنفسه لقوله تعالى :

﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

« سورة الحجرات : الآية : ١٧ » .

والسابع : أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل لقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾

« سورة الفرقان : الآية : ٦٧ » .

= يعنى لم ينفقوا فى المعصية ولم يمنعوا من الطاعة .

.....

= وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَرَامًا ﴾ « سورة الفرقان : ٦٧ » .
أى عدلاً .

والثامن : أن لا يطلب لنفسه العلو والكبر لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾

« سورة القصص : الآية : ٨٣ » .

والتاسع : المحافظة على الصلوات الخمس فى أوقاتها بركوعها
وسجودها لقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى
وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٣٨ » .

والعاشر : الاستقامة على السنة والجماعة لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا
صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ١٥٣ » .

والورع ينشأ عن العز نبه عليه ابن عطاء الله بقوله : « أنت حر بما أنت عنه
آيس ، وعبد لما أنت فيه طامع » .

كما قال : « أنت مع الأكوان مالم تشهد المكون فإذا شهدت المكون كانت
الأكوان معك » .

ولعلنا إذا رجعنا إلى ما يحكيه الشاذلى عن المتورعين نجد بقوله : « .. انتهى
بهم الورع إلى الأخذ من الله عن الله ، والقول بالله ، والعمل لله ، وبالله ،
على البينة الواضحة ، والبصيرة الفائقة ، فهم فى عموم أوقاتهم
وسائر أحوالهم لا يتدبرون ، ولا يختارون ، ولا يريدون ، ولا يتفكرون ، =

.....

= ولا ينظرون ، ولا ينطقون ، ولا يبيتشون ، ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون » .

هكذا أوضح الشاذلي أن التقوى لا تتم إلا بالورع والاستقامة .

والورع كما يعرفه ابن عجيبة : هو كف النفس عن ارتكاب ما تكره عاقبته .
(ابن عجيبة : معراج التشوف إلى حقائق التصوف ، تعليق محمد بن أحمد الهاشمي . دمشق : الطبعة الأولى ، سنة ١٩٣٧ م ، ص : ١٠) .
ولقد قيل : الورع إنما يحدث من روعة الله .

والورع له درجات :

الدرجة الأولى : الورع في الحديث : هو التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، إنه ترك كلمات الفضول ، وترك كل حديث ليس سهلاً .

من هنا يقول الإمام القشيري : « الورع في الحديث أشد منه في الذهب والفضة . ولا تدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك لأننا في مستوى لا ينزل إلى مستوى الآثام والذنوب .

الدرجة الثانية : الورع في القلب : وهو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع في القلب حتى يصل إلى ما يقوله الشبلي : « أن تتورع في كل ما سوى الله » .

ورع الصالحين : وهو الحذر عما يتطرق إليه احتمال التحريم ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس » .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال =

.....

= مخافة أن تقع في الحرام .

الدرجة الثالثة: الورع في الأفعال : وهو يتضمن التحري فيما يتعلق
بالمأكل ، والمشرب ، والملبس ، حتى يكون ذلك من حلال طيب .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله تعالى عليهم يتحرون في ذلك ما
استطاعوا ، وذلك أن النور في القلب ، والصفاء في العبادة ، والتيسير
فيما يأتي الإنسان وفيما يدع ، كل ذلك له علاقة بطيب المطعم ، والمشرب
 والملبس . والجو الإسلامي كله يحث على ذلك .

والورع عند الغزالي أربع درجات أدناها ورع العدل وهو ترك كل ما حرمه
فتوى الفقهاء كالربا والمعاملات الفاسدة .

الدرجة الرابعة: ورع الصديقين : وهو ترك ما هو منك عن الآفات .

(الدمياطي ، السيد بكرى المكي بن السيد محمد شطا : كفاية الأتقياء
ومنهاج الأصفياء . القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ، سنة
١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م ، ص : ١٠ - ١١) .

وقد قيل : ورع الصديقين هو الورع عن كل ما ليس لله تعالى .

كما قيل : الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وورع في الباطن .

فورع الظاهر : أن لا تتحرك إلا لله . وورع الباطن : هو أن لا تدخل قلبك
سواه .

(ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ج ٢ ، ص : ١٦) .

من هنا يقول يحيى بن معاذ : من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل
إلى الجليل من العطاء .

(عبد الحلیم محمود : أبو مدين الغوث ، ص : ٦٩) .

=

وقال : من لازم من يعتزل الخلق اعتقاد التجسيم والقول بالجهة - تعالى الله عن ذلك - علواً كبيراً . فلو كان اعتقاده صحيحاً لرأى الحق سبحانه مع كل الخلق . فأى فائدة للاعتزال . فصاحب الخلوة والعزلة من فقراء هذا الزمان لاشهود عنده للحق ولا إيمان على أن ذلك كله مبنى على رؤية نفسه أنه خير من جميع من يعتزل عنهم . ولو كان يعتقد أن كل الخلق خير منه كما هو شأن الفقراء ما اعتزل عن أحد من الخلق بل كان يأنس^(١) مجالستهم ويتبرك بهم .

فعلم أن خلوة هؤلاء وعزلتهم كلها تكبر وحقظ نفس ولكن جعلوها قياماً لنا موسهم ولولا ذلك ما تميزوا ولا اعتقدتهم أحد وتألمهم وتكدرهم لما يطلع شيخ آخر لبلدهم التي

= فالتورع ألا تتحرك ولا تسكن إلا وترى الله في الحركات والسكنات .

وهذا ورع الخصوص الذي لا يفهمه إلا القليل ، فإن من جملة ورعهم تورعهم أن يسكنوا لغيره ، أو يميلوا بالحب لغيره ، أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره . ومن ورعهم ؟ ورعهم عن الخوف مع الوسائط والأسباب ، وخلع الأنداد والأرباب . وورعهم عن الوقوف مع العادات ، والاعتماد على الطاعات ، والسكون إلى أنوار التجليات كما تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الآخرة صفاء .

(١) في الأصل : غير واضحة .

يترددون إليها لأجل إحسانهم فيجدهم كلهم انقلبوا بقلوبهم عنه . فلو كان قصده الخير للتلامذة فرح بذلك وكثرا اعتقاد التلامذة فيه وربما تلقن هو عليه لأنه كفاء المؤنة ووضع الهم في عنقه لأن كل من عمل شيخاً في هذا الزمان دخل عليه كل رياء ومداهنة لأجل اللقمة التي يجتمع عليها تلامذته .

وقد ذكرنا في رسالة : « الأنوار » : كون الشيخ صاحب هوى وحظ نفس كثرت تلامذته لأنه لو أمرهم بما يخالف هوى نفوسهم ماتبعه إلا قليل فصار كل شيخ له جماعة معينون يطوفون معه البلاد وربما تخلف الشيخ في تلك السنة عن الطواف فيجيبون إليه ويقولون له أهل البلاد كلهم في انتظاركم ياسيدى الشيخ فيقوون قلبه .

وصدق القائل لكن الذين ينتظرونه إنما هم الأكلون معه في الولائم والصناعات أما الضالاح الذى وزن الخراج الثقيل سبعة أمثاله وهاف زرعه بعد ذلك ولم يعرف له بلداً ليرحل^(١) إليها . كيف يضرح بمجىء معاليف كل واحد يطحن ويحبه يأكل ما عنده أولاده مع كضرانه نعمتهم .

(١) فى الأصل : مظموسة .

ويقول لمن يضيفهم حصل لك بركة (*) بأكل سيدي الشيخ

عندك .

(*) البركة : تعبر البركة عن النماء والزيادة ، والتبريك هو الدعاء بالبركة ، ويمكن أن يقال : بارك الله لك وفيك وعليك . كما يمكن أن يقال : باركك الله .

للفظ البركة ومشتقاتها أكثر من اشتقاق في القرآن الكريم وكلها بمعنى الخير الكثير والنعم والمباركة في الثمرات والأقوات والأولاد والنفع للناس فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾

« سورة فصلت : الآية : ١٠ » .

وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ « سورة الاسراء : الآية : ١ »
أي باركنا لهم في أقواتهم .

وقال تعالى : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ « سورة الصافات : الآية : ١١٣ » . أي منحه الله وابنه البركة والخير في الدنيا والآخرة .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾
« سورة النمل : الآية : ٨ » .

ومعناها : بورك في مكان النار ومن حولها وهم الملائكة وموسى .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ٩٦ » .

ومعنى الآية : السلامة من الآفات وتأمين الأرزاق ، والأمن =

.....

== والسكينة والغذاء والمطر ... الخ .

وقال تعالى : ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ « سورة هود : الآية ٤٨ » . أى يأنوح اهبط بسفينتك آمناً ببركة الله تعالى وأمن منه تعالى حيث سيكون من ذريتك أمم مختلفة وسينال بعضهم بركة الإيمان ، والبعض الآخر يستمتعون بالدنيا وينالهم فى الآخرة عذاب اليم .

وقال تعالى : ﴿ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ « سورة هود : الآية : ٧٣ » .

تلك رحمة الله عز وجل ونعمه الكثيرة التى يمنحها لأهل بيت النبوة فليس بمعجيب أن يهب لهم ما لا يهدى لغيرهم .

وقال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ٩٢ » . أى أن هذا الكتاب كثير الخير باق إلى يوم القيامة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ « سورة آل عمران : الآية : ٩٦ » .

وهو كثير الخيرات والثمرات جعله الله مباركاً إذ هو مكان هداية الناس والحج والاتجاه إليه فى الصلاة .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ « سورة مريم : الآية : ٣١ » . أى جعلنى مباركا معلما للخير نافعا للناس .

فهذا كلام خارج عن سياج طريق أهل الله . كما أوضحنا ذلك
في كتاب : « الميزان » ^(١) . وقال : أحسن أعمال العبد أن يرى نفسه
عاصياً وقلبه قاسياً فإنه يصير حينئذ لدعوى عنده هتامل .

وهذا ما درج عليه أهل الله لأنه وصفهم على الدوام .

= وقال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾
« سورة النور : الآية : ٣٠ » .

وهي شجرة كثيرة البركات طيبة التربة والموقع ألا وهي شجرة الزيتون .

(١) هذا المخطوط للإمام عبد الوهاب الشعراني يوجد بدار الكتب المصرية
تحت البيان التالي :

رقم الحفظ	المؤلف	العنوان
77 فقه المذاهب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
239 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
334 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
407 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
408 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
1783 فقه شافعى عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
21635 ب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
26301 ب عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
654 فقه تيمور عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
81 فقه المذهب طلعت عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
1 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
2 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
47 فقه شافعى ق عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين
48 فقه شافعى م عربى	عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى	الميزان الشعرانية المدخلة لجميع أقوال الأئمة المجتهدين

أما من يرى أحواله حسنة وهو مطيع وقلبه رقيق فالله أقرب
إليه من حبل الوريد .

قال تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾^(١) .

وقال : كيف تطلب أن تكون من المؤمنين وأنت طالب لأوصاف
المتكبرين من الصلاة على السجادة الرقيقة والمشى على أشرف
البقع من المساجد بالناسوتة وربما دخلت المسجد قلت عند
الصلاة : أين السجادة ؟

فلو كنت من أهل حضرة الله تعالى ما شعرت لا بسجادة
ولا بناسوتة فصارت الطريق إلى الله تعالى بالتكبر^(*) والفضامة

(١) سورة القلم : الآية : ٤٤ .

(*) **التكبر** : الكبر أو التكبر آفة من الآفات النفسية التي لا يسلم منها البشر ،
لكن أسوأ أنواعه الكبر الخفى . والكبر آفة كثير من العلماء ، وهو باب
المفاسد والضلالات ، والمدخل الذي يتصور الإنسان أن فيه الراحة والأمن
ولا يعرف أنه دليل البعد عن الله ، وسبيل الكذب والنفاق والرياء ، وأكبر
مغريات الكبر النظاهر بالتواضع ، والقلب خال ، والشيطان يحسن للمرء
سوء عمله ليوقعه فى حبال مكائده .

فالتكبر الظاهرى قد تمتلكه الدنيا بمظاهر خداعة ، وملذات مؤقتة ،
وشهوات عابرة ، يمكن أن ينفر عنها وأن ينصح أمره ، ويعرف نفسه ،
ويرجع عن غيه وذلك عن طريق العلم ، أو بالنصيحة الصادقة فيترك
المداينة والنفاق ، ويهجر المدح الكاذب والرياء ، ويعرف أن كل ذلك
لا يقود إلا إلى الخسران أو الضلال .

والدعوى والجبّة البيضاء والعمامة الرقيقة وإرخاء العذبة ووضع
الرأس في الطوق وشبه ذلك من أوصاف المنافقين .

= أما صاحب الكبر الخفى ، فإنه أعظم فحشاً ، فهو عكس المتكبر الظاهري
تماماً ، مظهره التواضع ، وظاهره الحياء ، وكلامه الرجاء ، وحديثه الخوف
من الله ، يجتمع مع إخوانه في المحافل فيظهر غير ما يخفى ، ويعلل النفس
بالورع والتقوى ، ويبث نفاقاً في الحاضرين الخشية والرهبة من الله ،
فيجلس في أدنى مقعد من الناس ، ويقدم من هو أقل منه جاهاً وأعز
مقاماً ، ويرفع صغار القوم منه حتى يلقب بالتواضع ، ويطلب الدعاء من
فقراء الناس حتى ينعت بالصلاح والتقوى ، ويوهم غيره بأنه طالب
الآخرة ، بعيداً عن مطالب الدنيا وما فيها ، ويقرن ذلك بالصلاة كذباً
وخداعاً ، وبالإحسان نفاقاً ورياءً ، وبالتذل لله تعالى طمعاً في المغنم
والمكاسب الدنيوية .

فهو المتكبر بإظهار التواضع ، المتجبر بإخفاء العدوان والاستعلاء ، الحريص
على أن يظهر غير ما يبطن ، المتقرب إلى عامة الناس وقلبه بعيد عنهم .

(عبد الباري محمد داود : التواضع في الإسلام . القاهرة : دار النهضة
الشرق ، الطبعة الأولى ، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م ، ص : ١٥٣ - ١٥٤) .

ولقد قيل : لفلح الجبال بالإبر أيسر من إخراج الكبر من القلوب .

وقال الحسن رضي الله تعالى عنه : إن أقواماً جعلوا التواضع في لباسهم
والكبر في قلوبهم ولبسوا مدارع الصوف والله لأحدهم أشد كبراً بمدرعة
من صاحب السرير بسريره وصاحب المطرف بمطرفته .

قال رجل للحسن البصري : إنك متكبر . فقال : لست بمتكبر ولكني
عزیز : (ابن قسيم الجوزية : طريق الهجرتين ، ص : ٨٥) .

.....

= وقرأ قول الحق تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

« سورة المنافقون : الآية : ٨ » .

وقد قيل : الكبر أثر من آثار العجب والبغي من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم . ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت فنظره إلى الناس شر ، ومشيه بينهم يتبختر .

وكان أبو مسلم الخولاني يقول : ماتكبر إلا وضيع ، ولافتخر إلا سقيط ، ولا تعصب بالباطل إلا دنيء الأصل .

ويؤكد هذا ماذهب إليه سفيان بن عيينة عندما قال : من تكبر بغير حق حرم الفهم في القرآن ، ومن اكتسب عزاً بغير حق أورثه ذلك ذلاً بحق .

(عبد الباري محمد داود : التواضع في الإسلام ، ص : ٣٦ - ٣٧) .

وكان حاتم الأصم رضى الله تعالى عنه يقول : لا يخرج الله المتكبر من الدنيا حتى يريه الهوان من أرذل خدمه وجيرانه ويتمرغ في بوله وقدره قبل الموت .

وهذا القول يذكرنا بمقالة أبو تراب التحشبي : تحقير الفقير هو عين التكبر وكذلك الوقوع في حق الفقراء من أخلاق الكلاب .

وكان يحيى بن معاذ رحمه الله يقول : التكبر على من تكبر عليك بماله تواضع لله عز وجل .

ولما كان الكبر والتعالى على الناس مما يتنافى مع الخلق الكريم ، وبغرس الفرقة والعداوة ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل من صلوات ، شن الإسلام عليه حرباً شعواء ، ليظهر منه النفوس والقلوب .

فالله سبحانه وتعالى يبغض المختال المتبختر ، المعرض عن الناس كبراً =

.....

= قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾

« سورة لقمان : الآية : ١٨ » .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

« سورة لقمان : الآية : ١٨ » .

ومهما أعجب المرء بنفسه ، واختال في مشيته ، فأخذ يبطأ الأرض بشدة ، ويرفع رأسه تطاولاً على الناس ، فهو لن يخرق الأرض ، ولن يبلغ الجبال طولاً .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ « سورة الإسراء : الآية : ٣٧ » .

وقد يتعالى المرء بنسبه العالى ، وحسبه الرفيع ، فأراد الإسلام أن يطارده هذه الجاهلية ، ويقضى على هذه العصبية التى أورثت الأحقاد ، وأثارت الفتن ، وأشعلت الحروب زمناً طويلاً .

والمتكبر يرى أنه متميز على غيره بفضيله العلم ، أو العمل ، أو المال ، أو الجاه ، أو الصلاح ، أو القوة ، أو الجمال ، أو غير ذلك من النعم الظاهرة ، فيصرفه ذلك عن إصلاح نفسه ، وعدم الالتفات إلى نصيحة غيره ، وبذلك يتعطل نشاطه عن التقدم والرقى .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٠٦ » .

وأكبر ما يجازى به المتكبرون أن يصرفهم الله عن فهم آياته القائمة فى =

.....

= الآفاق وفي أنفسهم .

قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا
يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

« سورة الأعراف : الآية : ١٤٦ » .

والكبرياء صفة مختصة بالله وحده ، لا ينبغي أن ينازعه فيها منازع .
عن أبي هريرة رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال
الله تعالى : « الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما
قذفته في النار » . (رواه مسلم في صحيحه ، وأبو داود في سننه) .
وأكثر ما يتمثل الكبر في رد الحق ودفعه ، كما يتمثل في ازدراء الناس
 واحتقارهم .

روى مسلم والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ، أن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة
من كبر ، فقال رجل يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً
؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر
الحق وغمط الناس .

من هنا قال ابن عطاء الله : لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف ..
والمقصود : لا يخرجك أيها المسلم عن الوصف .. أي وصف نفسك من
مثل الكبر والعجب . إلا شهود الوصف .. أي شهود وصف ربك .
كشهود عظمته تعالى .

فالوصف المذكور أولاً كما قال ابن عطاء الله هو وصف العبد ، والوصف
المذكور ثانياً هو وصف الرب ، فلا خروج للعبد من صفات نفسه =

.....

= إلا بشهوده لصفات ربه ، فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ، ومن شهد غناه لم يبق له غنى ، ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة ، فيبقى بربه لابنفسه ، فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر عن نفسه .

(ابن عطاء الله : الحكم ، شرح محمد مصطفى أبو العلا ، ج ٢ ، ص : ١١٢ .)

فلا يخرجك أيها الإنسان عن شهود القدرة والقوة من نفسك إلا شهود قدرة الله تعالى وقوته ، ولا يخرجك عن شهود الغنى لك إلا شهود غناه جل علاه ، ولا يخرجك عن شهود العزة لنفسك إلا شهود عزته جل علاه ، فتبقى بربك في كل وصف لابنفسك ، والسعيد الذي تحققت له الإرادة لربه بتدبر ذلك ، ويجد في مرضاة مولاه تبارك وتعالى قبل أن يفارق الحياة ويتأمل قوله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿ سورة الملك : الآيتان ١ - ٢ ﴾ .

أما من ادعى لنفسه التواضع فهو المتكبر حقاً . إن كان لا يعرف الله إلا في النعمة فهو لا يعبدّه وإنما يعبد نفسه . خلق الله له الدنيا لتكون في خدمته فتحول إلى خدمتها ، أراده الحق عز وجل ملكاً وأراد لنفسه أن يكون مملوكاً .

وقد قيل : المتكبر كالواقف على قمة جبل يرى الناس صفاراً ويرونها صغيراً .

فالتكبر كما أوضحنا في ماضى قولنا أنه صفة من الصفات الإلهية ويجب على المرء أن يتخلع منها .

.....

= وينبغي أن نوضح في هذا الصدد أن أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين :
الكبر والحرص . فكان الكبر ذنب إبليس اللعين . قال أمره إلى ما آل إليه .
وذنب آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام : كان من الحرص والشهوة .
فكان عاقبته التوبة والهداية ، وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر
والإصرار .

وذنب آدم أوجب له إضافته إلى نفسه ، والاعتراف به والاستغفار .
فأهل الكبر والإصرار ، والاحتجاج بالأقدار : مع شيخهم
وقائدهم إلى النار إبليس . وأهل الشهوة : المستغفرون التائبون
المعترفون بالذنوب ، الذين لا يحتجون عليها بالقدر : مع أبيهم آدم
في الجنة .

ويقول ابن قيم الجوزية : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول :
التكبر أشد من الشرك ، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى ، والمشرك
يعبد الله وغيره .

ولذلك جعل الله النار دار المتكبرين .

قال تعالى : ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة الزمر : الآية : ٧٢ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة غافر : الآية : ٧٦ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ « سورة النحل : الآية : ٢٩ » .

=

.....

= وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

« سورة الزمر : الآية : ٦٠ » .

وأخيراً إن أهل الكبر والتجبر هم الذين يطبع الله على قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

« سورة غافر : الآية : ٣٥ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » . (رواه مسلم في صحيحه) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾

« سورة النساء : الآية : ٤٨ » .

تنبيهاً على أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر الكبر الذي هو أعظم من الشرك .
وكما أن : من تواضع لله رفعه .. فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق ذاته
أذله الله ووضع ، وصغره ، وحقره ، ومن تكبر عن الانقياد للحق ولوجاء
على يد صغير ، أو من يبغضه أو يعاديه - فإنما تكبره على الله . فإن الله هو
الحق ، وكلامه حق ، ودينه حق ، وصفته حق ، والحق منه وله . فإذا رده العبد
وتكبر عن قبوله ، فإنما ردّ على الله وتكبر عليه .

ولهذا فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الكبر بضده . فقال : « الكبر بظرف
الحق وغمط الناس » .

فبظرف الحق : ردّه وجحدّه ، والدفع في صدره . كدفع الصائل . وغمط
الناس .. احتقارهم وازدراؤهم . ومتى احتقرهم وازدراهم : منع حقوقهم
وجحدّها ، واستهان بها .

ولعمري هل رأيت عبداً أبقأ طال الهجران من سيده والغضب عليه ثم دعى للوقوف بين يديه هل أمره ^(١) بقرش سجاده وجلب ناسوته يمشى بها على بساط سيده . فتأمل ذلك . فإن هذا من أفعال الغافلين المحجوبين فكيف يكون صاحبه داعياً إلى الله تعالى وهو لا يعرف طريق بابه . فاعلم ذلك واحذر من اقتضاء آثار المتظاهرين في هذا الزمان بالمشيخة فإنهم لا يسلكون بك إلا من

= لذلك نوضح أن مجالسة أهل الإنكار وأهل الجهالة تذهب الأنوار . فلا ينبغي ألا يتكبر أحد على أحد لأن التكبر يورث الهبوط ، وذلك لأن الكبر تعظيم شأن النفس ، واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ، إما في النسب ، أو المال ، أو العلم ، أو العبادة ، أو غير ذلك . (أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ٤٤ » .

وعلاوة التكبر الأنفة من يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ، ومحبة التعظيم من الناس له .

وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء والتواضع للفقراء من التواضع . وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين . فيصيه ما أصابهم » .

(١) في الأصل : غير واضحة . والواضح في هذا المخطوط إغفال الهمزة في جميع كلماتها . ولاشك أن إغفال الهمزة أمر ملحوظ في جميع مخطوطات الإمام الشعراني . وكذلك هذه الملاحظة وجدناها في مخطوطات أخرى .

طريق المقت وقلّة الأدب مع الله كما هو مشاهد نسأل الله أن يمن (*)

(#) المنة : من عليه بكذا : أى أنعم عليه به .

(محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ،
ص : ٣٦٣) .

كأن المنعم يقطع بإحسانه حاجة المحتاج . ولقد ورد هذا المعنى فى قوله
تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ
أَنْفُسِهِمْ ﴾ « سورة آل عمران : الآية : ١٦٤ » .

وقال تعالى : ﴿ أَهْؤُلَاءِ مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنَانَا ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ٥٣ »

وقال تعالى : ﴿ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾

« سورة القصص : الآية : ٨٢ » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ « سورة طه : الآية : ٣٧ » .

فهو إنعام إلهى ومنّة ربانية ، وعطية إلهية ، ومنحه رحمانية .

وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

« سورة إبراهيم : الآية : ١١ »

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ « سورة المدثر : الآية : ٦ » . =

.....

وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ «سورة الشعراء: الآية: ٢٢» .

وقال تعالى : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ
بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾

«سورة الحجرات : الآية: ١٧» .

وقال تعالى : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

«سورة ص: الآية: ٣٩» .

وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْغَنَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾
«سورة البقرة : الآية : ٥٧ ، وسورة الأعراف : الآية : ١٦٠» .

من هنا نوضح أن المريد الصادق إذا اجتهد بالإخلاص والطاعة ، أثمر
عمله بمنة إلهية ، أو منحة ربانية ، أو كشف رحمانى ، فإن ذلك يعد ميلاداً
جديداً على القبول من الله .

فالثمرات والنعم التى يحظى بها المريد الصادق إنما هى تأكيد على أنه يسير
فى طريق الله فيجد لذة حلاوة الطاعة واستئناس بما يلقي فى قلبه من
المعارف والتجليات وهى من وعطايا . ولذلك نبين أن المنة الإلهية إنما هى
تأكيد للمريد أنه يسير فى طريق الحق .

والناس فى ورود المنن عليهم من الله سبحانه وتعالى على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : يفرحون بالنعم من حيث أن فيها قضاء أوطار نفوسهم
ونيل أغراضهم والتمتع بشهواتهم ولذاتهم ، فأحوال هؤلاء مذمومة
جداً أشبه شئ بهم الأنعام والبهائم . وهذه أحوال أهل الطرد والبعد =

.....

= والاستدراج والمكر والغفلة . ويصدق فيهم قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ « سورة الأنعام : ٤٤ » .

وحال هؤلاء الطبقة بعيدة من الشكر منافية له .

القسم الثاني: هذا القسم له نصيب من الشرف والجلالة . وهم الذين فرحوا
بالنعم من حيث أنها منة من الله أرسلها ونعمة أوصلها ، فمن حيث شهودهم
للمنة من ربهم شرفوا وجلت أقدارهم وكانت أحوالهم محمودة وهى شكر
منهم لائق بهم . ومن حيث نظرهم لأنفسهم وبقاؤهم مع حظوظهم كان لهم
نصيب من الدناءة والخسة فانحطوا بهذا الوصف عن مراتب الأعلين وارتقوا
بالوصف الأول عن أحوال الأدنى فخطبوا بما خوطب به عامة المؤمنين .
وعليهم يصدق قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا
هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ « سورة يونس : الآية : ٥٨ » .

فا الفرح من حيث بروزها من الله تعالى كمال ، والنقص من حيث أنه
ملفت إلى النعمة .

القسم الثالث : هذا القسم أصحابه كانوا فى غاية الشرف والجلالة .
وهم الذين فرحوا بالمنعم فقط ولم يلتفتوا إلى ظواهر النعم من حيث أن
فيها متعتهم ولذتهم ولا إلى بواطنها من حيث كونها دلائل على عناية الله
تعالى بهم حيث من بها عليهم كما هو حال القسمين السابقين ، فإن
القسم الأول التفت إلى ظاهر النعمة من أجل أن فيها لذتهم وغابوا عن
المنعم . والقسم الثانى : التفت إلى باطنها من حيث بروزها عن الله تعالى
وأن فى حصولهم لها فضل من الله عليهم . وأما أهل القسم الثالث فما
شغلهم عن الله تعالى ظاهر التمتع بالنعم ولا باطن المنة بها ، بل شغلهم =

علينا بالقوت ولا يعذبنا بغلاء فلو كان (كل) ^(١) من يعمل
شيخاً يظل اليوم واليومين لا يجد رغيضاً ما اعتد قط بعذبة

= النظر إلى الله تعالى عما سواه وجمعية قلوبهم عليه فهم فرحون بالله
ولا تشهد قلوبهم إلا إياه ويصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ
فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ « سورة الأنعام : الآية : ٩١ » .

وحال هؤلاء الشكر الحقيقي الخالص الخالي من المزج والشوب لأن
المشاهد للمنع فأن عن حظوظ نفسه ، فهو يرى الأشياء كلها نعماً ، فلا
تفرقة عندهم بين وجود ولا عدم ، ولا عطاء ولا منع ، ولا يخاف عليه التغير
والانقلاب لتغير الأفعال والأسباب ما يخاف على غيره الباقي على حظه .
(السيد دحلان : تقريب الأصول لتسهيل الوصول ، ص : ١٤٧) .

ولقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : بادوا قل للصديقين بي
فليفرحوا أي حيث كنت لهم رباً وكانوا لي عبيداً خالصين من حكم
بشريتهم وبذكرى فلينعموا ، أي لا يتنعمون إلا بذكرى لابلذات الدنيا
وشهواتها فإن المشتغل بذكر الله تعالى يحصل عنده من اللذة والأنس بالله
تعالى ما لا يوازيه لذة من لذات الدنيا .

(المصدر السابق ، ص : ١٤٨ - ١٤٩) .

وكان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أكمل من أوتي الفرح بالله .

ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم : « وجعلت قرعة عيني في
الصلاة » . لما فيها من القرب إلى الله لأن الصلاة فضل من الله وبارزة من
عين منة الله . فكيف لا تكون قرعة عينه بها . وكان فرحه صلى الله عليه وآله
وسلم فيها بالله .

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

ولا سجادة ولا قال للخلق تعالوا القنكم الذكر وتخذوني أستاذاً
لكنه وجد الرغيف والأكل موجود فتطاول وادعى وتكبر وتمشيخ .
(قال تعالى) ^(١) : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ (٦) ^(٢) أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ^(٣) .
والله يهدي من يشاء إلى ما يشاء .

وقال : كل من نهيته عن نقص فيه وزجرته ^(*) وحذرتة فقال

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً للمعنى وسياق اللفظ .

(٢) سورة العلق : الآيتان : ٦ - ٧ .

(*) الزاجر : أو الضمير من الكلمات التي شاع استعمالها بين كثير من
علماء النفس وفلاسفة الأخلاق ، على أساس أنها تعبير يدل على القوة
الباطنة ، التي يختار بها الإنسان طريق الحق والخير والجمال ، أو ما
يتعارض مع ذلك في علاقته بنفسه وبغيره من الناس .

وعلى مقتضى هذا الاختيار يكون الثواب أو العقاب ، والاطمئنان ، أو
القلق ، أو السعادة ، أو الشقاء .

واصطلاح الضمير بشقيه النفس والأخلاق اصطلاح حديث مأخوذ
عن الكلمة Conscience الأجنبية ، ولانجد لهذا المصطلح أصلاً في
الشريعة الإسلامية .

وقد تبين لكثير من المفكرين والباحثين غموض هذا التعبير ، إذا ما يزال
يشق فهمه على وجهه الصحيح بالرغم من انتشار استخدامه عند العلميين
باعتباره من ناحية شعوراً داخلياً في النفس بالواجب عمله وهو ما يسمى :
« بالضمير الأخلاقي » .

(حسن الشرقاوي : نحو منهج إسلامي ، ص : ٣٠٥) .

هذا لا يقال لمثلى إنما يليق ذلك بالعوام والفقهاء فاعلم أنه سقط
من عين الله عزوجل وحجب عن الإيمان .

= كما يستخدم من ناحية أخرى باعتباره حكماً على الأعمال والأفعال الخيرة
منها والشريرة ، فهو أداة لرفض كل ماهو مذموم ، وللاقبال على كل ماهو
محمود وهنا يسمى : « بالضمير النفسى » .

وواضح من هذا التقسيم أنه من الصعوبة بمكان التمييز تمييزاً واضحاً بين
الضمير النفسى والضمير الأخلاقى ، إذ يكاد لا يعرف ما يقصد به على
الحقيقة بالرغم من تلك التعريفات المتعددة التى تظهره على أنه كل شيء
فى الإنسان . (محمد العفيفى : الضمير ماهو ؟ ص : ٥٧) .

ويختلف تحديد العلماء والفلاسفة للضمير وفق معتقداتهم الدينية ،
فالمؤمنون بالله تعالى ، يعلمون أن هذه القوة الباطنة ، وثيقة الصلة بفطرة الله
فى خلقه ، ولذلك فهى ليست ناشئة من الفكر البشرى ، وليست مختلفة
باختلاف البيئات والعصور .

وإنما هى حقيقة ثابتة ينتفع بها الإنسان ، على قدر ما يجتهد فى معرفتها ،
وتوجيهها الوجهه الصحيحة التى أوجدها الله من أجلها .

ولوتبعنا تفسيرات الفلاسفة وعلماء النفس ، لما يسمى الضمير لفتحت
أمامنا أبواب كثيرة للحقائق العلمية الصحيحة ، أو النظريات التى لم
تثبت صحتها بعد ، أو الأخطاء التى لا يخلو منها أى فكر بشرى ، بعيد عن
هدى الوحي الإلهى .

ومن أكبر الأخطاء وأخطرها فى قضية الضمير أن بعض الفلاسفات التى
ضلت الطريق إلى الدين ، تعتبر الضمير كافياً للاستغناء عن مطالب
الإنسان الدنيوية . (المرجع السابق ، ص : ٥٨) .

.....

= لهذا كان من الضروري ، أن نناقش هذه المشكلة وأن نعالج مافيها من غموض ، أو أخطاء ، ببعض الحقائق الإسلامية المناسبة لها .

ونتساءل :هل كلمة « الضمير » كافية في دلالتها على مكونات النفس الإنسانية ، وما يتصل بها من حقائق ؟!!

والجواب : أن كلمة الضمير تعنى من الناحية اللغوية معنيين :

أولهما : الاضمار وهو التضييق والتضليل والإضعاف ، كما في الحديث النبوى : (فإن ذلك يضمّر ما فى نفسه) أى يضعفه ويقلله ، من الضمور ، وهو الهزال والضعف .

وثانيهما : الغيب الذى لايرجى ظهوره كما جاء فى الحديث : « المال الضمار » وهو الغائب الذى لايرجى تحصيله .

(محمد العفيفى : الضمير ماهو ؟ ص : ٥٨) .

وفى أساس البلاغة للزمخشري ارتبطت كلمة الضمير بنفس المعنيين السابقين :

أولاً : الهزال وتضييق النطاق فيقال (فرس ضامر) . أى هزيل لاينمو جسمه وتضمّر وجهه من الهزال .

ثانياً : ارتباط معنى الضمير بالغيب فيقال : « عطاء ضمار » أو « موعد ضمار » بمعنى أن هذا كله غيب لايرجى تحقيقه .

وعلى هذا فإن كلمة : « الضمير » لاتفى فى اللغة العربية بالغرض الذى ربطناه فى هذا المجال . فأفاق النفس الإنسانية أعم وأشمل من ذلك ، وأعماق النفس أعمق من وصفها بالضيق أو القصور .

= (المرجع السابق : نفس الصفحة) .

.....

= وإذا ما حاولنا سير غور واستجلاء معنى الضمير ، خفى علينا أمره ، وإذا أردنا تحديد وظائفه لبس علينا الأمر وغمض ، وتفرقت بنا السبل وأضلنا ضلالاً مبيناً ، ومع ذلك فإنه يقال إن الضمير محكمة الإنسان المستعجلة وأنه يصدر أحكامه على القضايا المعروضة دون تباطؤ ، كما أنه أمره واجب التنفيذ ، غير قابل للطعن أو النقض .

إلا أنه يبقى واضحاً لنا أن الضمير الإنساني - كما دلت التجارب عبر العصور المختلفة - لا يعد ميزاناً عدلاً ولا خيراً فاضلاً وليس بصالح للتطبيق في الزمان والمكان .

لقد نزلت شريعة الحق لتبين للناس الطريق الواجب الإتيان . إذ أنه لو ترك الإنسان حراً ، لطفى وتكبر وأفسد في الأرض وادعى لنفسه العصمة كذباً وافتراءً ، لذلك كان الخطاب موجهاً من الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لتبليغ الرسالة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم إتباع آراء الناس الفاسدة التي عبر عنها بالأهواء التي هي جهل وفساد . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ « سورة الجاثية : الآية : ١٨ » .

فلو كان ضمير الإنسان كافياً لمعرفة الحق الواجب الإتيان ، وانتهاج الطريق القويم ، ما كان هناك داعٍ للأنبياء والرسل من قبله تعالى ليلبغوا رسالاته على الأرض مبشرين ومنذرين ، ولكان الضمير الإنساني كافياً بذاته ليحقق الخير والحكمة دون حاجة إلى الأديان والشرائع والرسالات .

لقد بلغت الشرائع والأديان السماوية لتهدى العقل إلى الحق ، وتبين للناس السبيل الأقوم إلى الأمور ، وتهديهم إلى طريق الاستقامة والعدل . =

= إذ النفس لو تركت دون توجيه أو إرشاد إلهي لتخبطت في الجهالة ولا تعرف صالحها على الحقيقة ، ومن ثم كان حالتها أدري بما يتوجب عليها علمه . لذلك بين تعالى حكمته البالغة المؤدية لخيرها :
قال تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

« سورة البقرة : الآية : ٢١٦ » .

وقال تعالى : ﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾
« سورة البقرة : الآية : ٢١٦ » .

ويبصر الحق سبحانه وتعالى الناس بمنهجهم الأقوم ، وطريقة الأرشد الذي ينشده الساعى إلى الخير والذي يشرف فى نفس المتأمل فى الناموس الكونى وحجج الله البالغة .

ومن لطف الله تعالى ونعمه ورحمته أنه لا يكره الناس على الإيمان حتى يكون التوحيد قائماً على التعقل والتأمل والتدبر والتفكر ، وليس تسلطاً أو إجباراً أو تعسفاً ، فلا يحاسب المخطئ إن اضطر مكرهاً مع إيمانه إلى الوقوع فى الانحراف لأن ما تم من إثم لم يكن عن طريق الاختيار الإرادى . وهذا دليل قاطع على كفالة الله لحرية الإنسان فى أروع صوره .

قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٥٦ » .

وقال تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾
« سورة يونس : الآية : ٩٩ » .

وقال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾

« سورة النحل : الآية : ١٠٦ » . =

.....

يبيّن الحق تعالى أن ما أنزله للناس من الدين إنما هو مواكب للفتنة
السليمة ، والقلب السليم ، والعقل الرشيد . والله سبحانه وتعالى يدع
الإنسان بعد ذلك يختار ما يشاء دون قهر أو إكراه . . وهو إذ يضرب له
الأمثال ، ويبين له الآيات ، ويمده بالأسانيد الدافعة والحجج البالغة ، إنما
يحميه من الدعاوى والمزاعم حتى لا يكون على الله حجة بعد البلاغ ،
ولا يكون الإنسان مطية للأهواء ، فيزين به سوء عمله فيراه حسناً .

وإذا كانت هناك حرية في الاختيار منحها الله للناس ، فليس معنى ذلك أن
اختيارهم للأفعال والأعمال والأحكام صحيح ، وأنه مادامت ضمائرهم
راضية بما يفعلون فإنهم سائرون إلى الحق المبين .

لقد فرق الحق سبحانه وتعالى بين طائفتين من الناس ، أحدهما تحظى
بقلوب رحيمة وأخرى تحمل قلوب قاسية ، ثم فتح باب التوبة ليرجع
الآثم عن إثمه ويلتحق بركب الصالحين .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾

« سورة الحديد : الآية : ٢٧ » .

وقال تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾

« سورة الحج : الآية : ٥٣ » .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ﴾ «
سورة المائدة : الآية : ٣٩ » .

كما بين الحق سبحانه وتعالى أن هناك طائفة من الناس تتظاهر بموافقتهم
للمؤمنين لكن قلوبهم على الكفر والفسق والضلال .

.....

= قال تعالى : ﴿ يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾
« سورة التوبة : الآية : ٨ » .

يبقى بعد أن اتضح لنا عدم صلاحية مصطلح الضمير ليكون حكماً عادلاً
يجعل من صاحبه بالضرورة أخلاقياً ، أن ندعو إلى مصطلح إسلامي بديل
للإنسان واعظاً وحكماً .

وإذا تأملنا الآيات البيّنات وجدنا أن هناك تعبير الزاجر بمعنى الواعظ في
الإنسان ، إذ الزجر أعمق معنى وأكثر انطباقاً على ما يجري داخل النفس
الإنسانية وما يشغل باطنها من أحوال وما يصدر عنها من أحكام .

ولقد ورد لفظ : « الزاجر » في القرآن الكريم ومعناه لغوياً : الدفع
والطرْد فيقال : ازدجر وزجره أي أنتهره ومنعه ونهاه ، وزجر الراعى غنمه
أي صاح بها ودفعها ، والزاجر جمعه الزاجرات . وقد وردت بهذا المعنى
في قوله تعالى : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾ « سورة الصافات : الآية : ٢ » .

والزاجرات هي الملائكة التي تدفع السحاب أو تطرد الشياطين ، أو تنهى
عن المعاصي بإلهام الخير كما وردت في قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا
وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرْ ﴾ « سورة القمر : الآية : ٩ » .

كما وردت في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾
« سورة القمر : الآية : ٤ » .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ « سورة النازعات : الآية : ١٣ » .

ويبدو أن لفظ الزاجر صالح للاستخدام باعتباره مانع للإنسان من الإقدام
على اقتراف المعاصي ، وأنه بدونه يظلم نفسه ويتعدى حدود الله ، ويسرف
في أمره وينقل ويبخل ويعتدى ويأثم .

.....

= (محمد إسماعيل إبراهيم : قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية ، ص :
(١٥٧) .

فالزاجر فى الإنسان إذن قوة إذا تكامل كان نعمة ورحمة وهدى له ، فيه
يستقيم حاله فىكون الصدق شعاره ، والإخلاص بابه ، والطاعة خلاصة ،
فالزاجر بهذا المعنى واعظ فى القلب يدل على خوف العبد من وعيد الله
تعالى ورجائه فى وعده .

وانقذاح الزاجر فى قلب العبد علامة على التوبة ، وكلما قوى فى الإنسان
ازداد صلاحاً واستقامة .

فالزاجر إذن تنبيه وتأنيب للإنسان يأتى فى صورة واعظ ، ويدخل إلى قلبه
ويهتف فى أعماقه ، ويرشده إلى سبيل الاستقامة ، ويبين له طريق الحق
ليتبعه ، والباطل ليتجنبه .

ويطيع المؤمن الزاجر ، فلا يذكر نفسه ، ولا يحسن سوء عمله ،
فيركن للأهواء بدعاوى مغرضة ومزاعم فاسدة ، إذ أنه واعظ الحق
إلى القلب السليم ، والنفس المستقيمة ، والعقل المسترشد بنور
الإيمان .

والسؤال الآن : ما المصطلحات التى جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية
لتحقق لنا ما لا تحققه كلمة : « الضمير » ؟

والجواب : إنه جاءت كلمة النية أو النيات ، وكذلك كلمة الإرادة ، أو
المشيئة ، أو القصد ، وارتبطت كلمة « النفس » بحقائق موضوعية لها
دلالاتها نستوعب كل ما ننشده فى هذه المجالات السابقة .

ففى بيان وحدة النفس وثبات خصائصها والتكاليف الملقاه عليها يقول =

.....

= الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ « سورة النساء : الآية : ١٠ » .

وفي مجال الربط بين اختيارات النفس وبين الثواب أو العقاب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ١٦٤ » .

وفي مجال ارتباط النفس بالمكان والزمان ، وقدرتها على التفاعل مع حركة الحياة ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ « سورة الحشر : الآية : ١٨ » .

وفي مجال حقيقة القوة الباطنة ، ومصدرها وغايتها يقول الله تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ « سورة الشمس : الآيات ٧ - ١٠ »

وفي مجال يقظة النفس ، وحوارها مع صاحبها ومناقشته الحساب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ « سورة القيامة : الآية : ٢ » .

والنفس اللوامة تختلف باختلاف الدوافع الإنسانية فقد تكون دوافعنا نبيلة صالحة ، فينصب اللوم على التفريط في عمل الصالحات ، وقد تكون دوافعنا مجانبة للمصواب فينصب اللوم على التفريط في ارتكاب الموبقات ثم نسعد بهذا التفريط الأخير إذا انكشفت الأمور على وجهها الصحيح .

= والأهواء لها دورها في حقائق النفس كما يقول الله تعالى :

.....

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ » سورة النازعات : الآيتان : ٤٠ - ٤١ .

وهكذا استقلت هذه الآية ببيان حال الهوى المخالف للحق .

أما السنة فقد جاء في بعض نصوصها أن الإيمان لا يكمل إلا لمن كان هواه تبعاً لما جاء به النبي صلي الله عليه وآله وسلم .

وقد وصفت النفس بالرضا والاطمئنان ، في حال قيامها بما كلفها الله به ،

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً » سورة الفجر : الآيتان : ٢٧ - ٢٨ .

أما إرادة الإنسان فتختلف بدوافعها وغاياتها كما يقول الله تعالى :

« مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ »

« سورة آل عمران : الآية : ١٥٢ .

وارتباط الإنسان بالمكان والزمان ، يمكن له في تحقيق إرادته بما يتناسب مع

قدراته . قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ

يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا » سورة الفرقان : الآية : ٦٢ .

وإرادة الإنسان بدوافعها واختياراتها لها ثوابها في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ

نُؤْتِهِ مِنْهَا » سورة آل عمران : الآية : ١٤٥ .

وإرادة الإنسان إرادة نسبية ، ولكنها متي وجهت للإصلاح وجدت من =

.....

= الله عوناً وتأييداً . (محمد العفيفي : الضمير ماهو ؟ ص : ٦) .

قال تعالى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾

« سورة النساء : الآية : ٣٥ » .

أما المشيئة فتجلي فيها حرية الإنسان التي جعلها الله مناسبة للناس جميعاً
وفرادي . قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ
شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ « سورة الكهف : الآية : ٢٩ » .

ويستطيع الإنسان أن يوجه مشيئته إلى التقرب إلى الله فتسع الآفاق أمامه ،
ويتسامى دائماً إلى ماهو أعلي وأرقى .

قال تعالى : ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ
الصَّابِرِينَ ﴾ « سورة الصافات : الآية : ١٠٢ » .

وكذلك التقدم والتأخر حين كل منهما بدوافع المشيئة التي يسرها الله
للإنسان . قال تعالى : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ
يَتَأَخَّرَ ﴾ « سورة المدثر : الآيتان : ٣٦ - ٣٧ » .

أما السنة النبوية فقد جاء فيها تعبير النية والنيات وارتبط هذا التعبير
بالعمل ونتائجه .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما
لكل أمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله
ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى
ماهاجر إليه » (رواه البخاري عن عمر بن الخطاب) .

=

.....

في هذا الحديث الشريف ربط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين النية وبين فكر الإنسان وإرادته وعاطفته ورغبته ورغباته ودوافعه . وكذلك الربط بين النية وبين حركة الحياة ممثلة في الهجرة . ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا كله في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ «سورة الحج : الآية : ٤٦» وفي هذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

هذه النصوص التي أوردناها من الكتاب والسنة من مصلحة البشر جميعاً أن يحتكموا إليها وأن يصححوا بها أخطاءهم في التفكير والتعبير والاتجاهات والأعمال وغير ذلك .

فضلاً عن الخطأ في استعمال الضمير في هذا المجال أصلاً هناك أخطاء في تعبيرات كبار الفلاسفة العالميين في هذا المجال نذكر منها :

١ - أخطرها خطأ الاستقلال بما يسمى الضمير بدعوى أنه يغني الناس عن دين الله .

٢ - وهناك أخطاء جزئية تأتي في كلام الفلاسفة ولويحسن نية مثل قول جان جاك روسو كما هو مترجم بالمعجم الفلسفي .

ج ١ ، ص : ٧٦٣ (الضمير صوت النفس والهوى صوت الجسد) .

(محمد العفيفي : الضمير ماهو ؟ ص : ٦١) .

« إن توزيع الضمير والهوى بهذا الشكل السابق بين النفس والجسد يحتوي على أخطاء كثيرة ، فالنفس تهوى وتتمنى » .

==

.....

وهذا الخطأ يعالجه قول الحق تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

« سورة النازعات : الآية : ٤٠ » .

وفي نفس المرجع السابق يقول جان جاك روسو « أيها الضمير ... أيها
الحاكم المعصوم الذي يفرق بين الخير والشر ، أنت الذي تجعل الإنسان
شبيهاً بالله » .

وللجواب على بعض الأخطاء الفادحة في هذا النص العالمي علينا أن
نتساءل : لو كان ضمير الإنسان معصوماً . فلماذا يخطيء الإنسان ؟ !
والخطأ الأكثر فداحة هو إدعاء هذا الفيلسوف العالمي الشهير أن الضمير
يجعل الإنسان شبيهاً بالله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

« سورة الشورى : الآية : ١١ » .

إن الله زود الإنسان بالقوة الباطنة ليستطيع إدارة الحوار بين اختياراته فإن
أصاب سعدت نفسه واطمأنت ، وإن أخطأ لم ييأس من رحمة الله سبحانه
وتعالى .

وليس في ذلك أي شبه بين العبد وربّه نعوذ بالله من هذا الخطأ الكبير ؟ !

وعلى النقيض من ذلك يقول هيجل في : « المعجم الفلسفي » إن الضمير
قد يكون واضحاً أو غامضاً أو متشككاً أو ضالاً ، إلا أن المربي الصالح
يستطيع أن يصلح كل هذه الآفات .

وهذا الكلام فيه كثير من الصواب ، ولكنه ينقصه تحديد المصدر اليقيني =

(قَالَ تَعَالَى) (١) ، ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

= الذى نحتكم إليه لتأكد من الفرق بين الصواب والخطأ والفضائل والردائل وإلا اختلفت سبل الإصلاح أمام المرءين فإذا لمفسر من الرجوع إلى نصوص الوحي الإلهي من الكتاب والسنة النبوية الشريفة .

نعود فنقول : إن الزاجر هو تنبيه وتأنيب للعبد الصادق يأتيه في صورة ما وهو كالواعظ ، ويدخل قلبه فيهدف في أعماقه ، ويرشده إلى طريق الحق ، ويبين له طريق الباطل لتجنبه ، فيطبع العبد الصادق الزاجر ، فلا ينقاد لشهوة ولا يتبع معصية .

وأخيراً نحن نرفض مصطلح الضمير بشقيه الأخلاقي والنفسي ، وذلك لأن معنى الضمير كما أورده المتفلسفين والعلميين غامض ، بالإضافة إلى أن شيوع استخدامه لتحقيق وجهه نظر معينه ، شعوراً داخلياً يعمل النفس في الداخل ، يعد خلطاً والتباساً يبعده عن الصدق ، ويحيد به عن الغاية التي يستهدفها .

والحق كثيراً ما يتجبر الإنسان ويتغافل ويضل ويضل ، وهو يفعل كل ذلك وهو مرتاح الضمير ، أما المؤمن بالله فإن زاجره يأتيه عن مداومة تمسكه بالعروة الوثقى واسترساله مع الله أبداً ، وانشغاله بما أمر ونهى فإذا أخطأ أو نسي دعى الله مستغفراً : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

« سورة البقرة : الآية : ٢٨٦ » .

وخاتمة القول : فالزاجر إذن واعظ في القلب يرشد إلى الحق والاستقامة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويعاون الإنسان على سلوك طريق الخير في الدنيا والآخرة .

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الذاريات : الآية : ٥٥ .

فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاحْذَرْ مِنْهُ وَاللَّهُ يَتَوَلَّى هَذَاكَ .

وقال : من برز إلى الخلق بمنام رآه أو أذن له أحد من صوفية هذا الزمان فصار كل من رأى مناماً عمل شيخاً ولا نعرف الآن أحد من مشايخ عصرنا معه إذن صحيح أبداً لأن الإذن إنما يكون من الأولياء أصحاب القدم من أصحاب التوبة . أما إذن هؤلاء الذين جلسوا في الزوايا وجعلوا لهم تلامذة فهو إذن لا عبرة به .

وقد سأل شخص من إخواننا سيدي عبد القادر الدشطوطي ^(١) رضى الله تعالى عنه عن المشايخ الذين في الزوايا في عصره وعين منهم الشيخ المرصفي ^(٢) .

(١) **عبد القادر الدشطوطي** : ذكره الإمام الشعراني أنه من أكابر الأولياء . وما ذكره عنه في : « الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية » : أنه قال : « من تأمل ونظر بعين الإنصاف وجد جميع ما ينكره بعض المجادلين على القوم جهلاً ، أو جحداً ، أو عناداً ، أو حسداً ، لا يخرج عن واحد مما ذكر . فإن حقيقة الصوفي أنه عالم عمل بعلمه اليقيني على وجه الإخلاص لا غير . توفي سنة ثلاثين وتسعمائة .

(٢) **المرصفي** : هو الشيخ على نور الدين المرصفي . كان من أساتذة الإمام الشعراني أشار إليه في كثير من كتبه ، وقد اعتبره الناس جنيد عصره . ومن أقواله : العارفون يقيّن أعلم بالشريعة من شيخ الإسلام ، ولكنهم اكتفوا في تدريس علم الشريعة بأهلها ، وتصدروا لإرشاد المريدين وتعليمهم حسن العمل بما تعلموه من العلماء طلباً لتكميل الناس في بواطنهم كما كملوا في ظواهرهم ، فيحصل لهم الكمال ظاهراً وباطناً . توفي سنة ثلثين وتسعمائة .

والشيخ الذاكر^(١) هل هم أولياء أم^(٢) لا . فقال : والله يا ولدي
هؤلاء كلهم لم يشموا رائحة طريق الفقراء ، هؤلاء بعيدين عن
المقصود إنما هم فقراء قليلين الأدب .

ولكن الأولياء أصحاب القدم يا ولدي كثير وعد منهم جماعة
طباخين ، وجماعة زياتين ، وعد منهم شيخنا الشيخ على البرلس
رحمه الله تعالى أمين .

وإذا نوزع القاصرين من هؤلاء المدعين وقيل له : لست ولياً .
قال طريقنا ليس للقطب عليها ولاية ، نحن خارجين عن دائرة
القطب^(*) .

(١) الذاكر : هو تاج الدين الذاكر ، ذكره الشعراني أنه مكث لا يضع جنبه إلى
الأرض منذ سبع وعشرين سنة . وسمع منه ذلك في مرض موته حين
قالوا له : من يكون بعدكم من أصحابكم نجتمع عليه ، فقال : ليس بعدى
أحد ، قد طويت سجادة طريقي ، ثم قال من باب التحدث من النعم
ما قال . توفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(٢) في الأصل : أو .

(*) القطب : يسمى الشيخ قطباً عندما يبلغ درجات الكمال العالية ويحصل
له الاستغناء التام بالكمال .

(قاسم غنى : تاريخ التصوف الإسلامى ، ترجمة صادق نشأت ، مراجعة
أحمد ناجى القيسى ، ومحمد مصطفى حلمي . القاهرة : دار النهضة
المصرية ، سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م هامش ص : ٣١٩) .

والقطب حسبما يرى ابن عجيبة هو القائم بحق الكون والمكون وهو =

.....

= واحد . ومن الواضح أنه يقصد بذلك القطب الغوث الواحد المتمكن في مقام الفردية ، والحاكم على كافة الدوائر الخاصة بالأولياء . ويسمى ذلك القطب الغوث بسبب إغاثته للمعالم بمادته ، حيث يقبض منه المدد على كافة دوائر الأولياء .

ويستطرد ابن عجيبة ليطلق اسم القطب على كل من تحقق بمقام ، كما بين أنه يترتب على ذلك تعدد الأقطاب في الزمان الواحد ليكون هناك أقطاب في المقامات ، وأقطاب في الأحوال ، وآخرين في العلوم . فيقال : فلان قطب في العلوم ، أو قطب في الحال ، أو قطب في المقام ، وذلك إذا غلب عليه شيء منها ، فإذا أريد بالكلام عن القطب ذلك المقام الذي لا يتصف به إلا واحد عبر عنه بالغوث .

وهذا القطب الفرد الغوث هو الذي يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء من نجيب وتقيب وأوتاد وأبدال ، وله الإمامة والإرث والإرشاد والخلافة الباطنة ، كما أنه روح الكون الذي عليه مداره .

ويمكن التمثيل بأنه بمثابة إنسان العين من العين ، ولا يستطيع أن يصل إلى معرفة صفات ذلك القطب ومكانته إلا من وصل إلى حال البقاء بالله ، أي وصل إلى أعلى مرتبة في الطريق الصوفي وتحقق بمقام المعرفة .
وللقطبية مفهومان : القطبية الحسية ، والقطبية المعنوية .

أولاً : **القطبية الحسية** : وهي ذلك النوع من القطبية المرتبط بتدرج السالك خلال السلم الروحي حتى الوصول إلى أعلى المنازل أو مقامات الطريق ، ونوال مرتبة الولاية بفضل الله تعالى ومته ، ومن ثم فقد يزيده الله فوق ذلك مرتبة التقديم في بعض العلوم أو الأحوال أو المقامات فيصبح =

.....

= قطباً لذلك العلم أو الحال أو المقام الذى قدمه الله فيه على سائر المتحققين به ، ومن ثم يصبح هو الحاكم عليه والمتولى أمره .

وهناك أيضاً من الأقطاب الحسينيين من يصلون عن طريق الجذب ، وهؤلاء هم المرادين المحظوظين بتمام النعمة الإلهية ، تكون درجاتهم أعلى من النوع السابق ، ومن هؤلاء يختار الله تعالى القطب الغوث ، الذى هو الحاكم المقدم على الطريق الصوفى بأكمله ، بما يشمله من أقطاب وأولياء وسالكين ومريدين . وبالجملية كافة الدوائر الصوفية .

ويطلق الشاذلى على هؤلاء الذين وصلوا عن طريق الجذب اسم : « الصديقين » . ويرى أنهم أبدال الرسل . أما الواصلين عن طريق الترقى فهم « الصالحين » . أى أبدال الأنبياء .

ثانياً : القطبية المعنوية : ويقصد الشاذلية بالقطبية المعنوية ما يعرف بالحقيقة المحمدية ، وهى عبارة عن حقيقة كلية جامعة تمثل القبضة التورانية المحمدية التى هى أصل العوالم الروحانية حيث يشرق عليها نور المعرفة الربانية ليمتد منها إلى سائر حقائق الأنبياء ، وبالتالي يمتد منها إلى دوائر الأولياء ، وتزداد مرتبة الولي كلما قربته الله تعالى إلى تلك الحقيقة ، ووهبه نعمة الاستمداد المباشر منها .

ولا يصل من الأولياء إلى التحقق بالاستمداد المباشر التام من الحقيقة المحمدية سوى القطب الغوث ، وبذلك فالحقيقة المحمدية تمثل ينبوع الذى تفيض منه الأنوار المعارف والعلوم على كافة الأنبياء والأولياء نبأً لقدرة كل منهم على القبول والاستمداد .

وتفصيل ذلك على ما بينه ابن عجيبة هو أن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد اجتمع فيه علم الحقائق وعلم الشرائع وعلم الأولين =

.....

= والآخرين ، ومن ثم فقد عجز الناس عن معرفته ، ولزم الانقياد والإذعان لحكمه في الأمور الظاهرة .

أما من أراد أن يأخذ شيئاً من الحقائق فعليه أن يرتقى الطريق للوصول إلى حقيقته . وبذلك يختلف الناس في الأخذ عنه صلى الله عليه وآله وسلم على النحو التالي :

١. **أهل الرسوخ والتمكين** : وهؤلاء يدركون سره صلى الله عليه وآله وسلم . أى يصلون إلى مرتبة التحقق بالحقيقة المحمدية . وبذلك يكونوا في جمع دائم على حقيقته صلى الله عليه وآله وسلم فلا يغيب عنهم طرفة عين .

كما عبر عن ذلك أبو العباس المرسى بقوله : « لو غاب عنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين » .

(ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن . القاهرة : مكتبة القاهرة . الطبعة الأخيرة ، سنة ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص : ١٧٤) .

٢. **أهل الشهود والعيان من السائرين** : وهؤلاء يدركون روحه صلى الله عليه وآله وسلم بمعنى أنهم تصل إليهم أنوار حقيقته عبر الوسائط من الأنبياء والأقطاب .

٣. **أهل المراقبة** : ويطلق عليهم ابن عجيبة أهل الاستشراق . أى المقبلين على الطريق ، وما زالوا فى أول عتباته يجاهدون أنفسهم لسلوكه ، وهؤلاء يدركون عقله صلى الله عليه وآله وسلم . أى يتلقون علومه من شيوخهم ويحاولون التحقق بفهمها فهم أهل البدايات الذين لم يتم صقل قلوبهم بعد لكى تشرق عليها الأنوار ، بل إنهم ما زالوا فى طور الفهم العقلى .

٤. **أهل الحجاب** وهم أهل الدليل والبرهان الذين يدركون من الرسول =

فانظر جهله . وهل يخرج أحد من المسلمين عن نظيره ودائره . واعلم أن أقوى الأدلة على عدم ولاية هؤلاء المشايخ عدم معرفتهم للأولياء أصحاب التصريف لأنهم لو كانوا منهم عرفوهم كما هو شأن أصحاب كل حرفة وإن لم يعرفوا كلهم عرفوا ^(١) بعضهم . فهؤلاء ليس لهم اسم في الولاية إلا عند العوام الذين يعتقدون أن كل من قعد في زاوية يلحق الذكر فهو شيخ .

= صلى الله عليه وآله سلم إلا مظهره الشخصي . ونهاية الصالحين منهم يروونه متميزاً في صورته التي كان عليها في الدنيا .

وهكذا تستمد كل طائفة من حقيقة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله سلم ما تيسر لها تبعاً لمقامها في التحقيق ، ويكون الرسول صلى الله عليه وآله سلم سر الأسرار ، ومنبع الأنوار ، فمنه قد انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ، لأنه هو الجامع لما افترق في غيره . فروحانيته صلى الله عليه وآله سلم جامعة لأوصاف الكمالات ، وبشريته جامعة للأوصاف والمحاسن ، وشريعته جامعة لجميع الشرائع . ومن ثم فهو حقيقة كلية جامعة ، جعلها الحق سبحانه وتعالى بمشابة الواسطة بينه وبين خلقه وعلى تلك الواسطة تشرق أنوار الذات الإلهية مباشرة ، فتور بها ، وتشرق بدورها على من دونها من دوائر الأنبياء والأولياء لتصل من خلالهم إلى كافة الخلق .

من هنا كان الهدف الذي يتبعه الصوفية من وراء وصولهم إلى التحقق بالحقيقة المحمدية هو إحاطتهم بالمعرفة اليقينية بالله عن طريق مباشر ، وذلك حتى تشرق على قلوبهم مباشرة ، وبدون وسائط ، وبذلك تنجلي لهم الحقائق كأشد ما تكون وضوحاً .

(١) في الأصل : غير واضح .

ولذلك يعملون له تابوت وسترو شخا شيخ وغير ذلك من
علامات الأولياء . نسأل الله العافية .

وقال : احذر من رؤية نفسك على أحد من الخلق فإنك إن
فضلت نفسك لكثرة نفعك فالحمار أنفع منك بيقين . وإن نظرت
إلى كثرة علمك ومعرفتك وعبادتك فإبليس أعلم منك وأعرف
وأكثر عبادة ، وهكذا هي جميع الصفات .

واعلم ذلك واحذر من الخوض في التفاضل بين الخلق
ومشايعهم فإن ذلك كله حديث بالظن لا يعلم إلا بوحى والسلام .
وقال : احذر أن تقتصر على شيخ واحد في هذا الزمان فإنه
تحجير عليك وقلة نفع لك بل اعتقد في كل شيخ يحصل لك منه
الخير . وإنما كان أهل العصر يقيّدون بذلك على تلامذتهم لأنهم
كانوا أولياء عارفين بالله وبالأحكام .

أما مشايخ هذا الزمان فليس معهم من العلم اللدني
إنما هم مقلدون لأضعف الفقهاء ولو بحث معهم فقيه
لا يدرون له جواباً . فأين هم من الأولياء الذين كانوا إذا
فقدوا الجواب من طريق النقل أجابوا من طريق الكشف
كما وقع لسيدى أحمد البدوى (*) ، وسيدى عبد الله

(*) أحمد البدوى : هو أبو الفراج السيد أحمد البدوى . توفى سنة ٦٧٥ هـ
ودفن بطنطا . (الشعراني : الأجوبة المرضية ، ص : ٣٦٠ ، والطبقات =

البلتاجي (*) وأضرابهما . فاعلم ذلك ولا يغرك تقييدهم على تلامذتهم إلا أن ^(١) يجتمعوا بغيرهم فإن ذلك خطأ منهم ومحبة لانضادهم بالصيت دون غيرهم . والله يتولى السرائر .

وقال : من علامة الداعي إلى الله بصدق أن لا يتغير على من انقلب من تلامذته إلى شيخ آخر من أقرانه . فمتى وجد في قلبه حرارة وضيقاً من ذلك فمشيخته حظ نفس لا يصلح أن يلحق أحداً . فاعلم ذلك . واحذر إذا عملت شيخاً أن تتكدر ممن لا يتلمذ لك ولا يسمع لك كلاماً ولا يؤهلك للمشيخة . واحذر من هجر أحد من الخلق تسبب ذلك تشبيهاً بالأولياء الذين كانوا يهجرون التلميذ لمصلحة حاله فإن وبال ذلك يرجع عليك . وأنت شيخ معمول ولأنت شيخ إلا بأحوالك .

فاحذر أن تنفرضهم فتزول مشيختك المعمولة .

واعلم أنك لو رأيت لحالك الناقص لعذرتهم فإنك أقل أدب

= الكبرى : ج ١ ، ص : ١٥٨ ، والكواكب الشاهق ، ص : ٢٣١ ، والأخلاق المتبولية ، هامش ص : ١٠٠) و (النبھانی : جامع كرامات الأولياء ، ج ١ ، ص : ٥١٢) ، و (سعيد عبد الفتاح عاشور : السيد أحمد البدوي ، المقدمة) و (صلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة ، ص : ٢٣١) و (حسن محمد الشرقاوي : الحكومة الباطنية ، ص : ١٤٨) .

(*) عبد الله البلتاجي : من العارفين العاملين بالكتاب والسنة .

(١) في الأصل غير واضحة .

منهم لأنك منازع لله تعالى على خلقه فلزم من ذلك ازدراءك للخلق ومنازعتك للحق وكفى بذلك كفراً وجهلاً . فاعلم ذلك .

وقال : تعظيم الخلق للعبد سم قاتل يؤديه إلى الهلاك . فليحذر العبد من الركون إلى تقبيل الأيدي والأرجل والإطراق بين يديه وغير ذلك من أوصاف الملوك . وليعلم أن إخوانه المعتقدين فيه إنما هم أعوان إبليس بل أسرع في هلاكه منه فهم أعدى الأعداء فإنه لا يسمع منهم إلا نشر محاسنه وستر مساويه . وهذا أمر يغيب عنه رشد الرجال وعقولهم .

فكيف بمن ليس له قدم في الرجولية^(١) .

وقد قال سيدي أحمد بن الرفاعي رحمه الله لبعض أصحابه : كن ذنباً ولا تكن رأساً فإن الضربة أول ماتقع في الرأس . فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس وأذهبت من دين . ولو لم يكن من تعظيم الخلق للعبد إلا أنه يحكم عليه بالرياء والمداهنة وأكل أموال^(٢) الناس على رغم أنفه خوفاً من خرق مرتبته لأنه لو فتح باب النصيح للخلق وأغلظ عليهم فعلوا معه مثل فعله فيزول تمييزه عنهم وتعظيمه في قلوبهم فتزول مشيختهم لهم وإطعامهم له وخدمتهم له لأن الخلق من شأنهم عدم

(١) في الأصل : غير واضحة .

(٢) في الأصل : غير واضحة .

الاذعان^(١) لبعضهم وكراهة التمييز عليهم فلا يذعنون له إلا بعد جهد ونصب وحيل أو ظهور (خارقة من الخوارق)^(٢) وهيهات إن حصل لهم اعتقاد بعد ذلك ، بل ربما قالوا : هذا ساحر وتأمل الخلق لو اطلعوا على زلة من يعمل شيخاً باطلاً عنهم عليه وهو (يعمل عملاً رديئاً)^(٣) أو يعشق جارية هل يصيرون يذبحون له ذبيحة أو يقبلون يديه أو يسألونه الدعاء^(*) تعرف يقيناً أن كل من عمل شيخاً صار يأكل بدينه إلى أن يقدم على الله مقلساً ليس معه إلا أوزار من أكل طعامهم .

(١) في الأصل مطموسة .

(٢) زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(٣) زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(*) الدعاء : الدعاء هو الذكر المقرون بالطلب . أو هو استدعاء العبد ربه بالعناية واستمداده المعونة . وحقيقته إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة . وهو شيمة العبودية . (اليافعي ، أبو عبد الله أسعد : الدر النظيم في خواص القرآن الكريم ، القاهرة : مكتبة الجمهورية ، بدون تاريخ ، ص : ٤٣) .

وفي البداية ينبغي أن نوضح أن الدعاء كان مطلباً للأنبياء والمرسلين أجمعين . فإذا تتبعنا حال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين نجد أن نبي الله آدم عليه السلام عاش في جو من أجواء الدعاء وهو جو التوبة . فكان آدم عليه الصلاة والسلام يتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء المصطبغ بالتوبة .

.....

= أما نبي الله نوح عليه السلام فكان جوه الاستغفار ، وهو أول من أعلن موضوع الاستغفار في قول الحق تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ « سورة نوح : الآية : ١٠ » .

فهذه هي مقدمة موضوع الاستغفار أو القاعدة الأساسية . والنتيجة هي : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ﴾ « سورة نوح : الآية : ١١ » .

ولقد أوضح لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زاوية هامة من زوايا قانون الاستغفار وهي عدم وقوع العذاب على المستغفر .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾
« سورة الأنفال : الآية : ٣٣ »

ألا ترى أن سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام لما قال له ربه أسلم . قال : أسلمت لرب العالمين . فلما زج به في المنجنيق استغاث الملائكة قائلة : ياربنا هذا خليلك قد نزل به ماأنت به أعلم . فقال الحق سبحانه وتعالى : اذهب إليه يا جبريل فإن استغاث بك فأعنه وإلا فاتركني وخليلي . فلما كان جبريل عليه السلام في أفق الهواء قال : ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا وأما إلى الله فبلى . قال : فأسأله . قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فلم يستنصر بغير الله ولا جنحت همته بغير الله ، بل استسلم لحكم الله مكتفياً بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه ، وبرعايه الحق له عن رعايته لها ، ويعلم الله سبحانه وتعالى عن سؤاله علماً منه أن الحق به لطيف في جميع أحواله .

(ابن عطاء الله السكندري : التنوير في إسقاط التدبير ، ص : ٤٠ - ٤١) .

= وقال صلى الله عليه وآله وسلم لما ألقى يوسف عليه السلام في الجب أنه
جبريل عليه السلام . فقال : يا غلام من ألقاك في هذا الجب ؟ فقال :
إخوتي . قال : ولم ؟ قال : لمودتي أبي إياي حسدوني . قال جبريل عليه
السلام : قل اللهم إني أسألك باسمك المكنون المخزون يا بديع السموات
والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ؛ أن تغفر لي وترحمني وأن تجعل لي من
أمرى فرجاً ومخرجاً ، وأن ترزقني من حيث لا احتسبت ، ومن حيث
لا أحتسب ! فسيحان القريب المجيب الذي يجيب المضطر إذا دعاه .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ « سورة النحل : الآية : ٦٣ » .

ولقد وصف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الدعاء بأنه دعاء
المصطفين وحث عليه .

ومن دعاء موسى عليه السلام : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت
المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

(ابن قيم الجوزية : عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، ص : ١٣) .

وحكى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام أن هب لي
قلبك الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينيك الدموع فإني قريب .

ومما قاله وهب بن منبه لما تاب الله على داود عليه السلام كان يبدأ إذا دعا
فيستغفر للمخاطئين قبل نفسه فيقول : « اللهم اغفر للمخاطئين فعساك أن
تغفر لداود معهم » .

هذا هو دعاء الأنبياء والمرسلين تقربوا به إلى الله عز وجل . فكان الدعاء
خالصاً لله عز وجل .

.....

= ويتبغى أن نوضح فى هذا المقام الفرق بين الدعاء والاستغاثة
والمناجاة .

فإذا كان الدعاء عام فى كل الأحوال فإن الاستغاثة هى الدعاء فى حالة
الشدائد .

(عبد الرحمن يوسف الإفريقى : الأنوار الرحمانية لهداية التيجانية .
السعودية : الرياض ، سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص : ٥٩) .

هكذا يتضح الفرق بين الدعاء والاستغاثة فى أن اللجوء إليها لا يكون إلا
عندما يصاب صاحبها بالابتلاء فى حياته . فيلجأ إلى الله سبحانه وتعالى
بالاستغاثة أن ينجيه من هذا الموقف الذى أصابه .

أما المناجاة فيها يناجى العبدربه سبحانه وتعالى بالدعاء والاسترسال فى
مناجاته . فالمناجاة هى مخاطبة الأسرار عند صفاء الأذكار .

(محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، هامش ص : ١٩٣) .

وكان داود عليه السلام يصرخ كثيراً فى مناجاته ويقول : « علمنى يارب
طرقك ، فهمنى سبلك » .

وظاهر مما أوضحنا أن المناجاة طريقاً من طرق العلم ، وسبيلاً من سبل
الفهم . ولذلك تأتى عند صفاء الأذكار .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم أرنى الحق حقاً
وارزقنى إتباعه ، وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله
متشابهاً على فأتبع الهوى » .

وعن طليق بن حبيب كان يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك علم =

.....

= الخائفين لك ، وخوف العالمين بك ، ويقين المتوكلين عليك ، وتوكل المؤمنين بك ، وإنابة الخبثيين إليك ، وإحسانات المنيسبين إليك ، وشكر الصابرين لك ، وصبر الشاكرين لك ، ونجاة الأحياء المرزقين عندك .
(أبو نعيم الأصبهاني : حلية الأولياء ، ج ٣ ، ص : ١٠٧) .

هذا الدعاء السابق اشتمل على جملة من المقامات عند أصحابه استفرغوا كل طاقاتهم في طاعة الله سبحانه وتعالى . ومن ناحية أخرى أن هذا الدعاء يدل على علو همة هذا العالم وقوة ذكائه واتساع علمه .

ومن دعاء المؤمن الموحد : اللهم خذني إليك مني ، وارزقني الفناء عني ، ولا تجعلني مفتوناً بنفسى ، معجوباً بحسى ..

ومن دعاء الإمام الجنيد : اللهم إني أسألك : يا خير السامعين ! وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين ! أسألك سؤال خاضع خاشع متذل متواضع ضارع ، اشتدت إليك فاقتة ، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم ألا يكون شيء إلا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع إليك إلا بعد إذنك ، فكم من قبيح قد سترته ! وكم من بلاء قد صرفته ! وكم من عثرة قد أقلتها ! وكم من زلة قد سهلت بها ، وكم من مكروه قد رفعته ! وكم من ثناء قد نشرته !

أسألك يا سامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفي إضمار الصامتين ، ومطلع في الخلوات على أفعال المتحركين ، وناظر إلى مادي وجل من آثار الساعين .

أسألك ألا تحجب بسوء فعلى عنك صوتى ، ولا تنفضحنى بخفى ما اطلعت عليه من سرى ولا تعاجلنى بالعقوبة على ما علمته من خلواتى ، =

.....

= وكن بي في كل الأحوال رافقاً ، وعلى في كل الأحوال عاطفاً .
(محمد مصطفى : دراسات عن الجنيد البغدادي ، ص : ٢٩٤-٢٩٧).

إلهي ، وسيدي ، وسندي !

أنت بك عائد ، لائذ ، مستغيث ، مستجير من تكاثف مخاوف علل
سري ، ومن لزوم ذلك ضميري وقلبي ، حتى يكاد ذلك أن يملأ صدري ،
ويوقف عن الانبساط إلى ذكرك عقلي ولساني ، ويمنع من الحركة إلى
الخدمة جسمي ، فأنا في حبس ما يعارضني من ذلك بالنقص والتقصير .

أسألك أن تخرج ذلك عن ذكرى ، وتمنعه من قلبي ، واجعل أوقاتي من
الليل والنهار بذكرك معمورة ، وبخدمتك وعبادتك موصولة حتى يكون
الورد ورداً واحداً ، والحال حالاً واحداً ، لاسأمة فيه ولافتور ولا ملل
ولانقصير ، حتى أسرع به إليك في حين المبادرة ، وأسرح بذلك إليك في
مبادي السابقة ، وارزقني من طمع ذلك اللذائذ السابقة يا أكرم الأكرمين .

إلهي ! تريد أن تخدعني عنك بقربك أم تريد أن تقطعني عنك بوصلك !
هيهات ! هيهات !

لقد أوضح الإمام الجنيد في هذه النصوص ذوقاً عالياً ومشرباً كافياً وارتواءً
خصباً عندما دقق النظر في استخداماته أساليب الدعاء ذات التجربة
الروحية الخالصة .

ولما سئل بعض العارفين : ما علاقة قبول الدعاء ؟ فأجاب : نسيانك إياه
وانقطاع نظرك عنه بالكلية بدلالة قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ
الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ « سورة فاطر : الآية : ١٠ » .

ويقول أحد العارفين في دعائه : « إلهي أنت لطيف لمن قصدك في =

.....

= إرادتك ، ورجاك في ملماته ، فيا منتهى آمال الراجين أرحنا راحة عاجلة
توردنا مناهل مسرتك تؤدينا إلى قربك .

(الطوسي : اللمع ، ص : ٩٢) .

والدعاء مظهر من مظاهر الخضوع والتواضع والعبودية ، ومن أجل ذلك
يكثر الصالحون من الدعاء لأنفسهم ولأهلهم ولأصدقائهم وللمسلمين
على وجه العموم ، وهم في ذلك يستحيون لله سبحانه وتعالى في حثه
المؤمنين على الدعاء .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ « سورة غافر : الآية : ٦٠ » .

كما أن الدعاء طريق إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ينفع مما نزل ومالم
ينزل . إن الدعاء - قبل أن يتبلور في الجمل والكلمات - إنما هو نور مضىء
ينقدح في القلب فيفيض على اللسان ، ولو كان القلب كدراً لم ينقدح فيه
ذلك النور ، فأين له أن يظهر الدعاء على لسان صاحبه ؟!

ولا يكون المؤمن مخلصاً في دعائه حقيقة الإخلاص ، مادام له تدبير وحول
وقوة في رفع ما يدعو لكشفه ، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته
وماله وأهله والناس أجمعين .

وقد يحصل الإخلاص الحقيقي في الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة
التوحيد ، وتحققوا أن الضر والنافع هو الله فإنهم لخشيته من الله
لا يتحققون بنفع الأشياء النافعة ، ولا بضر الأشياء الضارة ، فهم يدعون الله
مخلصين أن يدفع عنهم الضر ، ويمنحهم النفع .

= (أبو العزائم ، محمد ماضى : إلهى ، ص : ١٢) .

.....

= ولا تخلو الأحوال التي تصيب بني آدم في أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم الربانية ، فيفزعون إلى الله تعالى ويسألونه فيكشف الله عنهم ما ألم بهم .

قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

« سورة النمل : الآية : ٦٢ » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من داع يدعو مؤقناً بالإجابة في غير معصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل ، أو يصرف عنه من السوء مثله ، أو يدخر له في الآخرة ما هو خير له » .

كما أن الدعاء من أنواع العبادات التي يظهر فيها العبد بالذل والخضوع لله عز وجل .

وفي المسند والترمذي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

قال الأوزاعي رحمه الله تعالى : كان يقال أفضل الدعاء الإلحاح على الله والتضرع إليه .

وفي الطبراني عن ابن عباس رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا يوم عرفه فقال : « اللهم إنك ترى مكاني وتسمع كلامي ولا يخفى عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبي . أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهاال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضريب دعاء من خشعت لك رقبتك وذل لك جسده ورجم =

= لك أنفه وفاضت عيناه . اللهم لاتجعلني بدعائك رب شقياً وكن بى رؤوفاً
رحيماً ياخير المسؤولين وياخير المعطين .

وكان أحد الحكماء يقول فى دعائه : « بعزتك وذلى وبغناك وفقري » .

واخرج ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه عن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم أحيى
مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

والمراد بالمساكين فى هذا الحديث ونحوه من كان قلبه مسكيناً خاضعاً لله
خاشعاً له وظاهره كذلك .

قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ « سورة الكهف : الآية : ٢٨ » .

وقال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً
وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ « سورة السجدة : الآية : ١٦ » .

وقال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾
« سورة الأعراف : الآية : ٥٥ » .

ففى هذه الآيات دعوة خفية من الله سبحانه وتعالى لعباده أن يكثروا من
الدعاء ، وأن يخلصوا فيه ، وأن يلتزموا آدابه وشروطه ، لكى يكونوا أهلاً
للقبول ومحلاً للإجابة .

كما أن الدعاء طريق إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ينفع بمنازل ومما لم
ينزل .

= ويرتبط الدعاء بالتدبير وإسقاط التدبير لله سبحانه وتعالى .

.....

= ويقول أحد العارفين في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ،
ومن الذل إلا لك ، ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زوراً ، أو
أغشى فجوراً ، أو أن أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماته الأعداء
وعضال الداء ، وخيبة الرجاء ، اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق ، وهم
الرزق ، وسوء الخلق يا أرحم الراحمين آمين .

ومن دعاء ابن عطاء الله السكندري : اللهم اغفر لي واسترني ولا تفضحني
في الدنيا والآخرة ، وعلمني ، ذكرني ، وفهمني ، وارحمني ، وفرحني ،
وبرئتي ، وفرغني من كل شيء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك
ومحابك ومحاب رسولك صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن دعائه عقيب كلامه : اللهم كن بنا رؤوفاً وعلينا عطوفاً وخذ بأيدينا
إليك أخذ الكرام عليك وقومنا إذا اعوججنا وأعنا إذا استقمنا وخذ بأيدينا
كلما عثرنا وكن حيث كنا .

ويدعو الشاذلي فيقول : اللهم إنا نسألك حسن اللب ، ودوام الذكر
والفكر ، واللجأ والافتقار إليك ، والدعاء لك ، والاستجابة منك ، والثقة
بك ، والتوكل عليك ، والزهد الواقع على الرد القاطع ، والمحبة والرضا .
(ابن عياد الشافعي : المفakhir العلية في المآثر الشاذلية ، ص : ٨٦ - ٨٧) .

ولقد جاء في أحد الأدعية : * اللهم ارحمني بترك ما لا يعنيني أبداً ما
أبقيتني . وارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني ، وارزقني حسن النظر
فيما يرضيك عني ، وألزم قلبي حفظ كتابك ، كما علمتني ، ونور به
بصري ، وشرح به صدري ، واجعلني أنلوه كما يرضيك عني ، وافتح به
قلبي ، وأطلق به لساني .

لأنه من حيث يشتهر بالصالح لا يقدر على عمل حرفة
تقوم به ونهايته أن يكون راقداً على جنبه يسبح الله بسبحه
فتدخل له الخلق فتقول له خاطرك علينا ياسيدى الشيخ . وقد

= ومن الدعاء أيضاً : يا من لاتراه العيون ، ولاتخالطه الظنون ، ولا يصفه
الواصفون ، ولاتغيره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، اجعل خير عمري
آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم ألقاك .

اللهم اجعل عملنا مؤنساً لنا فى الخلوة إذا وحشنا المكان ، ولفظتنا
الأوطان ، وفارقنا الأهل والجيران ، وانفردنا فى محل ضحك ، قصير
السك ، على غير مهاد ولا وساد ، ولاتقدمة زاد .

اللهم إنا نسألك بالقدرة العظمى ، وبالمشيئة العليا ، وبآيات الكبرى ،
والأسماء كلها ، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر وكل بحر
هولك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، وبحر الدنيا وبحر الآخرة ،
وسخر لنا كل شيطان من الجن والإنس ، وسخر لى نفسى ، وسخر لى كل
شئ ، يا من بيده ملكوت كل شئ ، وهو يجير ولا يجار عليه ، يا على
يا عظيم يا حليم يا عليم .

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير مافيهها والآخرة كريمة كريم مافيهها .
وأنت الذى حقرت الحقير وكرمت الكريم . فأين يكون كريماً من طلب
غيرك ؟ أم كيف يكون زاهداً من اختار لدنياه معك ؟ فحققنى
بحقائق الزهد حتى أستغنى عن طلب غيرك وبمعرفته حتى لا أحتاج إلى
طلبك .

اللهم أدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك
سلطاناً نصيراً .

أوضحنا الكلام على ذلك في (كتاب) ^(١) : «لواقح الأنوار» ^(٢) وغيره .

وقال : احذر من أن تظهر لله مقاماً أوحالاً ^(*) في هذا الزمان

(١) لا توجد في الأصل ، أضفناها حفظاً للمعنى والسياق .

(٢) في الأصل غير واضحة .

(*) الحال : يطلق لغة على الوقت الذي أنت فيه وماعليه الشخص من خير أو شر . ويطلق اصطلاحاً لدى الصوفية على المعنى الذي يرد على القلب بـلاتصنع ولا اكتساب .

(عبد الحفيظ فرغلي على القرنى : ابن عربى ، ص : ١٢٩) .

كما أن الحال هو ما يحل في القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير .

(أبو عبد الرحمن السلمى : أصول الملامتيه وغلطات الصوفية ، ص : ٣١) .

وقد قيل : إن الأحوال هي المعانى التى ترد على القلب وهو فى طريقه إلى الله ، وأنها مواهب تنزل من الله على عبده ، وهى كثيرة .

كما قيل : الحال هو ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب . ومن شروطه أنه يزول ويعقبه المثل ، إلى أن يصفو ، وقد لا يعقبه المثل . ومن هنا نشأ الخلاف . فمن أعقبه المثل ، قال بدوامه .

وقيل : الحال تغير الأوصاف على العبد .

(ابن عربى : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٩) .

.....

= ويجدر بنا أن نبين أن الملامح المميزة للمذهب الصوفي في القول بنظرية المنازل أو الأحوال والمقامات .

(شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ص : ١٠١) .

ومن نصائح أحد العارفين أنه قال : « اركب الحال ، لاتدع الحال يركبك » .
فالحال هو منزلة العبد في الحين فيصفو له في الوقت حاله ووقته . وهو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة وتغير أخرى قبل له : حال .

وقال بعضهم : الحال لا يزول فإذا زال لم يكن حالاً .

فالأحوال هي الثمرة الحقيقية التي ينتظرها السالك من وراء قيامه بالرياضة والمجاهدة إبان سلوكه الطريق ، وهي ليست نتيجة مترتبة على تلك الرياضة ، أو المجاهدة بل هي منة ربانية ، وهبة من الله تعالى يلقيها على من أخلص من عبادة ، وقد اقتضت المشيئة الربانية أن تكون الرياضة والمجاهدة هما السبيل أو الوسطة التي يمكن للسالك أن يعرض نفسه لتلك الهبة الربانية عن طريقها .

كما أن الأحوال في حقيقتها ثواب من الله تعالى على الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل بالحال صار مقاماً ، لأن الأحوال في بدايتها تذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب فيها وتمكن منها وداوم العمل عليها صارت مقاماً له .

(ابن عجيبة : إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، ص : ١٠٠) .

ومما سجله الطوسي في : « اللمع » قول الجنيد : الحال نازلة تنزل بالقلوب ، فلا تدوم .

= (محمد مصطفى : المقامات والأحوال ، ص : ١) .

.....

= إن الحال معنى يرد من الحق إلى القلب دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد ، أو جذبه بالتكلف حين يذهب . كما أنه عبارة عن فضل الله تعالى ولطفة إلى قلب العبد دون أن يكون لمجاهدته تعلق به ، والحال من جملة الأفضال ، وكذلك الحال من جملة المواهب .

(الهجویری : كشف المحجوب ، ج ٢ ، ص : ٤٠٩) .

وقد قيل : الأحوال أمانات عند أهلها ، فإذا أظهرها خرجوا عن حد الأمناء .

(أبو العلا عفيفي : الملامتيه والصوفية وأهل الفتوة ، ص : ٦٤) .

وهذه الأحوال تكون للعارفين كل حسب درجته وإخلاصه وطاعته ونيته واستعداداته وجلاته وتصفيته لقلبه ، وذلك بالذكر الدائم ودفع الوسوس والخواطر الشيطانية .

وقد قيل : أرباب الأحوال هم أصحاب الولايات الناقصة ، أما أرباب الأعمال فهم أصحاب المقامات العليا . ويقال عنهم : أصحاب التمكين في مقابل أصحاب التلوين .

(حسن الشرقاوى : الحكومه الباطنية ، ص : ٨٧) .

فإذا كان لكل مقام منهجاً فإن لكل حال علماً وذوقاً .

(طه عبد الباقي سرور : الحلاج ، ص : ٦٤) .

والأحوال هي النسمات الروحية التي تهب على السالك ، فتنتعش بها نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركه عطرأ ، تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجيه .

وبعبارة أخرى : الأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه ، إما =

.....

= واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكى للنفس المصفى للقلب ، وإما نازلة من الحق إمتناناً محضاً .

ولقد سمى الحال حالاً لكونه عارضاً سريع الزوال . وكذلك لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الحقية ودرجات القرب وذلك هو معنى الترقى .

(الكاشاني : اصطلاحات الصوفية ، ص : ٤٥ - ٤٦) .

فالحال عند القوم : معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب أو اكتساب لهم . والأحوال تأتي من عين الجود ، وصاحب الحال مترق عن حاله .

ومما ينبغي أن يفهم أن الترقى الصوفي في الأحوال يتم من حال النفس ، إلى حال القلب من غير أن يشعر الطبع بذلك . ومن حال القلب إلى حال السر من غير أن تشعر النفس بذلك ، ومن حال السر إلى حال الروح من غير أن يشعر القلب . فإذا وصل السالك إلى حال الروح حصلت له المكاشفة والمشاهدة . (أبو العلا عفيفي : الملامية والصوفية وأهل الفتوة مرجع سابق ، ص : ٦٤) .

ولعل هذا ما يفسر قول أحد الصوفية : « كنت أقرأ القرآن لأجد له الحلاوة التي أشهدها ، فقلت لنفسي اقريئه كأنك تسمعيه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأته ، فجاءت حلاوته ، ثم قلت لنفسي اقريئه كأنك تسمعيه من جبريل عليه السلام ، ينزل به على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرأته ، فنزلت حلاوته ، ثم قلت لنفسي اقريئه كأنك تسمعيه من رب العالمين جل وعلا فجاءت حلاوته كلها .

(عبد الباري محمد داود : الفتوحات الربانية ، ص : ٩١) . =

.....

= ومن هنا نرى أن هذه أحوال نفسية تنبعث منها مشاعر في كل حال بقدرها ووزنها ، حتى تكون أكمل الأحوال تلك الحال التي يبلغ فيها قارئ القرآن مقام المناجاة من ربه .

(عبد الباري داود : الفناء عند صوفية المسلمين ، ص : ٢٩٦) .

وهذا المعنى وارد في قوله تعالى : ﴿ وَتَنَاجَوُا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى ﴾

« سورة المجادلة : الآية : ٩ » .

والصوفي كعبد صادق مسترسل بنفسه وقلبه وعقله وروحه جميعاً مع الله ، يشعر دائماً باحتياجه إليه فيناجيه ويتقرب إليه بالأذكار والتوافل والعبادات والطاعات .

(ابن عطاء الله السكندري : تاج العروس ، ص : ٤٣) .

وتلك منزلة يترقى فيها الإنسان صعوداً في درجات لانهاية لها .

وقد قيل : الحال هو تغير الأوصاف على العبد . وواضح من هذا التعريف أن الحال : هو ما يتحول فيه العبد ، ويتغير مما يرد على قلبه ، فإذا صفا تارة ، وتغير أخرى قيل له حال .

كما قيل : الحال هو ما يحل في القلب من صفاء الأذكار بدون مجاهدة أو تفكير . والحال يهجم على القلب كما أنه يزول عنه فجأة حسبما يروى الطوسي في : « اللمع » .

كما أن الحال هو ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب كحزن . أو خوف ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق ، أو ذوق ، ويزول بظهور صفات النفس سواء يعقبه المثل أولاً ، فإذا دام وصار ملكاً
= سمي مقاماً .

.....

= لذلك يقال : إن الحال هو ما يقع بعد العلم من الهيام بالمحبوب ، والوله به ، والتسجرد إليه عن كل ما سواه ، والشوق الشديد إلى لقائه ، والقلق لبعده ، والدهش منه ، والتهيب له ، والعمل ملازمة لمرضاته ، ومسارعة لطاعته ، واحتمال ما يرد منه ، والتلذذ بجميع فعله عند حركاته وسكناته بأمره ، والأنس بذكره المؤدى إلى الغيبة فيه ، ثم الحضور به ، وتولد الحال عن العلم والعمل مما عدوه ضرورياً .

فالعلم مبدأ المقام الفاعلى ، والحال مبدأ المقام الصورى ، والعمل مبدأ المقام الغائى .

(ابن الخطيب : روضة التعريف بالحب الشريف ، ص : ٣٧٧) .

ولقد كثر الاشتباه بين الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ فى ذلك .

حيث إنهم لم يتفقوا فى هذه المسألة برأى قاطع . ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسيهما وتداخلهما ، فتراءى للبعض الشيء حالاً ، وتراءى للبعض الآخر مقاماً .

وكلتا الرؤيتين صحيحة لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة منهما يشعران بالفرق بينهما . فالحال سمي حالاً لتحوله ، والمقام سمي مقاماً لثبوته واستقراره . كذلك الحال إذا ارتقى صارت مقاماً ، وأن الحال موهوب والمقام مكتسب بمجهود الفرد .

وهنا نستطيع أن نوضح المسألة فنقول : إن الفارق بين الحال والمقام هو أن الحال يتحول فيذهب ويجىء بخلاف المقام فإنه رسوخ وتمكين . فباطن الطريق إذن الأحوال والمقامات فى السير لدى الجلال رب العالمين .

وبعبارة أخرى : باطن السائر إلى الله بين حال ومقام . وهو انتقال دائم =

.....

= من حال إلى مقام ، ومن مقام إلى مقام . وهذا كله هو باطن الطريق .

ولقد أوضحنا فيما تقدم أن الحال سمي حالاً لتحوله . والمقام مقاماً لثبوته واستقراره . وقد يكون الشيء بعينه حالاً ثم يصير مقاماً . مثل أن يبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد في حال المحاسبة تعاهده الحال ، ثم يتحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، ويغلب حال المحاسبة فتتقهر النفس وتنضبط وتتملكها المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينزله حال المراقبة ، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالاً . ثم يتحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير مقام المراقبة مقاماً بعد أن كانت حالاً ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه . ونازل المشاهدة أيضاً يكون حالاً ويحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاماً وتتخلص من كسوف الاستتار ، ثم في مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء . والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضا والتسليم تكون أحوالاً ثم تصير مقامات ، فما دامت مجاهدة فهي أحوال فإذا كانت ذوقاً فهي مقامات .

(سعيد حوى : تربيتنا الروحية ، القاهرة : مكتبة وهبه ، سنة ١٣٩٩ هـ /

= ١٩٧٩ ، ص : ١٨٩ - ١٩٢) .

.....

= وقال بعض مشايخ خراسان : الأحوال موارث الأعمال .

ولقد اعتبر السهروردي الحب أساساً للأحوال ، كالتوبة بالنسبة للمقامات ، فمن صحت توبته على الكمال ، تحقق بسائر المقامات من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء ، والبقاء ، والصحو ، والمحو .

(طه عبد الباقي سرور : الحلاج ، ص : ٢٦) .

وقد يكون الصبر والشكر حالين . وقد يكونان مقامين . فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام . ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه ، فحاله مزيد لمقامه . فقد صار الصبر مزيداً للشاكر في مقامه .

(أبو طالب المكي : قوت القلوب ، ج ١ ، ص : ٢٠٠) .

والمعروف في المصطلح الصوفي أن الحال والمقام مظهران للشعور الصوفي يتغاير معه من حال عارضة إلى مقام ثابت ، يمكن أن يصبح حالاً ، حسب درجة التوتر الصوفي . فحال الخوف أو القلق أو الرجاء : إذا ثبتت أصبحت مقاماً . فإذا تحولت إلى سكونية أو أُنس أو يأس وحيرة مثلاً أصبحت حالاً .

(عبد القادر محمود : دراسات في الفلسفة الدينية ، ص : ٣٣٩) .

وتتوارد على السالك العديد من الأحوال ، كالرغبة ، أو الرهبة ، أو الفرح ، أو الهجرة ، أو الخوف ، أو القبض ، أو البسط ، أو الجمال .

(أبو العزائم ، محمد ماضى : رسالة الشفاء ، ملحق كتاب دستور آداب السلوك إلى مالك الملوك ، ص : ١٠٠) .

=

.....

= وعندما يحدثنا الجنيد عن الأحوال نجده يبدأ بالمراقبة ، والمراقبة تقتضى القرب ، والقرب يقتضى المحبة والخوف ، والرجاء مقرون بالخوف ، والرجاء والحب يقضيان الشوق ، والشوق يقتضى الأنىس ، والأنىس يقتضى الطمأنينة ، والطمأنينة تقتضى المشاهدة ، والمشاهدة تقتضى حال اليقين . (الطوسى : اللمع ، ص : ٦٨) .

كما أن أرباب الأحوال كالسفن المسرعة فمادام الريح باق فالشرع قائم والسير دائم فإذا فقدوا الريح وقفوا . وهذا هو رأى الخواص .
(الشعرانى : كشف الحجاب والران ، ص : ١٠٥) .

فالأحوال هى التى ترد على العبد على وجه الابتداء ولكن صفاءها بعد زكاء الأعمال ، فهى كالأخلاق من هذا الوجه ، لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه فيفنى بجهده من الله عليه بتحسين أخلاقه ، وكذلك إذا واطب على تزكياه أعماله يبذل وسعة من الله عليه بتصفية أحواله ، بل لتوفيقه أحواله .

فمن يترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنه فنى عن شهواته ، فإذا فنى عن شهواته بقى بنيته وإخلاصه فى عبوديته . وإذا زاهد فى دنياه يقال إنه فنى عن رغبته . فإذا فنى عن رغبته فيها : بقى بصدق إنابته . ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد ، والحقد ، البخل ، والشح ، والغضب ، والكبر ، وأمثال ذلك من رعونات النفس .

ويقال : فنى عن سؤال الخلق . فإذا فنى عن سؤال الخلق بقى بالفتوة والصدق .

ومن شاهد جريان القدرة فى تصاريق الأحكام يقال : فنى عن حساب الحداث من الخلق : فإذا فنى عن توهم الآثار من الأغيار بقى بصفات =

.....

= الحق ، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لاغياً
ولارسماً ولاطلاً يقال إنه فنى عن الخلق وبقي بالحق .

فبناءً للعبد عن أفعاله الذميمة وأحواله الخسيسة يكون بعدم هذه الأفعال .
وفناؤه عن نفسه وعن الخلق يكون بزوال إحساسه بنفسه وبهم .

فإذا فنى عن الأفعال والأخلاق والأحوال فلا يجوز أن يكون ما فنى عنه من
ذلك موجوداً .

وإذا قيل : فنى عن نفسه وعن الخلق . فنفسه موجودة ، والخلق
موجودين . ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محس بنفسه
وبالخلق .

من هذا التوصيف نرى أن الفناء لا يتأتى إلا بمجاهدات ومراقبة يستمر فيها
السائر إلى الله حتى يتخلى عن صفاته المذمومة ليبقى بالصفات المحمودة ،
ثم يفنى عن نفسه فلا يحس بها ، ويفنى عن الأفعال ليرى الفعّال . وهو
نهاية السير ليعود إلى البقاء بالله ، وبداية هذه الحال تكون الذوق
والشرب . وهذه هي وحدة الشهود عند الصوفية .

(عبد الباري محمد داود : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ،
دراسة مقارنة ، ص : ٩٨) .

ومما رواه ابن عطاء الله : « حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن
الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال » .

ويعلق ابن عجيبة على هذا النص فيقول : الأعمال حركة الجسم
بالمجاهدة ، والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب
بالطمأنينة .

=

= ويضرب لذلك مثالا فيقول : مقام الزهد مثلاً ، فإنه يكون أولاً عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ، ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالاً ، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقاماً . وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ، ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ، ثم يصير حالاً ، ثم يسكن فيه ويذوقه فيصير مقاماً . وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل فى الظاهر كخرق العوائد من نفسه ثم تكون مكابدة بالمعرفة والاقرار عن التصرفات ، ثم يصير حالاً ، فإذا سكنت الروح فى الشهود وتمكنت صارت مقاماً ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب . يعنى أن الأحوال مواهب من الله جزاء لشواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال صار مقاماً ، فالأحوال تتحول وتذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب فى ذلك المعنى صار مقاماً وهو مكتسب من دوام العمل .

واعلم أن الحال والمقام لكل واحد علم وعمل ، فالمقام يتعلق بالعلم أولاً ، ثم السعى فى عمله حتى يكون حالاً ، ثم يصير مقاماً ، وكذلك الحال يتعلق بالعلم أولاً ، ثم يصير مقاماً فحالاً .

فعلامه التحقق بمقامات الإنزال ، هو حسن الحال ، وعلامه حسن الحال هو حسن العمل ، فائقان الأعمال ، وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال ، وحسن الأحوال وانقائها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال . أى التحقق بالإنزال فى المقامات .

ويختلف الصوفية فى حقيقة الأحوال والمقامات ، فبعضهم يجعل من المقامات أحوالاً ، والبعض الآخر يجعل بعض الأحوال مقامات . والأمثلة على ذلك كثيرة وأولها ما يورده القشيري الذى أدخل كثيراً من الأحوال =

بقصد انتفاع الناس بك . فذلك طمع كاذب وقد عم البلاء
الحاضرة والبادية ، وصار سلوك الخلق بما هم عليه فيه من البلاء
على اختلاف طبقاتهم ، فإن فائدة السلوك تهذيب النفس
وتمهيدها حتى تذلل . وتأمل الخلق تجد كل شخص مهتم^(١)
بحرفته لا سيما الفلاحين والتراسين والطباخين من سائر الحرف
الشاقة فتجد الضاعل منهم آخر^(٢) النهار قد تخذلت أعضائه
وضعت نفسه إلى الطرف الأقصى . فأى شيخ من مشايخ هذا
الزمان يقدر أن يوصل شخصاً إلى هذا الحد فى يوم بكلامه الذى
يحكيه له عن الصالحين وقس عليه القرآن فى شدة الحر والسقا ،
فى شدة البرد وغيرها .

فاعلم ذلك واستر نفسك وعورتك واتهم نفسك فى دعواها
الصالح . فإن من عمل شيخاً لولا ظن بنفسه الخير ما ادعى

= فى عداد المقامات . وكذلك يختلف الصوفية فى عدد هذه الأحوال
والمقامات .

أما صاحب حكمة الإشراق فإنه يجعل المقامات أربعة عشر ، آخرها مقام
الولاية الخاصة .

نعود إلى ما قررناه من قبل وهو أن المقام ينال بالمجاهدة ، أى هو أمر
كسبى ، أما الأحوال فهى مواهب أو نفحات إلهية . والمقامات أحوال
ثبتت .

(١) فى الأصل مكسورة . (٢) فى الأصل غير واضحة .

ولا تمشيخ فإنه لو ظن بنفسه الضيق والعصيان كما هو الحق
ما صدر منه دعوى .

(قال تعالى) ^(١) : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ ﴾ ^(٢) .

وقال : احذر من قصدك بالذكر تنزيه الله تعالى فإنه
سبحانه له الكمال المطلق فما ثم شيء تنزهه عنه . فمتى
قصدت تنزيهه فقد ألحقت به القبيح بوجهك . تعالى الله عن
ذلك . واحذر أن تقصد به ما يطلبه القاصرون من المحجوبين ممن
طلب الحق فإنه تعالى موجود . والموجود لا يطلب إنما يطلب
المفقود .

فياليت شعري ! هؤلاء المدعين ما حال إيمانهم بالقرآن وهو
سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ (ب) .

فإذا كان معهم أينما كانوا فكيف يطلبونه فإن لم يكن
شهوداً كان إيماناً ؟ فإن لم يصح إيمان هؤلاء فكيف يدعون
الولاية ؟

واحذر من المداومة على الذكر في أوقات مخصوصة وأن

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الشعراء : الآية : ٢٢٧ .

(ب) سورة الحديد : الآية : ٤ .

تختلى وتذكر بوصول ليلة متوالية أو أيام فإن ذلك يقسى^(١)
القلب . وقد جربنا ذلك لأن هذا الذكر لا يكون إلا مع الغفلة^(*) إذ
حضرة الحق حضرة بهت وسكوت لا لفظ فيها ولا يمكن فيها رفع
صوت بذكر ولا غيره . والمراد بذكر الله كثيراً أن يتوالى على العبد
شهوده أن الله ناظر إليه وأنه في حضركه . وهو أولى من شهوده
الحق لأن في ذلك سوء أدب كما لا يخفى .

(١) في الأصل غير واضحة .

(*) الغفلة : يذكر أبو بكر بن أبي سعدان أن الاعتصام بالله تعالى هو
الامتناع به عن الغفلة والمعاصي والبدع والضلالات .

(أبو عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ، ص : ١٠٣) .

وانظر : (ابن قيم الجوزية : الروح ، ص : ٢٤٣) ، و (الشعراني : درر
الغواص ، ص : ٢٦) ، و (تنبيه المغتربين ، ص : ٤٣) ، و (المنح
السنية ، ص : ١٥) ، و (الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ،
ص : ٦٥) ، و (الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص : ٥٨) .

ويقول أبو بكر الكتاني : « روعة عبد عند انتباه من غفلة وارتعاد من خطيئة
أعود على المريد من عبادة الثقلين » .

ولقد قيل : لا تدخل الغفلة إلا من الأمن . ولا يوجد المزيد إلا من الحذر .
حذر قوم فسلموا . وأمن قوم فعطبوا .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ « سورة الكهف : الآية : ٢٨ » .

قال تعالى في وصف نبيه صلى الله عليه وآله وسلم :
﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ^(١) . فاعلم ذلك فإنه من باب المعرفة .
والله تعالى يتولى هداك .

وقال : احذر من استدلالك على علو مرتبتك بإقبال الخلق
عليك واعتقادهم فيك وقبولهم لمراسمك فإن في ذلك هلاكاً .
واحذر من قولك في نفسك لولا أني من الأولياء ما انقاد الخلق لي
هذا الانقياد واعتقدوا في هذا الاعتقاد . وكم من شخص يريد أن
يكون مثلك عند الناس لا يقدر ولا يتيسر له ذلك . وهذا الأمر
ما هو سدى . وهل في قدرتك أنك كنت تجمع هذه القلوب على
محبتك فإن في ذلك كله غرور وضلال .

= والفرق بين الغفلة والنسيان أن الغفلة ترك باختيار العاقل ، والنسيان ترك
بغير اختياره . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا
وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ
الْغَافِلِينَ ﴾ « سورة الأعراف : الآية : ٢٠٥ » .

ولما سئل الواسطي عن الذكر فقال : هو الخروج من ميدان الغفلة إلى فناء
المشاهدة على غلبة الخوف وشدة الحب .
وقال الإمام الجنيد في قوله تعالى : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾
« سورة البقرة : الآية : ١٥٢ » .

أي يميّني بالغفلة ويحييني بالذكر .

(١) سورة النجم : الآية : ١٧ .

فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ إِذَا كَثُرَ إِقْبَالُ الْخَلْقِ عَلَيْكَ فَإِنَّهُ عَلَى قَدَرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْهَبُوطُ وَمَنْ هُوَ جَالِسٌ عَلَى أَسَاسِهِ فَعَاقِبَتُهُ إِلَى خَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّ الْمَكْرَ وَالْإِسْتِدْرَاجَ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ تَعْدَى حُدُودَهُ وَتَجَاوَزَ وَضْعَهُ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

وَقَالَ : أَحْذَرُ أَنْ تَقْرَأَ أَحَدًا مِنَ الْمُعْتَقِدِينَ عَلَى وَصْفِهِ لَكَ بِالْوِلَايَةِ وَالصَّلَاحِ بَلْ أَزْجِرُهُ ^(١) عَنْ ذَلِكَ وَأَنْتَ لَكَ بِهَذِهِ الدَّرَجَةِ وَقَدْ قَرَّرَهُ غَيْرُ مَا أَمَرَهُ أَنْ دَرَجَةُ الْإِسْلَامِ عَزِيزَةٌ فِي مَشَايِخِ هَذَا الزَّمَانِ لِكَثْرَةِ الْمُنَازَعَةِ فِي بَوَاطِنِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمَا يَسْتَحِقُّ لَهُ الْمَدْحُ وَرَفْعُ الْمَنْزِلَةِ عَلَى الْخَلْقِ .

وَالْإِسْلَامُ هُوَ الْإِسْتِسْلَامُ وَالْإِنْقِيَادُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِعِبَادِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَأَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَهُ مَنَازَعَةٌ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَمَالَاتِ وَأَنْ يَسْلَمَ اعْتِقَادُهُ وَإِيمَانُهُ مِنَ الشُّكُوكِ وَالْأَوْهَامِ الْمُضِلَّةِ عَنْ طَرِيقِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَعِبَادَةِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ .

إِذَا ^(٢) عَلِمْتَ ذَلِكَ فَتَيَقِّظْ لِنَفْسِكَ وَلَا تَقْلُدْ أَحَدًا فِي عِلْمِكَ بِهَا فَإِنَّ الْخَلْقَ لَا يَعْلَمُونَ مِنْكَ إِلَّا ظَاهِرَكَ وَالْمَدَارِعَ عَلَى السَّرَائِرِ لَا عَلَى الظُّوَاهِرِ .

وَقَدْ كَثُرَ فِي هَذَا الزَّمَانِ الْمُدَّعِينَ وَصَارَ كُلُّ مَدَّعٍ يَنْصِبُ لَهُ نَقَبَاءً وَكَذَابِينَ وَيَقُولُونَ أَنْ شَيْخَنَا هُوَ صَاحِبُ الْعَصْرِ وَكُلُّ ذَلِكَ

(٢) فِي الْإِصْل : إِذْ

(١) فِي الْإِصْل : أَزْجِرُهُمْ .

مصيصة للدينيا وتأمل مرجعهم^(١) لشيخهم إنما يكون دائما عند
الأمراء كبراء البلاد ونحوهم ممن يتوهمون قوله البر . فما ترى
منهم أحدا يمدح شيخه عند صناعي فقير^(٢) أبدا ولا عند فلاح
صعلوك لعلمهم أن هؤلاء ليس عندهم شيء يأخذونه لهم
ولا لشيخهم .

وفي الأمثال^(*) السائرة أن كلب السوق تناظر مع كلب الصيد .
فقال كلب السوق لقلب الصيد : مالك لا ترضى بالكسر التي على
المزابل مثلى وتجنببت الملوك والأمراء وأبناء الدنيا . فقال كلب
الصيد لقلب السوق : أنا وإن خالطت الملوك وغيرهم فأنا متعفف
عما بأيديهم لا أكل منهم شيئا واصطاد لهم لا لنفسي ولذلك
عظموني وأكرموني وقربوني وأجلسوني على فراشهم ولم ينظروا
إلى خسأتي حين رأوا شرف همتي وأنت لما كنت كثير الشره
والحرص فيما بأيديهم ولا تصطاد إلا لنفسك طردك الخلق إلى

(١) في الأصل غير واضحة .

(٢) في الأصل مطموسة .

(*) الأمثال : لقد اتصف العرب في جاهليتهم بالفصاحة والبلاغة ، وهو
ما نلاحظه في كلامهم المنشور الواصل إلينا ، وذلك نتيجة طبيعة الجزيرة
العربية القاسية ، وحالة المجتمع القبلي الاجتماعية ، فالحاجة في ذلك
المجتمع كانت توجب على القبيلة أن يكون لها خطباء وحكماء . =

المرابيل ومقتوك فتأمل ذلك ولا تغتر بمدح الخلق لك . والله يتولى
هذاك .

وقال : أدب العبيد شهودهم سوء أدبهم في جميع
معاملاتهم مع الله تعالى ومع الخلق ، فاعلم ذلك واحذر إذا فتح
الله بصيرتك وعلمت قلة أدبك وعدم استقامتك أن تترك باب
النصح والإرشاد لإخوانك وتقول الأعوج لا ينبغي له أن
يتصدر لإرشاد أحد فإن ذلك جهل بل انصح وارشد غيرك
مع رؤيتك أنه خير منك . فعلم أنه من ترك النصيحة مؤاخذاً
بذلك لأنه منازع لله في الأثوية لا طالب أن يكون مألله على
عباده من أمثال أمره واجتناب نهيه هذا شأن كل من

= ولقد شاع بين العرب في الجاهلية ذكر لقمان ، واتخذوه شخصية هي مثال
الحكمة ينسبون إليه من الأمثال كثيراً مما يعرف قائلة . وفي القرآن الكريم
سورة باسمه وزعم بعض العلماء أن هناك لقمانين : لقمان الحكيم ،
ولقمان عاد ، وأن لكل وردت أمثال .

(عبد الباري محمد داود : اللسان ميزان بين الصمت والكلام . القاهرة :
دار قباء ، سنة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م ، ص : ١٣٥ - ١٣٧) .

فالأمثال العربية غاية في البلاغة والفصاحة من حيث إيجاد ألفاظها ،
وإصابة معانيها ، وحسن تشبيهاتها . فقد أوصلت إلينا الأمثال حكم
العرب وإرشاداتهم وحسن أفكارهم ونتائج أعمالهم وتجاربهم ، وأعطتنا
فكرة كاملة بكلام موجز عن الأشخاص الذين استعملوها . وصورت لنا
أخلاقهم وعاداتهم لذلك كانت الأمثال والحكم سجلاً من سجلات =

نصح بغير أمر إلهي فافهم .

(قال تعالى) ^(١) : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ^(٢) .

وكان يقول : من علامة الجهل بطريق أهل الله تعالى البروز
للدعوى بغير داع إلهي يدعوه إلى ذلك . ويقال لهذا المحجوب
المدعى هل أمرك بالبروز للدعوة على من ضل ؟ أهو ^(٢) على من
دونك ، أو مثلك ، أو أعلى منك ؟

فإن قال على من دوني . قلنا له : أنت جاهل لاتصلح لشيء من
هذا الباب لأن من ذاق من الطريق شيئاً لا يتصور منه أن يرى أحداً
من الخلق دونه في المرتبة . والذي لم يذق شيئاً كيف يربى ويسلك
فتأمل .

وإن قال على مثلي أو من هو أعلى منه . قلنا له : هذا
كلام لا يصدر من عاقل فإن كلاً منهم لا يحتاج إليك فلا
فائدة لتمشيحك عليهم . فاعلم ذلك واحذر من استنادك لنام
تراه أو إذن قاصر من مشايخ هذا الزمان .

= العرب التي نقلت إلينا أحداثهم الهامة وحروبهم وبطولاتهم وثقافتهم
المختلفة .

(١) لا توجد في الأصل ، زيادة أضفناها حفظاً لسياق المعنى .

(١) سورة البروج : الآية : ٩ .

(٢) في الأصل مطموسة .

(قال تعالى) (١) : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ .

وكن ناصحاً لإخوانك ما استطعت من غير رؤية نفس ومئة عليهم . والله يتولى هداك وهو يتولى الصالحين .

وكان يقول : ما أنفع ما يشتغل به العبد من العلوم الكونية ما كان متعلقاً بالأدب مع الله تعالى ومع خلقه وما عدا ذلك فهو اشتغال بما لا يعنى وجميع ذلك كله أن يشهد العبد نفسه غارقاً فى كل وصف مذموم عارياً عن كل وصف محمود . ومن شهد هذا المشهد فقد أعطى كل ذى حق حقه وميز وصفه من وصف سيده ودخل فى حضرة النعيم المقيم أبد الآبدين . فهذه طريقة نفيسة سهلة لأن ذلك إن لم يكن شهوداً قائماً نافياً (٢) من الحظ عن درجة الإيمان فلا كلام لنا معه لغالب ممن يتمشيخ فى هذا الزمان فإنه لا يصير شيخاً إلا بإزدراء إخوانه ورؤية أنهم دونه بدرجات .

فيرد قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (ب) .

(١) لا توجد فى الأصل ، أضفناه حفظاً لسياق المعنى .

(أ) سورة الأنفال : الآيتان ٢٢ - ٢٣ .

(٢) فى الأصل : زاو

(ب) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١).

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ^(ب).

ويجعل نفسه خيراً من إخوانه ولياً على الخلق دون الله

تعالى وأولى بالمؤمنين من النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذا خرق لسياج العبودية ^(*) على الإطلاق . وفي هذا

القدر كفاية . وقد أوضحنا ذلك فى : « رسالة الأنوار » ، و « لواقع

الأنوار » وغيرهما .

(أ) سورة البقرة : الآية : ٢٥٧ .

(ب) سورة الأحزاب : الآية : ٦ .

(*) العبودية : إن الله سبحانه وتعالى بين طريق الهدى وطريق الضلال ،

وخلق الإنسان من الاستعداد ما يختار به هذا أو ذاك . ويسرله الطريقين سواء ، وهو بذلك يختار لأن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ، ويختار الهداية أو يحيد عنها . ويؤدى دوره فى هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة =

.....

التي فطره الله عليها لغرض وحكمة في طبيعة هذا الوجود لكن الله سبحانه

وتعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾

« سورة الأنعام : الآية : ١٢ » .

هذا التفضل الإلهي الذي يتفضل به الله سبحانه وتعالى على عباده ،
ووعدهم به ، فوعده الحق وكلامه الصادق ، يؤكد وجود رابطة بين العبد
وربه ، رابطة بين العبودية والربوبية ، وهذه الرابطة هي رابطة المحبة
والرجاء في وعد الله سبحانه وتعالى . وهذا ما يجعل هناك علاقة بين
العبودية والربوبية بدون واسطات أو توسلات ، فإذا دعى الإنسان ربه
بإخلاص وتوبة نصوح استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائه وأنزل رحمة
من عنده لتشمله فيعفو عن آثامه .

كما أن هذه الرابطة تعنى أن الله تعالى أوجب على نفسه الرحمة كما
أوجب على الإنسان من قبل أن يهبط إلى الأرض .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾
« سورة طه : الآية : ١١٥ » .

فإذا نسى الإنسان ما تعهد به كما نسى من قبل آدم عليه السلام ، فإن عليه
أن يلتجئ إلى الله تعالى ، فلا ملجأ من الله إلا إليه .

ولقد أوجب الحق تبارك وتعالى الرحمة للإنسان ، والدليل على ذلك أنه
لا يستجيب للإنسان إلا بعد دعاء العبد إياه .

قال تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ « سورة غافر : الآية : ٦٠ » .

لكن الذي ينبغي توضيحه أن استجابة الله لدعاء الإنسان مقترنه بالعمل =

.....

= الصالح لله سبحانه وتعالى ، فلا يكون العبد مجاباً لدعائه للحق إلا إذا استجاب العبد للأمر الإلهي . وهذه هي الحقيقة التي دعا إليها القرآن الكريم ، وقام بها أهل التحقيق والكمال من أهل العرفان من السلف الصالح . ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم إمام هؤلاء وأكملهم فهم المؤمنون الذين لا يهتدون إلا بهدى الكتاب والسنة لا يكون في قلوبهم سوى محبة الله وإرادته وعبادته . لأن عندهم من سعة العلم والتمييز ما يشهدون به الأمور على ما هي عليه ، بل يشهدون المخلوقات قائمة بأمر الله ، مدبرة بمشيئة ومستجيبة له وقائمة له ، فيكون لهم فيها تبصرة وذكرى . ويكون ما يشهدونه من ذلك مؤيداً وممدداً لما في قلوبهم من إخلاص الدين ، وتجريد التوحيد لله ، والعبادة له وحده لا شريك له .

هناك رابطة إذن بين الربوبية والعبودية ، فالعبد عليه أن يأتمر بأمر الله فيطيعه ويعمل له ، فإذا أخطأ أو نسى أو غوى عليه أن يرجع إلى ربه داعياً مستغفراً أن يعفو عنه وأن يحسن له .

وهنا ينبغي أن نوضح أن الدعوة لا تكون مستجابة إلا إذا امتثل المرء للأمر الإلهي . والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ * سورة البقرة : الآية : ١٨٦ .

ومن ناحية أخرى فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة ، فإذا وجد عبده انحرف عن الصراط المستقيم أو ظلم نفسه فإنه بواسع رحمته يغفر له .

ما أخرى الإنسان بأن يمثل كلمات الله الثامات المباركات ويقتدى بآياته =

.....

= البينات الواضحات التي تنير له طريق الهدى والرشاد . إن الله سبحانه وتعالى أوجب على نفسه الرحمة يتفضل بها على عباده فينعم عليهم بنعم كثيرة رغم أنه الحق تبارك وتعالى فهو رب كل شيء ومليكه ، وأن كل شيء مخلوق لله تعالى . ومادام الله سبحانه وتعالى مالك كل شيء ومليكه وأن كل ماسوى الله مخلوق له تعالى . ومادام الله مالك الملك فكل العالم تحت تصرفه يفعل به مايشاء على من يشاء من غير اعتراض أو تجبر .

والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، يتصرف في الكل كيف يشاء وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر وإن دقت وخفيت ، وأنه سبحانه وتعالى سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم .

قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ « سورة البقرة : الآية : ٢٨٤ » .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ « سورة آل عمران : الآية : ٢٩ » .

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

« سورة المائدة : الآية : ٤ » .

فلو شاء الله سبحانه وتعالى أن يوفق أهل الإسلام للإيمان فيرحمهم أو يعذب المنافقين إن شاء بكفرهم بالله ونفاقهم . فانه سبحانه وتعالى =

.....

= يعذب من يشاء على حسب عمله ويغفر لمن يشاء . والله بيده كل شيء .
وهو على كل شيء قدير .

وهكذا تتضح المشيئة الإلهية بأن يغفر لمن يشاء من الذين يؤمنون به
ويرسلوه ويعذب من يشاء من الذين يعيشون في الأرض بالفساد ،
ولا يسمعون كلام الله ورسوله . فهؤلاء الذين حق عليهم القول يعذب من
يشاء .

وكذلك تتجلى الرابطة بين العبودية والربوبية في أن الحق سبحانه وتعالى
يحب من عبده أن يوفى بعهده كما أوجب ذلك على نفسه فإذا عمل العبد
أعمالاً أمره الله بها فأتقنها فقد شرع الله لنفسه أن يجازي هذا العبد الصالح
على ما قام به من أعمال للبر وأفعال للخير وما كلفه من فرائض وتكاليف .
ويتمثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ «
سورة البقرة : الآية : ٤٠ » .

فعلى العبد إذن إن يعمل بما أمره الله سبحانه وتعالى ويطلب من الله تعالى
أن يغفر له ، كما أن الله تعالى يطالب العبد أن ياتم بأمره ويوفى بعهده .

قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ
لَذِكْرِي ﴾ « سورة طه : الآية : ١٤ »

هناك إذن رابطة بين الربوبية والعبودية تقوم على الصدق والحق والرجاء
في وعد الله والخوف من وعيده تلخص هذه الرابطة في العمل بأمر الله من
ناحية وفي الدعاء من جانب العبد من ناحية أخرى ، وهذه الرابطة قائمة
على الأدب مع الله تعالى والطاعة له جميعاً .

=

وقد وضعنا هذه الرسالة للتنفير عن طريق هؤلاء المغترين .
فإذا حصل التنفير فلينظر في بقية رسائلنا الموضوعة لبيان
الآداب المتعلقة بالخلق من الملوك والعلماء وأصحاب الحرف
وغيرهم . والحمد لله رب العالمين والصلاة والتسليم علي أشرف
مخلوقاتك وزين عبادك سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم
ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين . تمت .

فإنسان إذن محتاج إلي الله بالضرورة والله سبحانه وتعالى مستغن عن
العالم والإنسان جميعاً ، فهو الخالق الكامل القادر العليم الحكيم . أما
الإنسان فهو الضعيف الذي لا حول له ولا قوة والذي بدون الاستعانة بالله
سبحانه وتعالى لا يستطيع أن يفعل شيئاً .
يقول الرسول صلي الله عليه وآله وسلم حاكياً عن ربه سبحانه وتعالى :
« من تقرب إلي الله بشبر تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت
منه باعاً ، ومن آتاني يمشي أتيته هرولة » .
لذلك كان الواجب علي العبد أن يهتم بطاعة الله سبحانه وتعالى وأن يعقد
نيته علي هذه الطاعة .

ومن الواجب كذلك علي العبد أن يعزم علي التقرب من الله ، وأن تكون
إرادته أن يتقرب إلي الحق سبحانه وتعالى حتي يصبح عملاً وسلوكاً . ثم
يجاهد العبد جهاداً مع نفسه حتي يعينه الحق سبحانه وتعالى من التقرب
إليه لأن العبد لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي التقرب يتمثل العبد الله دائماً في كل خطوة يخطوها بحيث يدرك أن
الله تعالى أقرب إليه من حبل الوريد في كل آن . والله سبحانه وتعالى يعلم
من عباده الضعف والجهل وقلة الحيلة فيأخذ بيد العبد ويربطه به برابطة
لا تنفصم عراها ، فيعيش العبد في الخير الدائم والنعيم ويشعر بالأمن
والطمأنينة في الدنيا والسعادة الأبدية في الآخرة .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاهـداء	
مقدمة الناشر	٥
الورقة الأولى من المخطوط	٨
الورقة الثانية من المخطوط	
الورقة الأخيرة من المخطوط	٩
مقدمة عامة	١٠
القسم الأول :	١٧
تقديم دراسة حول شخصية الإمام عبد الوهاب الشعراني	
نبذة عن عصر الإمام الشعراني	١٩
حقيقة التصوف عند الإمام الشعراني	٢٢
سيرة الإمام عبد الوهاب الشعراني	٢٩
شيوخ الإمام الشعراني	٤٢
حقيقة الزهد عند الإمام الشعراني	٤٥
مؤلفات الإمام الشعراني	٤٦
منهجنا في الدراسة والتحقيق	٦٢
نسبة المخطوط إلى الإمام الشعراني	٧٢
الإشارات المستخدمة في التحقيق والدراسة	٧٥
منهج الإمام الشعراني	٧٨
القسم الثاني : النص المحقق :	
« ردع الفقراء عن دعوى الولاية الكبرى »	٩١
الحمد لله	٩٣
الفقراء	٩٨
الصوفية	١٠٨
الولاية	١١٢

الموضوع	الصفحة
الذكر	١٢١
الخلوة	١٢٦
الأدب	١٣٢
المقام	١٣٥
الملائكة	١٤٢
الشريعة	١٥١
الطريق	١٥٧
المعرفة	١٦٠
الجوع	١٧٧
الشيخ	١٨٤
المريد	١٨٥
البلاء أو الأبتلاء	١٨٦
الإسلام	١٩٣
الكشف الإيمان	١٩٤
الدعاوي	٢٠٤
الذوق	٢٠٧
السعادة	٢١٥
الحضرة	٢١٨
التجلي	٢٢١
الأنفاس	٢٢٨
الوقت	٢٣٢
السر	٢٣٦
القرب	٢٤٣
الدعوة	٢٤٧
البصيرة	٢٥١

الموضوع	الصفحة
الظاهر والباطن	٢٥٥
التواضع	٢٦٨
المزاح	٢٧٣
العزلة	٢٧٨
النقيب	٢٧٨
الاستقامة	٢٨٠
الغيب	٢٩١
التوبة	٢٩٢
الوحي	٣٠٠
اليقين	٣٠٠
الحق والباطل	٣١٥
الفقهاء	٣١٨
اللورع	٣٢٠
البركة	٣٣٧
الكبر أو التكبر	٣٤٠
المنة	٣٤٩
الزاجر	٣٥٣
القطب	٣٦٨
الدعاء	٣٧٦
الحال	٣٨٧
الغفلة	٤٠٠
الأمثال	٤٠٣
العبودية	٤٠٧
فهرس الموضوعات	٤١٣

رقم الايداع

٢٠٠٢ / ١٤٧١٢

الترقيم الدولى

I.S.B.N

977-5259-72-x